صبح الأعشى

الجزء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصد الثالث في المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبي ممن جرت العادة بالمكاتبة إليه من العرب والسودان وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى في المكاتبة إلى من بهذا الجانب من العربان

مكاتبة العربان

وقد ذكر في التثقيف ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها، ثم قال: ولعل هؤلاء أيضاً من عربان الممالك المحروسة، غير أنه لا إقطاعات لهم، وعد منهم ثمانية أشخاص، وذكر أنه كتب إلى كل منهم الاسم والمجلس الأمير: الأول: سمرة بن كامل العامري الثاني: عابد بن قاسم الثالث: كمال بن سوار. قال: وهو مستحدث المكتبة في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

الرابع: جنيد: شيخ الجوابرة من الهكارية بأبواب النوبة. قال: وهو مستحدث المكتبة في سنة تسع وستين وسبعمائة.

الخامس: شريف شيخ النمانمة، بأبواب النوبة أيضاً، ومكتبته مستجدة حينئذ.

السادس: علي شيخ دغيم.

السابع: زامل الثاني.

الثامن: أبو مهنا العمراني.

الجملة الثانية في المكاتبة إلى مسلمي ملوك السودان

وهم أربعة ملوك

الأول: ملك النوبة. وهو صاحب مدينة دنقلة، وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في المسالك والممالك. قال في التعريف: وهو رعية من رعايا صاحب مصر، وعليه حمل مقرر، يقوم به في كل سنة، ويخطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر.

قلت: هذا كان في الدولة الناصرية، محمد بن قلاوون وهذه الإتاوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح، في إمارة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ثم صارت تنقطع تارة وتحمل أخرى، بحسب الطاعة والعصيان. وهي الآن مملكة مستقلة بذاتها، ولذلك أوردت مكاتبة صاحبها في جملة الملوك.

ورسم المكاتبة إليه إن كان مسلماً على ما ذكره في التعريف: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل الكبير الغازي المجاهد المؤيد الأوحد العضد مجد الإسلام زين الأنام فخر المجاهدين عمدة الملوك والسلاطين.

وذكر ذلك في التثقيف نقلاً عنه، ثم قال: ولم أجد له مكاتبة " متداولة " بين الجماعة. قال: ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء، ولم يزد على ذلك. من أول السطر ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلائي بن فضل الله أن مكاتبته هذه المكاتبة أيضاً، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين: أدام الله سعادته، وبلغه في الدارين إرادته، تتضمن إعلامه كيت وكيت، فيتقدم بكذا وكذا، فيحيط عمله بذلك " . ثم قال: والمكاتبة إليه في قطع العادة والعلامة أخوه ولا يخفى أن العنوان بالألقاب، ويظهر أن التعريف صاحب دنقلة.

الثاني: ملك البرنو. قال في التعريف: وبلاده تحد بلاد ملك التكرور من الشرق، ثم يكون حدها من الشمال بلاد صاحب أفريقية، ومن الجنوب الهمج. وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية من الكلام على المسالك والممالك. ولم يذكر هذه المملكة في مسالك الأبصار. قلت: وملكها يزعم أنه من ذرية سيف بن ذي يزن ملك اليمن على ما ورد به كتابه في أواخر المائة السابعة.

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكر في التعريف: أدام الله تعالى نصر الجانب الكريم العالي الملك الجليل الكبير العالم العادل الغازي المجاهد الهمام الأوحد المظفر المنصور عز الإسلام، من نوع ألقاب ملك التكرور، يعني شرف ملوك الأنام ناصر الغزاة والمجاهدين زعيم جيوش الموحدين، جمال الملوك والسلاطين ظهير الإمام عضد أمير المؤمنين الملك فلان، ويدعى له بما يناسبه، وبعد إهداء السلام والتشويق هذه المفاوضة تبدي، على ما سيأتي ذكره في مكاتبته.

وهذا صدر يليق به: ولا زالت همم سلطانه غير مقصرة، ووفود حجه غير محصرة، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار، يقول: " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة " . صدرت ولها مثل مسكة أفقه عبق، وعنبرة طينته سواد إلا أنه من السواد اليقق، وشيبية ملكه الذي يفديه سواد الحدق، أوجبها ود أسكنه مسكنه من سويداء القلب لا يريم، وأراه غرة الصباح الوضاح تحت طرة الليل البهيم. وحكى ذلك عنه في التثقيف ولم يزد عليه. ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلائي بن فضل الله أن مكاتبته في قطع الثلث والعلامة أخوه وتعريفه صاحب برنو.

قلت: ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية برقوق يتشكى فيه من عرب جذام المجاورين له، ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه باعوهم في الأقطار، وسأل الكشف عن خبرهم، والمنع من بيعهم بمصر والشام وأرسل هدية صالحة من زئبق وغيره. وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر، أحد كتاب الدست، صدره: أعز الله تعالى جانب الجناب الكريم العالي الملك الجليل العالم العادل الغازي المجاهد الهمام الأوحد المظفر المنصور المتوكل، فخر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس عز الإسلام شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين زعيم جيوش

الموحدين، جمال الملوك والسلاطين سيف الجلالة ظهير الإمامة.
وبعث إليه به مع رسوله الوارد صحبة الحجيج فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين.

الثالث: ملك الكانم. قال في مسالك الأبصار: وقاعدة الملك منها بلدة اسمها جيمي ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زلا وآخرها طولاً بلدة يقال لها كاكا وبينهما نحو ثلاثة أشهر. قال: وعسكرهم يتلثمون وملوكهم على حقارة سلطانه، وسواء بقعة مكانه، في غاية لا تدرك من الكبرياء، يمسح برأسه عنان السماء مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد محجوب لا يراه أحد إلا في يوم العيدين بكرة وعند العصر وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب.
وقال في التعريف ملوكها من بيت قديم في الإسلام وجاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن وهو يتمذهب بمذهب الشافعي ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في التعريف كرسم مكاتبة صاحب البرنو بدون الكريم، وتبعه على ذلك في التثقيف ناقلاً له عنه. ثم قال: ولم أطلع على مكاتبة له غير الذي قد ذكره.
الرابع ملك مالي: قال في مسالك الأبصار وهي في نهاية الغرب متصلة ببحر المحيط وقاعدة الملك بها بنبي وهي أعظم ممالك السودان وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها، وما تيسر من ذكر ملوكها، وإن مالي اسم للإقليم والتكرور مدينة من مدنه، وكان ملكها في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، منسا موسى ومعنى منسا السلطان.
وقد ذكر فيه مسالك الأبصار أنه وصل منه كتاب عن نفسه لنفسه فيه ناموساً وإنه وصل إلى الديار المصرية حاجاً، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، فقام له وتلقاه وأكرمه وأحسن نزله على ما هو مبسوط في موضعه.
قال في التعريف: وملك التكرور هذا يدعي نسباً إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب.
ورسم المكاتبة إليه على ما ذكر في التعريف: أدام الله تعالى نصر المقر العالي

السلطان الجليل الكبير العالم العادل المجاهد الؤيد الأوحد عز الإسلام شرف ملوك الأنام ناصر الغزاة والمجاهدين زعيم جيوش الموحدين، جمال الملوك والسلاطين سيف الجلالة ظهير الإمامة عضد أمير المؤمنين الملك فلان. ويدعي له بما يناسب وبعد إهداء السلام والتشوق هذه المفاوضة تبدي.

قال: ولا يعرض له ولا يقر بشيء من الألقاب الدالة على النسب العلوي وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره في التعريف: ويسر له القيام بفرضه، وأحسن له المعاملة في قرضه، وكثر سواده الأعظم وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه، ومتعه بملك يجد الحديد سجف سمائه والذهب نبات أرضه. صدرت هذه المفاوضة وصدرها به مملو، وشكرها عليه يحلو، ومزايا حبه في القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حلي به الطرف والقلب من السواد، تنزل به سفنها المسيرة في البحر وترسى، وتحل عند ملك ينقص به زائده، وينسى موسى منسى، وتقيم عليه الدهر لا يطرقه فيما ينوب، والفكر لا يشوقه إلا إذا هبت صبا من أرضه أو جنوب.

والمتداول بين جماعة كتاب الإنشاء أن المكاتبة إليه: أعز الله تعالى جانب الجناب الكريم العالي الملك الجليل العالم العادل المجاهد المؤيد المرابط المثاغر العابد الناسك الأوحد فلان، ذخر الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين، عون جيوش الموحدين، ركن الأمة عماد الملة جمال الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين والدعاء.

وذكر نحو ذلك في الدستور المنسوب للمقر العلائي بن فضل الله ثم قال: ويقال: " صدرت هذه المكاتبة إلى الجانب العالي مملوءة الصدر بشكره، باسمة الثغر برفعة قدره، موضحة لعلمه الكريم كيت وكيت، وذكر أن خطابه بالجناب الكريم، والطلب والقصد والختم بالإحاطة وذكر هو وصاحب التثقيف أن المكاتبة إليه في قطع الثلث، والعلامة أخوه وتعريفه صاحب مالي وغانة.

الجملة الثالثة في المكاتبة إلى ملوك المسلمين بالحبشة

قد تقدم في المقالة الثانية في كلام المسالك والممالك أن ببلاد الحبشة سبعة ملوك مسلمين، لهم سبع ممالك، كل مملكة منفردة بملك، وبها الجوامع والمساجد ينادى فيها بالأذان، وتقام بها الجمع والجماعات، وهم مع ذلك تحت أمر صاحب أمحرا ملك الحبشة يختار لولاية ممالكهم من شاء توليته ولا يردون ويصدرون إلا عن أمره، وهي مملكة أوفات والزيلع، مملكة دوارو، ومملكة أرابيني ومملكة هدية، ومملكة شرحا، ومملكة بالي ومملكة دارة.

وقد تقدم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها في المقالة الثانية. قال في ذلك مسالك الأبصار: وهذه الممالك تجاور ناصع، وسواكن، ودهلك، وليس بها مملكة مشهورة.

قال في التعريف: ولم يرد من هذه الملوك السبعة كتاب، ولا صدر إليهم خطاب. قال: فإن ورد منهم شيء فتجري مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكانم والبرنو. وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في التعريف: أعز الله تعالى نصرة الجانب الكريم، وأعز الله تعالى جانب الجانب الكريم. على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه.

المقصد الرابع في المكاتبة إلى أهل الجانب الشمالي وفيه ثلاثة أطرق

الطرف الأول في المكاتبات إلى الأمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم المسماة الآن ببلاد الدروب

قال في التعريف: وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني تنتهي في شرقيها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش، وفي الغرب إلى الخليج

القسطنطيني وتنتهي متشاملة إلى القسطنطينية، وتنتهي جنوباً إلى بلاد الأرمن، يحدها البحر الشامي. قال: وهذه البلاد بلاد متسعة وهي مفرقة لملوك مجتمعة، ولكنه لا يطلق عليها إلا اسم الإمارة ولا انتظام لكلمتهم، واجتماع لجملتهم، ثم قال: وأكبرهم صاحب كرميان وله بينهم وضع محفوظ ونظام مرعي.

أما ملوكنا، فأجل من لديهم منهم جماعة بني قرمان، لقرب ديارهم، وتوصل أخبارهم، ولنكاياتهم في متملك سيس وأهل بلاد الأرمن، واحتياجهم لهم من ذلك الجانب، مثل احتجاج عساكرنا لهم من هذا الجانب، فمكاتبتنا إلى بني قرمان لا تكاد تنقطع، وأما إلى البقية فأقل من القليل، وأخفى من مرأى الضئيل. ثم عد منهم ستة عشر أميراً. وذكر رسم المكاتبة إلى كل واحد منهم: الأول: صاحب كرميان. قال في التعريف: ولم يكتب إليه مدة مقامي بالأبواب السلطانية، ويشبه أن تكون المكاتبة إليه بالمقر نظير صاحب ماردين، لكن بأبسط ألقاب، إذ هي أدعى لاستحسانهم لقلة معارفهم، وعلى هذا التقدير يكون رسم المكاتبة إليه: أعز الله تعالى نصر المقر الكريم العالي الملكي الأجلي العالمي العادلي المجاهدي المؤيدي المرابطي المثاغري المظفري المنصوري الفلاني عون الأنام، شرف الملوك والسلاطين نصير الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدم العساكر، ظهير أمير المؤمنين.

قال: فإن لم يسمح له بكل هذه المخاطبة، ولم يؤهل لنظير هذه المكاتبة، كتبت هذه الألقاب مع الجانب الكريم، وخوطب بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالملك.

قال في التثقيف: ولعل مكاتبته بالجناب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى، لأنه إذا كان بنو قرمان أجل لدى ملوكنا، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالي، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبة في المكاتبة بدرجتين، وهي: الجناب الكريم. قال: هذا هو الأولى عندي. قلت: وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برسا الآتي ذكره، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة. أما بعد ارتفاعه وانحطاطهم دونه فينبغي أن ينظر في قدر المكتوب إليه، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال.

الثاني: صاحب طنغزلو. قال في التعريف: ورسم المكاتبة إليه: صدرت هذه

المكاتبة إلى المجلس العالي الأميري ولم يذكر العلامة إليه، قال في التثقيف والذي وجدته مسطوراً في مكاتبته الاسم والسامي بالياء.
الثالث: صاحب توازا. قال في التعريف: وهو في المكاتبة نظير صاحب طنغزلو، ولم يزد على ذلك، غير أنه ذكر أن اسمه في زمانه كان على أرينه وذكر في التثقيف أنه لم يقف على رسم مكاتبة سوى ذلك.
الرابع: صاحب عيدلي. قد ذكر في التعريف أن اسمه في زمانه دندار أخو يونس صاحب أنطاليا. وأنه نظير صاحب توازا في المكاتبة، فتكون المكاتبة إليه: صدرت والعالي. قال في التثقيف: ولم أقف على رسم مكاتبة إليه سوى ذلك، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو. وقال أن المكاتبة إليه الاسم والسامي بالياء، وذكر أن المقر الشهابي بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره في التعريف ثم قال: وقد تكون هي عيدلي المقدم ذكرها، وإنما تكررت بتغيير الحروف. قال ولم يتحرر هل لهما اثنان أو واحد.

الخامس: صاحب كصطمونية وهي قسطمونية. قال في التعريف وكانت آخر وقتٍ لسليمان باشا، وكان أميراً كبيراً كثير العدد موفور المدد ذا هيبةٍ وتمنع. ثم قال: وورث ملكه ابنه إبراهيم شاه، وكان عاقاً لأبيه خارجاً عن مراضيه وكان في حياته منفرداً بمملكة سنوب. قال وهي الآن داخلة في ملكه منخرطة في سلكه. وذكر أن رسم المكاتبة إليه: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري بأكمل الألقاب، وأتم ما يكتب في هذا الباب. وذكر في التثقيف نقلاً عن القاضي ناصر الدين بن النشائي، وأمين الدين خضر مثل ذلك، وأن العلامة إليه أخوه.
السادس: صاحب فاويا. قال في التعريف وهو يعني في زمانه مراد الدين حمزة، وهو ملك مضعوف، ورجل بمجالس أنسه مشغوف. قال: ورسم المكاتبة إليه: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الأميري بالياء. وقال في التثقيف وهو غير بعيد.
السابع: صاحب برسا. وقد ذكر في التعريف أنه في زمانه أرخان بن عثمان. ثم قال وهو نظير صاحب فاويا في المكاتبة، فتكون مكاتبته السامي بالياء. وقال في

التثقيف ولم أطلع على رسم المكاتبة إليه غير ذلك، إلا أنه ذكر في الفصل الأول من الباب الرابع في الكلام على مكاتبات الحكام أرخان بن عثمان. وقال: إن لقبه سيف الدين. ثم قال ويقال إنه صاحب برسا، وذكر أن رسم المكاتبة إليه في قطع العادة والدعاء والمجلس العالي، والعلامة أخوه وتعريفه اسمه.

قلت: وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل في بني عثمان إلى أرخان بن عثمان جق، ثم إلى ابنه مراد بك، وأنه اتسع ملكه وجاوز في الفتح الخليج القسطنطيني، حتى قارب خليج البنادقة، ثم إلى ابنه أبي يزيد فزاد في الملك على ما كان بيد أبيه، وتزوج في بني قرمان، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان في طاعته، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس، فإنها كانت مع قاضيها إبراهيم المتغلب عليها، ولم يزل ذلك حتى قصده تمرلنك وأسره، ومات في يديه، وملك بعده ابنه سليمان جلبي. ثم مات، وملك بعده أخوه محمد بن أبي يزيد بن مراد بك بن عثمان جق، وهو القائم بها الآن وكانت المكاتبة قد استقرت إلى أبي يزيد في الأيام الظاهرية برقوق.

الثامن: صاحب أكبرا. قد ذكر في التعريف: أنه كان في زمانه دمر خان بن قراشي، وذكر أن مكاتبيه نظير مكاتبة صاحب برسا، يعني السامي بالياء، وذكر في التثقيف: أنه لم يقف على سوى ذلك.

التاسع: صاحب مرمرا. وقد ذكر في التعريف: أنه في زمانه كان بخشي بن قراشي. وقال إن رسم المكاتبة إليه: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي.

قلت: وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرة بالخليج القسطنطيني بها مقطع رخام، وأن النصارى غلبوا عليها.

العاشر: صاحب مغنيسيا. ذكر في التعريف: أن اسمه صاروخان، وقال: إن المكاتبة إليه السامي بالياء. وذكر في التثقيف: أنها صارت بعده إلى ابنه إسحاق بن صاروخان، وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة بالاسم والسامي بالياء.

الحادي عشر: صاحب نيفٍ. ذكر في التعريف: أنه في زمانه كان علي باشا أخو صاروخان صاحب مغنيسيا المقدم ذكره، وذكر أن رسم المكاتبة إليه مثل أخيه

المذكور، فتكون صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي.
الثاني عشر: صاحب بركي. ذكر في التعريف: أنها في زمانه كانت بيد ابن أيدين ولم يصرح باسمه. وقال أن المكاتبة إليه أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي بالألقاب التامة، وذكر في التثقيف: أنه لم يقف له على مكاتبة غير ذلك.
الثالث عشر: صاحب فوكه. ذكر في التعريف: أنه كان في زمانه أرخان ابن منتشا، وأن المكاتبة إليه نظير صاحب بركي، فتكون الدعاء مع العالي بالألقاب التامة أيضاً، وذكر في التثقيف: أنه لم يقف في مكاتبته على غير ذلك.
الرابع عشر: صاحب أنطاليا. ذكر في التعريف أنه كان في زمانه اسمه خضر بن يونس، وقال أن اسم المكاتبة إليه صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي. وذكر في التثقيف: أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب سنان الدين، وأنه استقر بعده دادي بك، ثم استقر بها آخراً محمد المعروف بكاجوك، وذكر أن المكاتبة إليه أخوه والدعاء العالي، ثم قال وهو الأصح لأنه آخر ما استقر عليه الحال في مكاتبته وكتب به إليه.

الخامس عشر: صاحب قراصار. ذكر في التعريف أنه كان في زمانه اسمه زكريا، وأن رسم المكاتبة إليه: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، بلا ياء وذكر في التثقيف: أنه لم يطلع على مكاتبة إليه سوى ذلك وأنه لم يكتب إليه شيء في مدة مباشرته.
السادس عشر: صاحب أرمناك. ذكر في التعريف: أنها كانت في زمانه بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه وذكر في التثقيف: أن اسمه علاء الدين سليمان قال في التعريف: ورسم المكاتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي بأكمل الألقاب وأكبرها وأجمعها وأكثرها " ، وذكر في التثقيف أن آخر من استقر بها في شوال سنة سبعَ وستين وسبعمائة علاء الدين علي بك بن قرمان، ووافق على رسم المكاتبة المذكورة. وقال: إن العلامة إليه أخوه وتعريفه فلان بن قرمان.
قال في التعريف: ولإخوة صاحبها ابن قرمان المذكور رسوم في المكاتبات، فأكبرها قدراً وأفتكهم ناباً وظفراً، الأمير بهاء الدين موسى. وقد تقدم في الكلام

على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحج مع الركب الشريف، ثم عاد إلى الأبواب السلطانية، وأجلس في المرتين مع أمراء المشورة، وأشرك في الرأي، وسأل السلطان في كتابة منشور بما يفتحه من بلاد الأرمن فكتب له. قال في التعريف: واستقرت المكاتبة إليه مثل مكاتبة أخيه. قال: أما بقية بني قرمان فدونهما في المكاتبة. واعلم أن صاحب التثقيف قد زاد على ذلك من أمراء هذه البلاد ستة نفر.

أحدهم: الحاكم بالعلايا. وذكر أنه كان اسمه حسام الدين محمود بن علاء الدين وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة أخوه والدعاء والعالي، في قطع العادة.

الثاني: صاحب بلاط ورنحر، ذكر أنه كان بها أمير موسى بن إبراهيم بن منتشا وأن المكاتبة إليه في قطع العادة والده والدعاء: والمجلس العالي.

الثالث: صاحب أكردور وهي أكردون. ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بني حميد، وأن رسم المكاتبة إليه على ما استقر عليه الحال عندما كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة والده والسامي بالياء.

الرابع: صاحب أيا سلوق. ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين، وأنه كتب إليه في شوال من السنة المذكورة أيضاً.

الخامس: صاحب يلي شار. ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبته وقال: إن المكاتبة إليه الاسم والسامي بالياء.

السادس: الأمير ذروان بن كرمان بن منتشا، ذكر أنه ممن استجدت مكاتبته في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة. واعلم أنه قد زاد في التثقيف ذكر مكاتبة جماعة لم أتحقق هل هم من أهل هذه البلاد أم من غيرها. منهم صاحب قلعة الحنفاء، ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قويجي وأن المكاتبة إليه في قطع الثلث والسامي بالياء.

ومنهم صاحب قلعة الجوز، في قطع الثلث الاسم والسامي بالياء وتعريفه اسمه.

ومنهم صاحب بكجرى: استجدت الكتابة إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة، وكتب إليه الاسم والسامي بغير ياء.

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب إليه الاسم ومجلس الأمير.

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة كتب إليه الاسم ومجلس الأمير أيضاً.
ومنهم الحاكم بقلعة أشنى: وهي أشنو كتب إليه كذلك.
على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضاً ليسوا من أهل هذه البلاد جملة، منهم نائب خلاط، وصاحب موغان، وهي موقان، والحاكم بإسعرد وهي سعرت، وصاحب قيشان وهي قاشان. وقد تقدم أن خلاط من أرمينية وموقان من أرمينية وإسعرد من ديار ربيعة من الجزيرة الفراتية وقاشان من عراق العجم وبالجملة فقد خلط في التثقيف في البلدان تخليطاً كثيراً وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض. قلت: قد تقدم في صدر الكلام على المكاتبات ذكر أصول يعتمدها الكاتب في كتبه تعم الكتب السلطانية وغيرها وأنا أذكر هنا ما يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل القصد إليها لقربها، ويحصل الغرض من ذلك، بذكر تسعة أمور: أولها: مقادير قطع الورق، قد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملة، والذي يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير: أحدهما: قطع البغدادي الكامل، وقد مر أنه يكتب فيه للقانات.
وثانيها: قطع النصف، وفيه يكتب إلى أكابر الملوك ممن دون القانات.
وثالثها: قطع الثلث، وفيه يكتب إلى الرتبة الثانية بعد الملوك.

ورابعها: قطع العادة، وفيه يكتب إلى أصاغر الملوك والولاة غيرهم.
الثاني: العنوان، قد تقدم في مقدمة الكتاب أن الذي كان يكتب عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره، أما الآن، فإن كاتب كل كتاب صار هو الذي يكتب عنوانه بنفسه.
وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب إليه ونعوته التي في صدر المكاتبة في الباطن، ثم يدعى للمكتوب إليه في آخر الألقاب الدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل: أعز الله أنصاره أو ضاعف الله نعمته وما أشبه ذلك من الأدعية التي تفتتح بها المكاتبات، فإن كان الكتاب مفتتحاً بالحمدلة أو بلفظ من فلان، كتب في العنوان الألقاب التي في صدر

الكتاب بعد ذلك، ثم بعد الدعاء يخلي بياضاً قليلاً، ثم يذكر تعريف المكتوب إليه، مثل صاحب فلانة ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات. وتكون كتابة العنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ. وتكون أسطره متصلة من أول عرض الدرج إلى آخره، وأسطره متلاصقة متتالية.

الثالث: الطرة التي يكتب فيها تعريف المكتوب إليه، والعلامة التي يكتبها المكتوب عنه، والسبب في كتابته.

وقد جرت العادة في ذلك أنه يكتب في رأس الدرج في الجانب الأيمن إلى فلان وفي الجانب الأيسر بسبب كذا وكذا وفي الوسط العلامة التي يعلمها السلطان مثل أخوه أو والده أو اسمه، لينظر عند علامة السلطان على الكتاب فيعلم حال الكتاب، ويجري الأمر في العلامة على هذا الرسم، وتكون كتابتها بقلم الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتاب بمختصر الطومار في قطع البغدادي فيكون بذلك بقلم الثلث. وهذه الطرة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب.

الرابع: البياض في أعلى الكتاب، وقد جرت العادة في الكتب السلطانية أن العلامة إلى المكتوب إليه، وإن كانت أخوه أو والده ترك فيها ثلاثة أوصال بياضاً بما فيه من وصل العنوان، ثم تكتب البسملة في رأس الوصل الرابع، وإن كانت العلامة إليه الاسم، ترك وصلان بياضاً فقط وكتبت البسملة في أول الوصل الثالث، ثم يكتب السطر الأول من الكتاب على سمت البسملة ملاصقاً لها، ثم يخلى موضع العلامة بياضاً، ويكتب السطر الثاني على سمت الأول في أواخر ذلك الوصل على قدر إصبعين من آخره، ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة، إن كان القطع صغيراً وإن كان القطع كبيراً كان فيه قدر ربع ذراع أو نحوه بحسب المناسبة، فإذا انتهى إلى آخر الكتاب كتب إن شاء الله تعالى في الوسط على بعد قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب كتب في التاريخ كذا من شهر كذا من سنة كذا وكذا ويكون في آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخر سطر. ثم يكتب المستند على نحو البعد المذكور: فإن كان بتلقي كاتب السر خاصة كتب حسب المرسوم الشريف فقط. وإن كان بتلقي كاتب السر وكتاب الدست من دار العدل كتب حسب المرسوم الشريف، في السطر وتحته بقدر إصبع من دار

العدل الشريف في السطر. وإن كان برسالة الدوادار كتب حسب المرسوم الشريف في سطر، وتحته بقدر إصبع برسالة الجناب العالي الأميري الفلاني الدوادار الفلاني، بلقب السلطان ضاعف الله تعالى نعمته، وإن كان من ديوان الخاص، كتب حسب المرسوم الشريف في سطر وتحته من ديوان الخاص الشريف، وإن كان بخط السلطان بأن كتب على القصة بالخط الشريف، كتب حسب الخط الشريف في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب بالإشارة العالية الأميرية الكبيرية الفلانية في سطر، وكتب تحته بقدر إصبع كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى.

وإن كان بإشارة أستاد الدار كتب بالإشارة العالية الأميرية الكبيرية الفلانية في سطر، ثم يكتب تحته بقدر إصبع أستاد الدار العالية أعلاها الله تعالى، على أنه قد تقدم في الألقاب أن كتابتهم أستاد الدار هو عرف جرى عليه اصطلاحهم، وأن الصواب فيه إستدار بغير ألف بعد التاء. وتكون كتابة المستند ببياض من جانبيه، سواء كان سطراً واحداً أو سطرين، ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر كامل على بعد قدر إصبعين من المستند، ثم يكتب الحسبلة على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلية.

وقد تقدم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شيثٍ أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنتهي كتابتها.

الخامس: قد ذكر ابن شيثٍ في معالم الكتابة أنه لا يكتب في حواشي الكتب السلطانية، لأن في ذلك شحاً بالورق وذلك مما لا يليق بالسلطان ولا خفاء في استقباح ذلك بل قد يستقبح ذلك في غير السلطان كما سيأتي ذكره في الإخوانيات.

السادس: العلامة السلطانية على المكتوب، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره، قد ذكر في التعريف أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء والمماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف ووالده ومن دون ذلك الاسم الشريف، أما الغرباء كملوك المسلمين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح الأكابر، فترجمته بالخط الشريف أخوه ومن دون ذلك الاسم الشريف.

والذي استقر عليه الحال آخراً في زماننا أن لأكابر الأمراء من النواب وغيرهم أخوه لرفعة مكان الأخ على الولد، ولمن دونهم والده ولمن دون ذلك الاسم وباقي الحال على ما ذكره، وقد سبقت ترجمة كل مكتوب إليه في الكلام على المكاتبة إليه. وأما القانات الكبار فقد تقدم بالكلام على المكاتبة إليهم أنه تكتب لهم طغراة بالألقاب السلطانية فوق البسملة.

السابع: طي الكتب السلطانية، قد تقدم في صدر الكلام على المكاتبات نقلاً عن ابن شيث من كتاب الدولة الأيوبية أن كتب السلطان يكون طيها في عرض أربعة أصابع، وأن مقتضى ذلك أن كتب السلطان بالديار المصرية كانت تطوى على هذه الهيئة كما في كتب أهل المغرب الآن، والذي استقر عليه الحال آخراً أنها يجعل طيها في صورة أنبوب القناة ولا تضغط في طيها لتكون نبيلة تعظيماً لأمر السلطان وإجلالاً لقدره.

الثامن: ختم الكتاب، قد تقدم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تختم بسحاءة، ويطبع عليها بطين أحمر يأتي به من سيراف، وتختم بخاتم كما تختم المغاربة الآن. أما الآن فقد استقر الحال على أن الكتب تلصق بالنشا أو في ما معناه من الكثيراء ونحوها، وقد سأل الشيخ جمال الدين بن نباتة في رسالته التي كتبها إلى الشهاب محمود رحمه الله حين بلغه وقوع بعض كتاب دمشق في حقه عمن غير طين الختم بالنشا، ولم أقف على الزمان تغير ذلك ولا من غيره، على أني حللت معظم أسؤولة هذه الرسالة في خلال هذا الكتاب مفرقة في مواضعها.

التاسع: أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية، إن كانت إلى حد من عظماء الملوك كالقانات ببلاد الشرق، أو ملوك بلاد الغرب ونحوهم ممن يتعانى البلاغة في الكتب الصادرة عنه، كتبت مسجوعة كلها، وإن كانت إلى صغار الملوك والحكام كتبت غير مسجوعة، وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة، فإن كانت في أمر بعد وقوعه، كالكتابة بالبشارة بوفاء النيل، أو جلوس السلطان على التخت لأول مرة، أو برئه من المرض، أو ولادة ولد له، أو البشارة بفتح، أو الإعلام

بركوب الميدان، أو الإنعام بخيل أو نحوها، كتبت مسجوعة، وإلا كتبت مرسلة غير مسجوعة.

الطرف الثاني في المكاتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه الحال إلى ملوك الكفر

المكاتبة إلى ملوك الكفر

واعلم أن ملوك الكفر المكاتبين إلى هذه المملكة جميعهم نصارى: من الروم والفرنج والكرج والحبشة وغيرهم، إذ كانوا هم المستولين على أكثر الممالك. أما اليهود، فإنهم لم يبق لهم مملكة معروفة، بل هم تحت الذمة أين كانوا. قال تعالى: " ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس " . قال في التعريف وجميع الكتب المكتوبة إلى ملوك الكفر لا يشملها الخط الشريف أصلاً، بل يكتب فوق البسملة في الكتاب بخط الكاتب عوض العلامة الشريفة أسطر قصيرة ببياض من الجانبين ما صورته:

من السلطان الأعظم الملك الناصر مثلاً العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المظفر المنصور الشاهنشاه، فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، وارث الملك ملك العرب والعجم والترك، ظل الله في أرضه، القائم بسننه وفرضه، إسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان، واهب الأقاليم والأمصار، مبيد الطغاة والكفار، حامي الحرمين والقبلتين، جامع كلمة الإيمان، ناشر لواء العدل والإحسان، سيد ملوك الزمان، إمام المتقين قسيم أمير المؤمنين، أبي فلان ابن السلطان الشهيد الملك الفلاني الفلان، خلد الله سلطانه ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه.

وأوضح ذلك في التثقيف فقال: ويكون في الطرة بعد وصلين بياضاً من أول الكتاب بهامش جيد من الجانبين يمنة ويسرة ويكونان على قدر بياضهما سواء

تقدير أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض، وفي قطع العادة دون ذلك وتكون الأسطر متقاربة ما بينهما من البياض تقدير إبهام أو أزيد منه بشيء يسير، وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلاً أبيض، ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكاتبة للمكتوب إليه.

الطرف الثالث في المكاتبة إلى من وراء بحر القرم

بالجانب الشمالي منه

وهو صاحب البلغار والسرب. وهي بلاد في نهاية الشمال. متاخمة لصاحب السراي، وقد ذكر في التعريف المكاتبة إليه في المكاتبة إلى جملة ملوك المسلمين. وقال: إن صاحبها يظهر الانقياد لصاحب السراي، وإنه أرسل رسله تطلب له الألوية من الأبواب السلطانية فجهزت إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والخيل المسرجة الملجمة. وذكر أن اسم المكاتبة إليه على ما كتب إذ ذاك: أعز الله نصر الجانب الكريم العالي الملكي الأجلي الكبيري العالمي العادلي المجاهدي المؤيدي المرابطي المثاغري الأوحدي سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش مقدم العساكر جمال الملوك والسلاطين، ذخر أمير المؤمنين.

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد مشتملة على الجهات الأربع:

المقصد الأول في المكاتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق

وجملة من بها من ملوك النصارى المكاتبين عن هذه المملكة مملكتان

الأولى: مملكة الكرج من النصارى الملكية. قال في التعريف: ويقال في المسلمين الكرد، وفي النصارى الكرج، وقال: وموقع هذه البلاد بين بلاد الروم وبين بلاد

أرمينية وهي بلاد جليلة ومملكة مفخمة وكأنها متقطعة بين البلادين، ولها ملك قائم وبها ملك دائم وأمها مدينة تفليس، وسلطان بنت هولاكو بمملكة إيران يحكم عليها، ويرالغه تصل إليها، إلا أنه لا يطغى بها سيله، ولا تجوس خلال ديارها للحرب المضرمة خيله، وإنما له بها تومان اتخذه سداداً لثغرها وقياماً لأمرها منزلهم فسيح بواديها أهل حل وترحال، وتنقل من حال إلى حال، قال: وآخر من كان له في هذه البلاد سمعة وأقيلت به للمهابة صرعة، الشيخ محمود بن جوبان، وكان باسلاً لا يطاق ورجلاً مر المذاق، لما جرت الكائنة لأبيه لاذ بالسلطان أزبك قان ثم لم تطل له مدة، ولا انفرجت له حلق شدة وأتاه أجله وما استطاع رده. ثم قال: وعسكر الكرج صليبية دين الصليب وأهل البأس والنجدة وهم للعساكر الهولاكوهية عتاد وذخر، ولهم بهم وثوق وعليهم اعتماد ولا سيما لأولاد جوبان وبنيه، وبقايا مخلفيه، لسالف إحسان جوبان إليهم، ويد مشكورة كانت له عندهم، وكان صديقاً لملكهم برطلما يغرس عنده الصنائع، ويسترعيه الودائع، فكان أخص خصيص به وأصدق صديق له، يدعوه للمهم ويستصرخ به في الملم، ويعده رداءاً لعسكره ومزيلاً لمنكره. وعقب ذلك بأن قال: وبرطلما المذكور عهدي به حي يرزق من أجل ملوك النصرانية، وأعرق أنساب بني المعمودية، وقد كان كتاب الأبواب السلطانية بسبب كنيسة المصلبة، وأن ترفع عنهم الأيدي المتغلبة، فبرزت الأوامر المطاعة بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم وهي بظاهر القدس الشريف، واتخذت مسجداً، وعز هذا على طوائف العلماء والصلحاء وإن لم يعمل هذا سدى، قيل: إنه كان يحسن لجوبان قصد البلاد، ويبذل له عليه الطارف والتلاد.

وذكر أن اسم المكاتبة إليه: أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية حضرة الملك الجليل الهمام الباسل الضرغام السميدع الكرار الغضنفر المتخت المتوج العالم في ملته، العادل في رعيته، بقية ملوك الأغريقية، سلطان الكرج ذخر ملك البحار والخلج حامي حمى الفرسان وارث آبائه في الأسرة والتيجان سياج بلاد الروم وإيران، سليل اليونان، خلاصة ملوك السريان بقية أبناء التخوت والتيجان، معز النصرانية مؤيد العيسوية مسيح الأبطال المسيحية معظم البيت المقدس بعقد

النية، عماد بني المعمودية ظهير الباب بابا رومية مواد المسلمين خالصة أصدقاء المقربين، صديق الملوك والسلاطين.

وهذا دعاء أورده في التعريف يليق به وهو: وحمى ملكه بوده لا بجنده، وبوفاء بعهده لا بجيشه ومد بنده، وبما عندنا من سجايا الإحسان لا بما يظن أنه من عنده وبما في رأينا الموري لا بما يقدح النار من زنده وربما قيل مصافي المسلمين بدل مواد المسلمين.

أما في التثقيف فقد ذكر أن في للكرج ملكين أحدهما صاحب تفليس المقدم ذكره، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك داود الثاني الحاكم بسخوم وأبخاس وهما مدينتان على جانب بحر القرم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره في الكلام على المسالك والممالك في الجانب الشمالي، وسمي صاحبها إذ ذاك ديادان. قال: ورسم المكاتبة إلى كل منهما في قطع النصف: أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المكرم الخطير الباسل الهمام المقدس الروحاني فلان، عز الأمة المسيحية كنز الطائفة الصليبية فخر دين النصرانية ملك الجبال والكرج والجرجان صديق الملوك والسلاطين. وتعريف كل منها ملك الكرج.

ثم قال: وقد ذكر القاضي المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكاتبة المذكورة من التغيرات ما لا حاجة إلى ذكره، لأن ما ذكرته هو المستقر في المكاتبة إليه إلى آخر وقتٍ.

قلت: وذلك لأنه في زمن المقر الشهابي بن فضل الله مرعي الجانب بممالأة التتر وانضمامه إلى جوبان، كما تقدم الإشارة إليه، فكانت المكاتبة إليه إذ ذاك أعلى وأفخم، فلما زالت دولة التتر من إيران وحمدت قسوتهم انحطت رتبة المكاتبة إلى ملك الكرج عن هذه الرتبة. ثم قد تقدم في المسالك والممالك في الكلام على مدينة تفليس أنها من أقليم أران وأنها كانت قد فتحها المسلمون. ثم غلب عليها الكرج وملوكها فلو عبر عن صاحبها بمتملك تفليس كما كان يعبر عن المستولي على سيس من الأرمن بمتملك سيس، وعن المستولي على قبرس بمتملك قبرس على ما سيأتي ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى.

الثانية: مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة سيس قبل فتحها وقد سبق في الكلام على

مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب في الكلام على الممالك الشامية في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها وأنها كانت تسمى في زمن الخلفاء بلاد الثغور والعواصم وأنها كانت بأيدي المسلمين وأهلها نصارى أرمن وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى الملوك على أن كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة ببلاد الروم، والعمال والشحاني على بلادهم من جهة الملك السلجوقي حتى ضعفت تلك الدولة وسكنت شقاشق تلك الصولة، وانتدب بعضهم لقتال بعض وصارت الكلمة شورى، والرعية فوضى وشوامخ المعاقل مجالاً للتخريب والبلاد المصونة قاصية من الغنم للذيب، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ فيها واستنسر بغاثه، واشتد إنكاثه، ورأى سواماً لا ذائد عنه فساقه، ومتاعاً لا حامية له فملأ منه أوساقه فاستولى على هذه البلاد وتملكها وتحيف مواريث بني سلجوق واستهلكها. زذكر في مسالك الأبصار أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لاون.

قال في التعريف: وقد أخذ في أخريات الأيام الناصرية يعني محمد بن قلاوون بلاد ما وراء نهر جاهان وأمها آياس وكان قد أخذ بعض ذلك أيام الملك المنصور لاجين واستتيب به أستدمر الكرجي ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطأة أستدمر حين قتل لاجين وضعفت الدولة. وذكر أنه قرر على الأرمن لملوك الديار المصرية قطيعة مقررة بلغت ألف ألف ومائتي ألف درهم من أصناف ثم حط لهم منها ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان. وذكر أنه كان لملوك البيت الهولاكوهي عليهم حكم قاهر، وله فيهم أمر نافذ، قبل ضعف شوكتهم ولين قسوتهم وخلو غابهم من قسورتهم، ثم قال: لو تمكنوا من دمشق لمحوا آثارها وأنسوا أخبارها، ثم أشار إلى أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به وأنه مع ذلك أوصى سلطاننا صاحب مصر على إبنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته وجعل ذلك وسيلة لبقاء دولته، وكتب له تقليد عوضاً عن أبيه وجهز إليه وألبس التشريف فلبس وقبل الأرض به وخدم. قال في التعريف: ومن ملك منهم سمي التكفور سمة جرت عليهم منذ كانوا وإلى الآن. قال: وملكهم ملك عريق من أبناء الملوك يزعم أن أصله من البيت القسطنطيني قال: وعندي نظر في دعواهم ذلك،

إذا كان أهل ذلك البيت هم صليبية الروم ومعتقدهم معتقد الملكانية والبيت التكفوري أرمن ومعتقدهم معتقد اليعاقبة أو ما يقاربه وبين المعتقدين بعد عظيم، وبون ناء.

وقد ذكر في التعريف أن اسمه ليفور بن أوشير وذكر أن رسم المكاتبة إليه صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السميدع الضرغام الغضنفر فلان بن فلان فخر الملة المسيحية ذخر الأمة النصرانية عماد بن المعمودية، صديق الملوك والسلاطين.

وهذه أدعية ذكرها في التعريف تناسبه: وفقه الله تعالى لطاعة يكنفه ذمامها، وبقية مصارع السوء التزامها وتجري له بسلامة في النفس والمال أحكامها.

آخر: ولا عدم من مننا الكرم الذي أجاره والأمن الذي أمن جاره والأمان الذي وسع عليه وجاره، والعفو الذي وقاه في الدنيا قبل الآخرة ناراً وقودها الناس والحجارة.

آخر: أبقاه الله لولاء يبديه وفرض من الخدمة يؤديه دينٍ في ذمته من الوظيفة يقوم به مع طرائف ما يهديه.

آخر: أراه الله ما يستدفع به من مواضي السيوف البلاء إذا نزل والسمهري الذي لا يرويه البحر إذا نهل، والسيل الذي لا يقف في طريقه شيء ولا يمشي على مهل.

آخر: صان الله تعالى بمصانعته من أهل ملته كل قبيل وأمن الله بمداراته من خوف جيوشنا المنصورة كل سبيل وصد عنه بصدق صداقته بعث جنودنا الذي لا يرد وأوله بالفرات وآخره بالنيل.

آخر: ولا زال يتوقى بطاعته بوادر الأسنة وعوادي الخيل موشحة بالأعنة وعيث الجيش حيث لا يبقى إلا أحد الأقسام الثلاثة: القتل أو الأسر أو المنة.

آخر: جنب الله رأيه سواء التعكيس، وشر ما يزين لمثله إبليس وأخذ جنائب قلاعه وأول تلك الجنائب سيس.

والذي ذكره في التثقيف أنه كان اسمه كستندين بن هتيوم وأن رسم المكاتبة إليه على ما كان استقر عليه الحال إلى حين الفتوح في سنة ست وسبعين وسبعمائة في قطع العادة: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل المكرم المبجل المعظم

المعزز الهمام الباسل فلان بن فلان، عز دين النصرانية كبير الطائفة الصليبية عماد بن المعمودية صديق الملوك والسلاطين أدام الله نعمته وحرس مهجته تعلمه كذا وكذا، وتعريفه متملك سيس، قال: وكتبت أنا والجماعة إليه بهذه المكاتبة مرات.

قلت: وقد بطلت هذه المكاتبة بفتح سيس حين فتحها قشتمر المنصوري نائب حلب في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين في التاريخ المقدم ذكره واستقرت نيابة في رتبة نيابة طرابلس وما في معناها ثم استقرت تقدمة عسكر في مضافات حلب على ما تقدم ذكره في المسالك والممالك هناك. وإنما كان يقال له متملك سيس، دون ملك سيس، لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فملكها من أيدي المسلمين، ولله الحمد في إعادتها إلى يد المسلمين، واستقرارها في جملة الممالك الإسلامية.

المقصد الثاني في المكاتبة إلى ملوك الكفار ببلاد المغرب من جزيرة الأندلس وما والاها

مما هو شمالي الأندلس من الأرض الكبيرة

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك من المقالة الثانية أن المسلمين كانوا قد افتتحوا جزيرة الأندلس في خليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنها أقامت بأيدي المسلمين إلى رأس الستمائة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين إلا غرناطة وما معها من شرق الأندلس عرض ثلاثة أيام في طول عشرة أيام، وباقي الجزيرة على سعتها بيد أهل الكفر من نصارى الفرنج، وإن المستولي على ذلك منهم أربعة ملوك: الأول: صاحب طليطلة وما معها ولقبه الأذفونش، سمة على كل من ملك منهم، وعامة المغاربة يسمونه الفنش، وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة وإشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية، وسائر أعمالها.

الثاني: صاحب أشبونة وما معها، وتسمى البرتغال ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عرضاً له تشتمل على أشبونة وغرب الأندلس.

الثالث: صاحب برشلونة وأرغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة.

الرابع: صاحب بيرة وهي بين عمالات قشتالة، وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونة، ويقال لملكها ملك البشكنس ووراء هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحب إفرنسة التي هي أصل مملكة الفرنج كما تقدم في الكلام على المسالك والممالك، وملكها يقال له الريد إفرنس. قال في التعريف: وهو الملك الكبير المطاع، وإنما الأذفونش هو صاحب السطوة وذكره أشهر في المغرب لقربه منهم وبعد الريد إفرنس.

والمكاتب منهم ملكان: الأول: الأذفونش المبدأ بذكره. قال في التعريف: وبيده جمهور الأندلس وبسيوفه فنيت جحاجحها الشمس وهو وارث ملك لذريق، ولذريق هذا الذي أشار إليه في التعريف هو الذي انتزعها المسلمون من يده حين الفتح في صدر الإسلام. قال صاحب التعريف: وحدثني رسول الأذفونش بتعريف ترجمان موثوق به من أهل العدالة يسمى صاح الدين الترجمان الناصري، إن الأذفونش من ولد هرقل المفتتح منه الشام وإن الكتاب الشريف النبوي الوارد على هرقل متوارث عندهم مصون، يلف بالديباج والأطلس ويدخر أكثر من ادخار الجواهر والأعلاق وهو إلى الآن عنهم لا يخرج ولا يسمح بإخراجه ينظر فيه بعين الإجلال ويكرمونه غاية الكرامة، بوصية توارثها منهم كابر عن كابر وخلف عن سلف.

قال: وكان الأذفونش ممن قوي طمعه في بلاد مصر والشام في أخرى ليالي الأيام الفاطمية ثم قال: ومكاتباته متواصلة والرسل بيننا وبينه ما تنقطع على سواء مقاصده، وخبث سره وعلانيته أهدى مرة إلى السلطان سيفاً طويلاً وثوباً بندقياً وطارقة طويلة دقيقة، تشبه النعش وفي هذا ما لا يخفى من استفتاح باب الشر والتصريح المعروف بالكناية فكان الجواب أن أرسل إليه حبل أسود وحجر أي أنه كلب إن ربط بالحبل وإلا رمي بالحجر.

قال في التعريف ورسم المكاتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية حضرة الملك

الجليل الهمام الأسد الباسل الضرغام الغضنفر بقية سلف قيصر حامي حماة بني الأصفر الممنع السلوك وارث لذريق وذراري الملوك فارس البر والبحر ملك طليطلة وما يليها بطل النصرانية عماد بن المعمودية حامل راية المسيحية وارث التيجان شبيه مريحنا المعمدان، محب المسلمين صديق الملوك والسلاطين، الأذقنش سرقلان.

دعاء وصدر يليقان به

وكناه شر نفسه وجناه ثمر غرسه ووقاه فعل يوم يجر عليه مثل أمس وأراه مقدار النعمة بالبحر الذي تمنع بسوره وتوقيٍ بترسه. أصدرناها إليه وجند الله لا يمنعهم مانع ولا يضر بهم في الله ما هو جامع ولا يبالون أكتائب يخلفونها أم كتباً، وجداول تعرض لهم أم بحار لا تقطعها إلا وثباً.

آخر: ووقاه بتوفيقه تلاف المهج، وكفاه بأس كل أسدٍ لم يهج وحماه من شر فتنةٍ لا يبل البحر الذي تحصن به ما يعقده غبارها من الرهج. أصدرناها إليه وأسنتنا لا ترد عن النحر، وأعنتنا لا تصد بسورٍ ولا ضرب من وراء البحر. قلت: وينبغي أن تكون في قطع النصف.

الثاني: صاحب برجلونة ووهم في التثقيف فجعله هو الأذفونش المقدم ذكره وقال إنه يلقب أتفونش، دون الحاكم. ثم قال: وهم طائفة الكيتلان ورسم المكاتبة إليه في قطع النصف بقلم الثلث الكبير أدام الله تعالى بهجة الحضرة الموقرة الملك الجليل المكرم المبجل الخطير البطل الباسل الهمام الضرغام الريد أرغون، فلان نصير النصرانية، فخر الأمة العيسوية، ذخر الملة المسيحية حامي الثغور متملك السواحل والبحور عماد المعمودية، ظهير بابا رومية ملاذ الفرسان، جمال التخوت والتيجان صديق الملوك والسلاطين صاحب برجلونة.

قال في التعريف: أما الريد فرنس فلم يرد له إلا رسول واحد أبرق وأرعد وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان، ويكون للإسلام بهماً ولاة مع ولاته، والبلاد مناصفة ومساجد المسلمين قائمة، وإدارات قومتها دارة، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تعجل وتحمل في كل سنة، نظير دخل نصف

البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين، ويطرف في كل سنة بغرائب التحف والهدايا، وحسن هذا الكتاب من كتبة القبط، كانوا صاروا رؤوساً في الدولة بعمائم بيضٍ وسرائر سود، وهم أعداء زرق، يجرعون الموت الأحمر، وعملوا على تمشية هذا المقصد وإن سرى في البدن هذا السم، وتطلب له الدرياق فعز وقالوا: هذا مال جليل معجل ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نقطة في بحر، وحصاة في دهناء.

قال: وبلغ هذا أبي، رحمه الله، فآلى أن يجاهر في هذا، ويجاهد بما أمكنه، ويدافع بمهما قدر عليه، ولولا لاوى السلطان على رأيه إن أصغى إلى أولئك الأفكة، وقال لي: تقوم معي وتتكلم، ولو خضبت منا ثيابنا بالدم، وراسلنا قاضي القضاة القزويني الخطيب، فأجاب وأجاد الاستعداد، فلما بكرنا إلى الخدمة وحضرنا بين يدي السلطان بدار العدل، حضرت الرسل وكان بعض أولئك الكتبة حاضراً، فاستعد لأن يتكلم، وكذلك استعدينا نحن، فما استتم كلامهم حتى غضب السلطان وحمي غضبه، وكاد يتضرم عليهم حطبه، ويتعجل لهم عطبه، وأسكت ذلك المنافق بخزيته، وسكتنا نحن اكتفاء بما بلغه السلطان مما ورده بخيبته، فصد ذلك الشيطان وكفى الله المؤمنين القتال، وردت على راميها النصال، وكان الذي قاله السلطان: والكم أنتم عرفتم ما لقيتم نوبة دمياط من عسكر الملك الصالح، وكانوا جماعة أكراد ملفقة مجمعة، وما كان بعد هؤلاء الترك، وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر، نحن اليوم بحمد الله تعالى صلح نحن وإياكم من جنس واحد ما يتخلى بعضه عن بعض، وما كنا نريد إلا الابتداء، فأما فتحصلوا وتعالوا، وإن لم تجوا فنحن نجيكم ولو إننا نخوض في البحر بالخيل، والكم صارت لكم ألسنة تذكرون بها القدس، والله ما ينال أحد منكم منه ترابة إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم، وردهم أقبح رد، ولم يقرأ لهم كتاباً، ولا رد عليهم سوى هذا جواباً.

قلت: فإن اتفق أن يكتب إلى الريد إفرنس المذكور فتكون المكاتبة إليه مثل المكاتبة إلى الأذفونش أو أجل من ذلك. واعلم أن الريد فرنس هو الذي قصد الديار المصرية بمواطأة الأذفونش، صاحب طليطلة المقدم ذكره، وملكوا دمياط وكانت

الواقعة بينهم في الدول الأيوبية في أيام الصالح أيوب، وأخذ الريد فرنس وأمسك وحبس بالدار التي كان ينزلها فخر الدين بن لقمان، صاحب ديوان الإنشاء بالمنصورة، ورسم عليه الطواشي صبيح، ثم نفس عنه وأطلق لأمر قرر عليه، وقال في ذلك جمال الدين مطروح أبياته المشهورة وهي: " سريع "

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قؤول نصوح

أتيت مصراً تبتغي ملكها ... تحسب أن الزمر يا بطل ريح

وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسين ألفاً لا ترى منهم ... غير قتيل أو أسيرٍ جريح

وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح

آجرك الله على ما جرى ... أفنيت عباد يسوع المسيح

فقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

المقصد الثالث في المكاتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي

والمكاتب بهذا الجانب منهم ملكان:

الأول: صاحب أمحرا ملك ملوك الحبشة، ولقبه عندهم حطي بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين، سمة على كل من ملك عليهم منهم. قد تقدم في المسالك والممالك في المقالة الثانية أن نصراني يعقوبي، يحكم على تسعة وتسعين ملكاً منهم سبعة مسلمون، وهو صاحب وفات، وصاحب دوارو، وصاحب أرابيني وصاحب شرحا وصاحب هدية، وصاحب بالي وصاحب دارة وأنه لولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعمد معمودي إلا باتصال من البطريرك، وأن كرسي البطريرك كنيسة الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده لشمخ بأنفه عن المكاتبة لكنه مضطر إلى ذلك.

قال في التعريف ورسم المكاتبة إليه: أطال الله بقاء الحضرة العالية الملك الجليل الهمام الضرغام الأسد الغضنفر الخطير الباسل السميدع، العالم في ملته، العادل في مملكته، المنصف لرعيته، المستمع لما يجب في أقضيته، عز الملة النصرانية، ناصر الملة المسيحية، ركن الأمة العيسوية، عماد بني المعمودية، حافظ البلاد الجنوبية، متبع الحواريين والأحبار الربانيين والبطاركة القدسين، معظم كنيسة صهيون، أوحد ملوك اليعقوبية، صديق الملوك والسلاطين، ويدعى له دعاء مفخماً يليق به ولا يعلم له.

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في التعريف: وأظهر فضله على من يدانيه من كل ملك هو بالتاج معتصب، ولكف اللجاج بالعدل منتصب، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصر أو للحق مغتصب.

صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية ومن حضرة القدس مسراها، ومن أسرة الملك القديم سراها، وعلى صفاء تلك السريرة الصافية ترد وإن لم يكن بها غليل، وإلى ذلك الصديق الصدوق المسيحي تصل، وإن لم تكن بعثت إلا من تلقاء الخليل. ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه. أما في التثقيف: فإنه ذكر أنه يكتب إليه في القطع الثلث بقلم التوقيعات ما نصه: أطال الله بقاء الملك الجليل المكرم الخطير الأسد الضرغام الهمام الباسل فلان بن فلان، العالم في ملته، العادل في مملكته حطي ملك أمحرا، أكبر ملوك الحبشان، نجاشي عصره سند الملة المسيحية عضد دين النصرانية عماد بني المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، والدعاء وتعريفه صاحب الحبشة.

قال: فإن كانت المكاتبة جواباً، صدر الكتاب إليه بما صورته: ورد كتاب الملك الجليل، ويذكر بقية المكاتبة. ثم قال: وهذه المكاتبة هي التي استقر عليها الحال عندما كتب جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

وهذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سلطنة الملك المظفر صاحب اليمن، على الملك الظاهر بيبرس رحمه الله، بطلب مطران يقيمه لهم البطرك، مما كتب به القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي: ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في ملته حطي ملك أمحرا أكبر ملوك الحبشان،

الحاكم على ما لهم من البلدان نجاشي عصره، صديق الملوك والسلاطين، سلطان الأمحرا حرس الله نفسه وبنى على الخير أسه، فوقفنا عليه وفهمنا ما تضمنه. فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة الملك كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب. وأما ما ذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر في عساكر الإسلام. وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله تعالى، ولا يموت أحد إلا بأجله، ومن يفرغ أجله مات.

واعلم أن العادة جرت أنه كلما كتب إليه كتاب من أبواب السلطانية كتب قرينه كتاب عن البطريرك. قال في التعريف: ولأوامر البطريرك عنده ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب كتاباً فأتى ذلك الكتاب أول مملكته، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم، ولا يزال يحمله بيده حتى يخرجه من أرضه، وأرباب الديانة في تلك الأرض، كالقسوس والشمامسة حول مشاة بالأدخنة فإذا خرجوا من حد أرضهم تلقاهم من يليهم أبداً كذلك في كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى أمحرا، فيخرج صاحبها بنفسه، ويفعل مثل ذلك الفعل الأول، إلا أن المطران هو الذي يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبي الملك. ثم لا يتصرف الملك في أمر ولا نهي، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادي للكتاب، ويجمع له يوم الأحد في الكنيسة، ويقرا الملك واقف، ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمر به.

الثاني: صاحب دنقلة. قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أن دنقلة هي قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت في الأصل يكون ملكها من نصارى النوبة، ومعتقدهم معتقد اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعض المسلمين من العرب فملكها، وقد تقدم ذكر المكاتبة إلى صاحبها إذا كان مسلماً أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في التثقيف أن المكاتبة إليه: هذه المكاتبة إلى النائب الجليل المبجل الموقر الأسد الباسل فلان، مجد الملة المسيحية كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين، والدعاء وتعريفه النائب بدنقلة.

المقصد الرابع في المكاتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الشمالي من الروم والفرنجة على اختلاف أجناسهم،

وجميعهم معتقدهم معتقد الملكانية

وجملة ما ذكر من المكاتبات في التعريف والتثقيف اثنتا عشرة مكاتبة: الأولى: مكاتبة الباب وهو بطريك الملكية، القائم عندهم مقام الخليفة، والعجب من جعله في التثقيف بمنزلة القان عند التتار، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر والباب ليس من هذا القبيل بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحريم. وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطاركة أنهم كانوا يسمون القسيس ونحوه أباً، ويسمون البطريرك أباً، فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمة له تميزه عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ الباب، وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء، ثم لما غلب الروم على المملكة وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصوا اسم الباب ببطريركهم، فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدم من هناك، ورسم المكاتبة إليه على ما ذكر في التثقيف ضاعف الله بهجة الحضرة السامية الباب الجليل القديس الروحاني الخاشع العامل بابا رومية، عظيم الملة المسيحية قدوة الطائفة العيسوية، مملك ملوك النصرانية حافظ الجسور والخلجان، ملاذ البطاركة الأساقفة والقسوس والرهبان تالي الإنجيل، معرف طائفة التحريم والتحليل صديق الملوك والسلاطين، والدعاء، وصدرت هذه المكاتبة.

قال في التثقيف: هذا ما وجدته مسطوراً ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه، ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف جملة، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة، وأن المكاتبة إليه في قطع النصف من المكاتبة المتقدمة.

الثانية: المكاتبة إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية. قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آخراً إلى بني الأشكري فصار الأشكري سمة لهم ملكاً بعد ملك. قال في التعريف: وقد كان قبل غلبة الفرنج ملكاً جليلاً، يرجع إليه

عباد الصليب سائر الملوك، ويفتقر إليه منهم الغني والصعلوك، وكتب التواريخ مشحونة بأخباره، وذكر وقائعه وآثاره، وأول من ألبس هامته الذلة وأصار جمعه على القلة، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهدي إياه، فأزال الشمم من أنفه، وثنى جامح عطفه، فأما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حد النكاية، ولا أعظمت له الشكاية، قال: وهذا الملك الآن كان السلطان أزبك قد كاد يبتز تاجه، ويعقم نتاجه، ويخل من جانب البحر المغلق رتاجه، فاحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال، وصحب أيامه على مضض الاحتمال، وكانت له عليه قطيعة مقررة، وجملة مال مقدرة، ثم عميت علينا بعده منهم الأخبار، وتولى بالدنيا الإدبار.

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في التعريف: ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة العالية المكرمة حضرة الملك الجليل الخطير الهمام الأسد الغضنفر الباسل الضرغام المعرق الأصيل الممجد الأثير الأثيل، البلالاوس، الريدأرغون ضابط الممالك الرومية، جامع البلاد الساحلية وارث القياصرة القدماء، محيي طرق الفلاسفة والحكماء، العالم بأمور دينه، العادل في ممالكه، معز النصرانية مؤيد المسيحية أوحد ملوك العيسوية، مخول التخوت والتيجان حامي البحار والخلجان، آخر ملوك اليونان ملك ملوك السريان عماد بني المعمودية، رضي الباب بابا رومية، ثقة الأصدقاء صديق المسلمين، أسوة الملوك والسلاطين، ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له، ولم يذكر قطع الورق الذي يكتب إليه فيه.

وهذا دعاء وصدر يلقيان به أوردهما في التعريف: وجعل له من السلامة يداً لا تزعزعه من أوطانه، ولا تنزعه من سلطانه، ولا يتوجب له إلا استقراراً لتيجانه، واستمراراً بملكه على ما دارت على حصونه مناطق خلجانه، ولا برحت ثمار الود تدنو من أفنائه، ومواثيق العهد تبوئ له ما يسر به من إشادة معالم سلفه وشد بناء يونانه أصدرناها وشكره كجاره البحر لا يوقف له على آخر، ولا يوصف مثل عقده الفاخر، ولا يكاثر إلا قيل: أين هذا القيل من هذا الزاجر؟ آخر له: ونظم سلكه وحمى بحسن تأتيه ملكه، وكفى محبه هلكه، وأجرى بوده ركائبه

وفلكه، ووقاه كذب الكاذب وكف إفكه، وأشهد على وده الليل والنهار وما جن كافور هذا كافوره ولا مسك هذا مسكه.

قلت: هذا الدعاء والصدر وإن أورده في التعريف في جملة الأدعية له والصدور، فإنه منحط الرتبة عن المكاتبة السابقة، اللهم إلا أن يخص هذا بحالة منابذة أو تهديد، ونحو ذلك.

وذكر في التثقيف أن الذي استقر عليه الحال في المكاتبة إليه أنه يكتب إليه في قطع النصف ما نصه: ضاعف الله تعالى بهجة حضرة الملك الجليل المكرم المبجل الأسد الخطير البطل الباسل الهمام الضرغام فلان، العالم في ملته العادل في أهل مملكته، عز الأمة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية جمال بني المعمودية، صمصام الملوك اليونانية، حسام المملكة الماكصوينة، مالك اليرغلية والأملاحية، صاحب أمصار الروس والعلان، معز اعتقاد الكرج والسريان، وارث الأسرة والتيجان، الحاكم على الثغور والبحار والخلجان، الضوقس الأنجالوس الكمنيفوس البالالوغس صديق الملوك والسلاطين، ثم الدعاء. صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته تشكر موالاته، ومن هذه المادة وتوضح لعلمه السعيد.

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختمها بقوله: فيحيط بذلك علماً، والله تعالى يديم بهجته.

قال في التثقيف: وتعريفه ضابط مملكة الروم، وذكر أن المكاتبة هي المتداولة بديوان الإنشاء بين كتابه، وأنه هو كتب بها إليه، ولم يتعرض لإيراد المكاتبة التي ذكرها في التعريف، بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه.

الثالثة: المكاتبة إلى حكام جنوة، وهم جماعة متفاوتو المراتب، وهم: البودشطا والكبطان والمشايخ، ورسم المكاتبة إليهم على ما ذكر في التثقيف في قطع الثلث. صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين، المكرمين الموقرين، المبجلين الخطيرين فلان وفلان، والمشايخ الأكابر المحترمين، أصحاب الرأي والمشورة الكمنون بجنوة، أمجاد الأمة المسيحية، أكابر دين النصرانية، أصدقاء الملوك والسلاطين، ألهمهم الله تعالى رشدهم، وقرن بالخير قصدهم وجعل النصيحة عندهم، تتضمن إعلامهم كذا وكذا. وتعريفهم الحكام بجنوة.

قال في التثقيف: والذي استقر عليه الحال آخراً في مفتتح سنة سبع وستين وسبعمائة إبطال المكاتبة إلى البودشطا والكبطان، بحكم أنهما أبطلا، واستقرت مكاتبة الدوج مكانهما بما نصه: صدرت هذه المكاتبة إلى الدوج الجليل المكرم المبجل الموقر الخطير فلان والمشايخ، والباقي على ما تقدم ذكره.

قلت: هكذا في التثقيف بدال وواو وجيم، والمعروف إبدال الجيم في آخره كافاً على ما سيأتي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر.

واعلم أنه قد ذكر في التثقيف أنه كان لصاحب جنوة مقدم على الشواني بقبرس، وقيل إنه كان بالماغوصة وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قطع العادة ما نصه: وردت مكاتبة المحتشم، الجليل المبجل الموقر الأسد الباسل فلان، مجد الملة المسيحية كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين، ثم الدعاء. تعريفه مقدم الشواني الجنوية بقبرس.

الرابعة: المكاتبة إلى صاحب البندقية. قال في التثقيف: ورسم المكاتبة إليه على ما أستقر عليه الحال عندما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين وسبعمائة وهو يومئذ مركريادو في قطع الثلث : وردت مكاتبة حضرة الدوج الجليل المكرم الخطير الباسل الموقر المفخم مركريادو فخر الملة المسيحية جمال الطائفة الصليبية دوج البندقية والمانسية دوج كرال دين بني المعمودية صديق الملوك والسلاطين والدعاء وتعريفه صاحب البندقية ثم ذكر بعد ذلك نقلاً عن خط القاضي ناصر الدين بن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دوك البنادقة: وردت مطالعة الدوك الجليل، المكرم المبجل الموقر البطل الهمام الضرغام الغضنفر الخطير مجد الملة النصرانية فخر الأمة العيسوية عماد بني المعمودية معز باب رومية، صديق الملوك والسلاطين، دوك البنادقة وديارقة والروسا والإصطنبولية. ثم قال ولم يذكر تعريفه ولا قطع الورق الذي يكتب إليه فيه ثم نقل عنه أيضاً إلى المكاتبة إلى دوك البندقية: هذه المكاتبة إلى حضرة المحتشم الجليل المبجل الموقر المكرم المفخم الباسل الضرغام فلان، عز الأمة المسيحية جمال الطائفة العيسوية، ذخر الملة الصليبية صديق الملوك والسلاطين. ثم قال: هكذا رأيته من غير ذكر

تعريفه ولا القطع الذي يكتب إليه فيه. قال: وما يبعد أنه غير الأول ولم يزد على ذلك.

قلت: ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدوك غير الملك نفسه. على أن المكاتبة الأولى والثانية في الجواب متقاربان. أما المكاتبة الثالثة فمنحطة عن الأولتين. على انه قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البندقية نقلاً عن ابن سعيد أن ملك البنادقة يقال له الدوك بضم الدال المهملة وواو وكاف في الآخر، وهذا مما يحتاج إلى تحرير، فإن كان الدوك هو الملك فتكون المكاتبة إليه اختلفت باختلاف الحال، أو باختلاف غرض الكتاب، أو عدم اطلاعهم على حقيقة الأقدار والوقوف مع ما يلقى إليهم من المزاحمة في كل وقت، وهو الظاهر.

الخامسة: المكاتبة إلى صاحب سنوب من سواحل بلاد الروم، قبل أن تفتح ويستولي عليها التركمان. قال في التعريف: وهي على ضفة الخليج القسطنطيني وملكها رومي من بيت الملك القديم من أقرباء صاحب القسطنطينية. قال: ويقال أن أباه أعرق من آبائه في السلطان. قال: ولكن ليس ملكه بكبير ولا عدده بكثير بينه وبين أمراء الأتراك حروب يكون في أكثرها المغلوب. وذكر أن رسم المكاتبة مثل متملك سيس فتكون على ما ذكره في مكاتبة متملك سيس: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السميدع الضرغام الغضنفر فلان، فخر الملة المسيحية، ذخر الأمة النصرانية، عماد بن المعمودية صديق الملوك والسلاطين وهذا الدعاء يليق به ذكره في التعريف: وكفاه شر ما ينوب، وروح خاطره في الشمال بريا ما يهب من الجنوب ووقاه سواء فعل يورث الندم وأول ما يقرع السن سنوب.

السادسة: المكاتبة إلى صاحب البلغار والسرب. قد تقدم في الكلام على المكاتبات إلى ملوك الإسلام بالجانب الشمالي نقلاً عن التعريف ما يقتضي أن ملكها مسلم وذكرت مكاتبته الإسلامية هناك وعلى ذلك اقتصر في التعريف وتقدم النقل عن مسالك الأبصار، أنها صارت إلى ملوك النصرانية وعليه اقتصر في التثقيف وهو المراد هنا. ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في التثقيف نقلاً عن ابن النشائي في قطع الثلث ما نصه: أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المكرم المبجل

الهمام الضرغام الباسل الدوقس الأنجالوس الكمنينوس فلان، عماد النصرانية مالك السرب والبلغار، فخر الأمة العيسوية، ذخر الملة المسيحية فارس البحور حامي الحصون والثغور والدعاء أصدرنا هذه المكاتبة وتعريفه صاحب البلغار.
واعلم أنه في التثقيف بعد أن أورد المكاتبة المتقدمة لصاحب السرب والبلغار، نقلاً عن ابن النشائي، ذكر نقلاً عنه أيضاً أن المكاتبة إلى صاحب السرب في قطع الثلث نظير متملك سيس، فتكون المكاتبة إليه على ما تقدم أنه الذي استقر عليه الحال في المكاتبة لمتملك سيس: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل المكرم المبجل المعزز الهمام الباسل فلان، عز دين النصرانية، كبير الطائفة الصليبية، عماد بني المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمته وحرس مهجته تعلمه كذا وكذا، وتعريفه صاحب السرب.

ثم قال: ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارة فيكون بهما اثنان تارة وواحد تارة أم لا ثم قال: على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكاتبة صاحب بلغار وحده منفرداً كما ذكر مكاتبة صاحب السرب وحده منفرداً.
قلت كلا الأمرين محتمل فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحدٍ وأنه كتب تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناء به عن الآخر أو أنه كتب إلى صاحب السرب بمفرده ولم يحط رتبته في قطع الورق عن رتبة من اجتمعا له، ولا يلزم من ذلك أنه كان يكتب لصاحب البلغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيء حينئذ وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل.
السابعة: المكاتبة إلى ملك رودس. قال في التعريف: وهي جزيرة تقابل شطوط البلاد الرومية قال: وأهلها في البحر حرامية إذا ظفروا بالمسلم أخذوا ماله وأحيوه وباعوه أو استخدموه وإذا ظفروا بالفرنجي أخذوا ماله وقتلوه.
ورسم المكاتبة إليه مثل متملك سيس إلا أنه لا يقال فيه معز بابا رومية وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة إليه: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل البطل الباسل السميدع فلان، فخر الملة المسيحية ذخر الأمة النصرانية صديق الملوك والسلاطين أو نحو ذلك. على أنه في التعريف لم

يذكر في المكاتبة إلى متملك سيس معز بابا رومية فلم يكن ليحتاج أن يقول: إلا أنه لا يقال فيه معز بابا رومية. وهذا دعاء يليق به ذكره في التعريف وهو: قدم الله له الأعذار وكفاه قوامع الإنذار وحذره عاقبة البغي قبل أن ينفع الحذار.

آخر: فك الله من وثاقه كل مأسور وأقال كل غراب له من الرجوع وجناحه مكسور وعصمه بالتوبة مما اقترف لا بالبحر ولو أنه سبعة أبحر وسور مدينته ولو أنه مائة سور.

الثامنة: المكاتبة إلى صاحب جزيرة المصطكلى قال في التعريف: وهي جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية وصاحبها صغير لا في مال ولا في رجال وجزيرته ذات قحط لا يطر صاحبها بزرع ولا يدر حالبها بضرع إلا أنها تنبت هذه الشجرة فتحمل منها وتجلب وترسى السفن عليها بسببها وتطلب. قال: وفي ملكها خدمة لرسلنا إذا ركبوا ثبج البحر وتجهيز لهم إلى حيث أرادوا وتنجيز لهم إذا توجهوا وإذا عادوا. ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في التعريف كالمكاتبة إلى صاحب جزيرة رودس المتقدمة الذكر آنفاً وهي: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم. وهذه أدعية تليق به ذكرها في التعريف دعاء من ذلك: وفقه الله لطاعته، وأنهضه من الولاء بقدر طاقته.

آخر: أطاب الله قلبه وأدام إلينا قربه.

آخر: لا زال إلى الطاعة يبادر وعلى الخدمة أنهض قادر، ومكانه تزم إليه ركائب السفن بكل وارد وصادر.

التاسعة: المكاتبة إلى متملك قبرس. و " إنما قيل له متملك قبرس لأنها كانت قد فتحها المسلمون، ثم تغلب عليها النصارى وملكوها، فقيل لمن غلب عليها متملك ولم يقل له ملك، وذكر في التثقيف عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن المكاتبة إليه مثل متملك سيس ولم يزد على ذلك، وحينئذ فتكون المكاتبة إليه مثل ما استقر عليه الحال في المكاتبة إلى متملك سيس في قطع العادة: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل المكرم المبجل المعزز الهمام الباسل فلان، عز دين النصرانية، كبير الطائفة الصليبية، عماد بني المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمته وحرس مهجته وتعريفه متملك قبرس.

قال صاحب التثقيف: ولم أقف على المكاتبة إليه ابتداء ولا جواباً سوى ذلك، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاي اليوسفي عند وقوع الصلح في سنة اثنتين وستين وسبعمائة، يعني عندما كان الجاي أتابك العساكر المنصورة.

العاشرة: المكاتبة إلى ملك مونفراد. ذكر في التثقيف أنه كان بها ابن ملك إصطنبول، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة: أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل المكرم البطل الهمام الأسد الضرغام فلان، مجد النصرانية، فخر العيسوية عماد بني المعمودية، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية، ملك مونفراد وارث التاج معز الباب أدام الله بقاءه وحفظه ووقاه وأورثه من أبيه تخته وتاجه وولاه، تتضمن إعلامه كذا وكذا.

ثم قال: هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكاتبة المذكورة ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي. ولم أدر ما تعرفه، ولا في أي قطع يكتب إليه، قال: والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة، وأن يكون تعريفه ملك مونفراد.

الحادية عشرة: المكاتبة إلى صاحب نابل. وقد ذكر في التثقيف أنه كان اسم صاحبتها جوانا، وأنه كتب إليها في أواخر سنة ثلاثة وسبعين وسبعمائة ما صورته: صدرت هذه المكاتبة إلى الملكة الجليلة المكرمة المبجلة الموقرة المفخمة المعززة فلانة، العالمة في ملتها، العادلة في مملكتها، كبيرة دين النصرانية، بصيرة الأمة العيسوية حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين. ثم الدعاء تتضمن إعلامها وتعريفها صاحبة نابل ولم يذكر قطع الورق لمكاتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها.

قلت: فإن ولي مملكتها رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكاتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء. وهؤلاء جملة من تعرض إلى مكاتبته في التعريف والتثقيف من ملوك الكفر، فإن اتفقت المكاتبة إلى أحد سواهم فليقس على من هو مثله منهم. ثم قد ذكر في التثقيف القنصل بكفا، وذكر أنها جارية في حكم جنوة، وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكاتب عن أبواب السلطانية.

الفصل الخامس من الباب الثاني من المقالة الرابعة في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ممن جرت العادة بمكاتبته إليها من أهل المملكة وغيرها

من سائر الممالك المكاتبة عن هذه المملكة وهي نوعان

النوع الأول المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين وهي على قسمين

القسم الأول في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار المصرية والبلاد الشامية ممن

يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية من النواب وغيرهم من الأمراء وأرباب الأقلام من الوزراء والعلماء ومن في معناهم وهم على ضربين

الضرب الأول

في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة

بالديار المصرية، والبلاد الشامية من النواب ومن في معناهم

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة، أن يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي، وإن كان بالبلاد الشامية، فمن الورق الشامي وجميع ذلك في الورق الأبيض إلا نائب الشام ونائب الكرك، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب السلطانية في الورق الأحمر الشامي، شيء اختصا به دون سائر أهل المملكة.

ثم قد ذكر في عرف التعريف أن الملوك لا يكتب إليهم إلا يقبل الأرض وينهي. ويختم الكتاب بما صورته: طالع المملوك بذلك وللآراء العالية مزيد العلو

أو أنها الملوك ذلك وللآراء العالية مزيد العلو، والعنوان الملكي الفلاني، مطالعة المملوك فلان، وحينئذ فالذي جرت به العادة في ذلك أن يبتدئ الكاتب فيكتب فهرست الكتاب في رأس الدرج من جهة وجهه، في عرض إصبع في الجانب الأيمن إلى الأبواب الشريفة وفي الجانب الأيسر بسبب كذا وكذا ثم يقلب الدرج ويكتب في ظاهره، بعد ترك ما كتب الفهرست في باطنه، العنوان فيكتب: الملكي الفلاني في أول العنوان ومطالعة المملوك فلان، في آخره ثم بعد ذلك يقلب الدرج ويترك وصلاً أبيض ويكتب البسملة في رأس الوصل الثاني بعد خلو هامش من الجانب الأيمن ثم يكتب تحت البسملة ملاصقاً لها ما صورته الملكي فلاني، بحيث يكون آخر الملكي الفلان، مسامتاً لجلالة البسملة، بلقب السلطان، كأنه ينسب نفسه إلى سلطانه ثم يكتب صورة المكاتبة على سمة البسملة في سطر ملاصق للملكي الفلاني يقبل الأرض وينهي كذا وكذا فإن كان ابتداء كتب وينهي أن الأمر كذا وكذا ويأتي بمقاصد المكاتبة، فإن كانت فصلاً واحداً ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه، وإن كان الكتاب مشتملاً على فصول أتى بالفصل الأول إلى آخره، ثم يخلي بياضاً قدر خمسة أسطر ثم يسرد الفصول بعد ذلك فصلاً فصلاً، يخلي بين كل فصلين قدر خمسة أسطر أيضاً، ويقول في أول كل فصل المملوك ينهي كذا وكذا وإذا أتى على ذكر السلطان قال: خلد الله سلطانه، أوخلد الله ظله، أو أتى على ذكر المرسوم الشريف قال: شرف الله وعظمه ونحو ذلك إذا سأل في مرة قال: والمعلوم يعرض على الآراء الشريفة كذا وكذا، أو أن اقتضت الآراء الشريفة كذا وكذا فلها مزيد العلو ولا يقال: يسأل الصدقات الشريفة إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب ولا يلقب أحداً بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيراً في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام أو نائب حلب، أو أمير كبير، قال: أن مملوك مولانا السلطان خلد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الشامية المحروسة أو كافل المملكة الشامية المحروسة أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو أمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً، أو القاضي فلان الدين، أو ناصر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجري هذا المجرى ولا يدعى

في المطالعة لأحد. وإذا انتهت الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهز المملوك بمطالعته هذه مملوكه فلاناً السيفي مثلاً الماثل بها. وإن كان ثم مشافهة قال: وقد حمله مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو ينهيها إلى مسامع الشريفة إذا رسم له بإنهائها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة النواب بالبلاد الشامية أن يقدموا في صدر المكاتبة ما اشتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواخر هذه المملكة، من تجدد أمر أو حركة عدو أو حكاية حال مهمة من أحوال تلك البلاد مثل أن يقال في أول المكاتبة: وينهي أن قصاده عادوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا ويشرح الحال التي أخبرها قصاده.

وإن كان الخبر نقلاً عن نائب من نواب الأطراف كالرها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة ووردت بكذا وكذا ويذكر ما تضمنته ملخصاً، وإن كانت المطالعة جواب مثال شريف ورد فقط، قال: وينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمن ما اقتضته المراسيم الشريفة أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها من كذا وكذا ويذكر نص المثال الشريف حرفاً حرفاً، ثم يقال: وتفهم المملوك ما رسم له به، وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بتكرار تقبيل الأرض والامتثال، وتقدم بكذا إن كان الأمر مما نفذ أو والذي ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقف.

ثم إن كان النائب عظيم القدر كنائب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك، حتى ينتهي في أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض. وإن كانت المطالعة في أمر مهم كاستقرار نائب أو بشارة بفتح أو نحو ذلك أتى بجميع الكتاب مسجعاً وإلا فلا. وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداء.

يقبل الأرض وينهي أنه ورد على المملوك مكاتبة نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، يذكر فيها أن قصاده عادوا من جهة بلاد الشرق وأخبروا أن العدو

المخذول فلاناً قد خرج عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكر راجعاً إليه بعد أن كان قاصداً هذه الجهة وأحب المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك.

المملوك ينهي أن مطالعة نائب الرحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلاناً التركماني قد عاد إلى الطاعة الشريفة ولاذ بمراحم الأبواب العالية، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا الخوف من السطوات الشريفة، وأنه يسأل كتابة أمانٍ شريف له ولجماعته ولمن يليه بأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وسائر ذات يدهم، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية وتمثل بالمواقف الشريفة، وامتثل ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته والمملوك ينظر ما يرد به الجواب الشريف في أمره لكاتب نائب الرحبة المحروسة بما يعتمده في أمره.

المملوك ينهي أنه قد بلغ المملوك أن البحر مشغول بمراكب الفرنج ولم يعلم إلى أي مكان يقصدون، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المركزين وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ وقد عرض المملوك ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة، ويكاتب النواب بالبلاد المجاورة للبحر.

المملوك ينهي أن الأمير فلاناً الفلاني، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة قد توفي إلى رحمة الله تعالى والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار إمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره، ولد المملوك فلان، إعانة له على الخدمة الشريفة وجبراً لخاطر المملوك، فإن حسن ذلك بالآراء الشريفة وإلا فللرأي العالي مزيد العلو.

المملوك ينهي أن الأمير فلان الدين فلاناً، أمير حاجب الشام المحروس، كان قد برزت المراسيم الشريفة باستقراره في نيابة صفد المحروسة، وقد توجه إلى محل نيابته، والمملوك يعرض على الآراء الشريفة إن حسن بالرأي الشريف أن يستقر في الوظيفة المذكورة الأمير فلان الدين فلان، أحد الأمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة، فإنه كفء لذلك، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة.

المملوك ينهي أن فلاناً: أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة، قد درج بالوفاة، وقد كتب المملوك مربعة باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه،

وجهزها على الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية، فإن حسن بالرأي الشريف إمضاؤها وإلا فيستقر على إقطاعه من تبرز المراسيم الشريفة باستقراره، وقد جهز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان على الأبواب الشريفة. طالع بذلك إن شاء الله تعالى. ثم يكمل.

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضاً، في جواب مكاتبة شريفة وردت عليه وهي:

يقبل الأرض وينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي، بالأبواب الشريفة، يتضمن أن المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والمواني، وإقامة الأيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديدبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة وتعهد أحوالها وتفقدها، وتقويم أحوالها بحيث يقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها ولا يقع على أحد درك بسببها وإن المملوك يتقدم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه، فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه وتفهم ما رسم له به وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بالامتثال وتقدم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك، وأخذ في حفظ السواحل والمواني وإقامة الأيزك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظبتها وإلزام المنورين بالديدانات والمناظر فقامت الأحوال على أحسن العوائد، وجرت على أكمل القواعد ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصدده من ذلك، وقد أعاد المملوك فلان الدين فلاناً البريدي المذكور بهذه المطالعة ليحصل على الوقوف عليها. طالع بذلك.

وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب، يقبل الأرض وينهي أنه قد حضر رسول من القان فلان بالمملكة الفلانية وقصده التوجه إلى الأبواب الشريفة والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة جهزه المملوك إليه على العادة.

المملوك ينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسفر من الأبواب الشريفة يتضمن طلب فلان الفلاني وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالامتثال وتقم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسفر المذكور، وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكي الظاهري مثلاً يقبل الأرض وينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه، ورد على المملوك، على يد فلان الدين فلان البريدي، ويكمل عليه على آخره.

الضرب الثاني من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة

المطالعات الواردة من الولاة

ومن في معناهم

القسم الثاني في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن أهل الممالك الإسلامية

المكاتبة عن هذه المملكة

الكتب الواردة عن اهل الممالك الاسلامية

وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رفعة القدر. وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة، ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه، ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة وعظيم النفع وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بمحك المعرفة.

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق في الأيام الظاهرية

الشهيدية برقوق سقى الله تعالى عهده وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أزبك، ورفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة، فخرجوا وتلقوه بالتعظيم، على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره، وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره فلما عرض كتابه نظر فيه المقر البدري بن فضل الله، تغمده الله تعالى برحمته وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف، فوجده غير جار على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة، فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته، فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان، فأنكر عليه ذلك، وحط رتبته عن السلطان وأهل دولته عما كان عليه، وعلا بذلك مقدار المقر البدري بن فضل الله المشار إليه عند السلطان، وشكر له ما كان من ذلك.
ويشتمل على أربعة مقاصد:

المقصد الأول في الكتب الواردة عن أهل الشرق وفيه أطراف

الطرف الأول الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جنكزخان

ولها حالان

الحالة الأولى: ما كان الأمر عليه قبل دخولهم في دين الإسلام. وكان الأمر يجري في كتابتهم مجرى المخاشنة، والتصريح بالعداوة، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها.
وهذه نسخة كتاب كتب به هولاكو بن طوجي بن جنكزخان، المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين، كتب به إلى الملك المظفر قطز في سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهو: من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم: باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.

يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أننا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من أحل عليه غضبه، فسلموا إلينا أموركم تسلموا، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، وقد عرفتم أننا خربنا البلاد، وقتلنا العباد، فلكم منا الهرب، ولنا خلفكم الطلب، فما لكم من سيوفنا خلاص، خيولنا سوابق وسيوفنا قواطع وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، من طلب حربنا ندم ومن قصد أمننا سلم، فإن أنتم لشرطنا وأوامرنا أطعتم فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، فقد أعذر من أنذر. وقد ثبت عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم الفجرة، فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها، وترميكم بشرارها، فلا يبقى لكم جاه ولا عز، ولا يعصمكم منا جبل ولا حرز، فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم، وعلى من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

الحالة الثانية: ما كان الأمر عليه بعد دخولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة بين الدولتين. وكان عادتهم في المكاتبة في أن يكتب بعد البسملة بقوة الله تعالى قم يكتب بعد ذلك بإقبال قان فرمان فلان، يعني كلام فلان. ولهم في ذلك طريقتان:

إحداهما: أن يكتب بسم الله سطراً، ويكتب الرحمن الرحيم سطراً تحتها، ويكتب بقوة الله سطراً وتعالى سطراً آخر تحته، ثم يكتب تحت ذلك في الوسط بهامش من الجانبين بإقبال قان سطراً، وتحته فرمان فلان باسم السلطان المكتوب عنه سطراً آخر.

الطريقة الثانية: أن تكتب البسملة جميعها سطراً واحداً، ثم يكتب تحت وسط البسملة بقوة الله تعالى سطراً وميامين الملة المحمدية سطراً آخر، ثم يكتب تحت ذلك سطراً آخر بزيادة يسيرة من الجانبين فرمان السلطان فلان، يعني كلام السلطان فلان.

ولم أقف على قطع الورق الذي كتب فيه حينئذ، والظاهر أنه في البغدادي الكامل تعظيماً لشأن المكتوب عنه عندهم. وبالجملة فإن الظاهر أن الكتب الواردة عنهم على نمط الكتب الواردة من المملكة إليهم، جرياً على قاعدة كتاب هذه المملكة من

أن الغالب مضاهاتهم لأكابر الملوك في كتبهم في الهيئة والترتيب شرقاً وغرباً.
وهذه نسخة كتاب على الطريقة الأولى، ورد عن السلطان أحمد صاحب مملة إيران، من بني هولاكو المقدم ذكره، وهو أول من أسلم منهم، كتب به إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية، تغمده الله تعالى برضوانه، ورد مؤرخاً بأوسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة، ورأيت في بعض الدساتير أنه من إنشاء الفخر بن عيسى الموصلي، وورد بخطه وهو:

بسم الله، بقوة الله الرحمن الرحيم تعالى، بإقبال قان فرمان أحمد إلى سلطان مصر، أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا، وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، بصدق نبوته، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل، وأخينا الكبير، نوبة الملك، فأفضى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه، وجلى هذه المملكة علينا، وأهدى عقيلتها إلينا، فاجتمع عندنا في قوريليان المبارك، وهو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في أنفاذ الجم الغفير، من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعباً من عظم صولتها، وشديد بطشتها، إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صم الأطواد وعزمة تلين لها الصم الصلاد، ففكرنا فيما تمخضت زبد زعائمهم عنه، واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا به إلا ما يوجب حق الدماء، وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار، رخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار، في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيماً لأمر الله، وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله

تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إليه، من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النضال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة، وقوى عزمنا على ما رأينا من دواعي الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح، إذا كان الشيخ قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين، فأرسلناه رحمة من الله لمن لبى دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه، وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين، الأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا، ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين، جميل نيتنا، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة وأن الإسلام يجب على ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله، ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان، أن لا يحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شان، فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره، وعن أثره، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره، في إيراه كل أمر أصدره، تقديماً لناموس الشرع المحمدي، على مقتضى قانون العدل الأحمدي، إجلالاً وتعظيماً.

وأدخلنا السرور إلى قلب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف، وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها، وأن لا يغير أحد شيئاً مما قرر أولاً، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتسيير قوافلها وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحرمنا على العساكر والقراغولات والشحاني في الأطراف التعرض لهم في

مصادرهم ومواردهم، وقد كان قراغول صادف جاسوساً في زي الفقراء كان سبيله أن يهلك، فلم نهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى وأعدناه إليه. ولا يخفى عنهم ما كان في إنقاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم من قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا، وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار، فإذا امتنعوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية، وعن شوائب التكلف والتصنع عرية. وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة للمخالفة، فإنها إن كانت طريقاً للذب والذود عن حوزة الإسلام فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين، وإن كانت لما سبق من الأسباب، فمن يتحرى الآن طريق الصواب، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب.

وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفضل الخطاب وعرفناهم طريقتنا وما عزمنا بنيةٍ خالصةٍ لله تعالى على استئنافها وحرمنا على جميع العساكر العمل بخلافها، لنرضي الله والرسول، ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول، وتستريح من اختلاف كلمة هذه الأمة، وتنجلي بنور الائتلاف، ظلمة الاختلاف والغمة ويشكر سابغ ظلمها البوادي والحواضر، وتقر القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر ويعفى عن سالف الجرائر، فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحل العامة أرض الهوينى وروض الهدون، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون.

وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة، منع معرفة هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا، " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " والله تعالى الموفق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية، كتب بها السلطان محمود غازان صاحب إيران أيضاً، إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية وما

معها من البلاد الشامية، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم السلطان الملك الناصر، أنه في العام الماضي، بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهليها، وأقدموا على أمور بديعة، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة فأنفنا من تهجمهم، وغرنا من تقحمهم، وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبتنا إلى دخول بلادهم، ومقابلتهم على فسادهم فركبنا بمن كان لدينا من العساكر وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر، قبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن سيد المرسلين، واقتفينا آثار المتقدمين، واقتدينا بقول الله: " لئلا يكون للناس حجة على الله حجة بعد الرسل " وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجي جماعة من القضاة، والأئمة الثقات، وقلنا: " هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله من كاشفة " فقابلتم ذلك بالإضرار، وحكمتم عليه وعلى المسلمين بالإضرار، وخالفتم سنن الملوك، في حسن السلوك، وصبرنا على تماديكم في غيكم، وخلودكم إلى بغيكم، إلى أن نصرنا الله وأراكم في أنفسكم قضاه، " أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله " وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال، وآل بهم الأمر إلى ما آل، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، ووجه إلينا وجه عذرهم فإنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية، رسلاً لإصلاح تلك القضية فبقينا بدمشق غير متحثحين، وتثبطنا تثبط المتمكنين، فصدهم عن السعي في صلاح حالهم التواني، وعلقوا نفوسهم عن اليقين بالأماني، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، إنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم وقلنا لعل وعساهم، فما لمع لهم بارق ولا ذر شارق فقدمنا إلى أطراف حلب وعجبنا من تبطيهم غاية العجب وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة وجموعنا العظيمة القاهرة ربما

أخرب البلاد مرورها وبإقامتهم فيها فسدت أمورها وعم الضرر العباد والخراب البلاد، فعدنا بقياً عليها، ونظرة لطف من الله إليها. وها نحن الآن مهتمون بجميع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار وعازمون بعد الإنذار، " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجا والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى بن يوسف، وقد حملناهما كلاماً شافهناهما به، فلتثقوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما في الديوان كما قال الله تعالى: " فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين " فلتعدوا لنا الهدايا والتحف، كما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلوبة بتدبيرهم، ومطلوبة عند الله في طول تقصيرهم.
فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ولاه الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم، احتجب دون حاجته وخلته وفقره " . وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذر، والسلام على من اتبع الهدى في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه وعترته الطاهرين.
قلت: وقد تقدم جواب هذين الكتابين في الكلام على المكاتبات على القانات ببلاد الشرق من بني جنكزخان فلينظر هناك.

الطرف الثاني في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق

من المملوك والحكام بالبلاد أتباع القانات ومن في معناه.

الطرف الثالث في المكاتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى هذه المملكة

وعادة مكاتبته أن يحذو حذو الديار المصرية، فيما يكتب إليه عنها، فيبتدئ المكاتبة بلفظ: أغز الله تعالى أنصار المقام الشريف، العالي المولوي السلطاني الفلاني بلقب السلطنة، ثم يقول أصدرها من مكان كذا، يذكر المقصد ويختم بالدعاء ونحوه، ويكتبون بالقطع الشامي الكامل بقلم الثلث.

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن إلى الملك الظاهر برقوق صاحب الديار المصرية، في شهور سنة ثمان وتسعين وسبعمائة على يد القاضي برهان الدين المحلي، تاجر الخاص والطواشي افتخار الدين فاخر دوادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور، وهو: أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالي السلطاني الظاهري، وزاده من البسطة والقدرة، وضاعف له مواد الاستظهار والنظر العزيز، وجعل الظفر مقروناً براياته أينما يممت ما بينهما تمييز، ومحبوباً على عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح ببركة أيامه كل مقفل ممتنع بأمر وجيز، ولا زال متمثل الأوامر والمراسيم، رافلاً في أردان العز والمكارم، ممدوداً على الأمة منه ظل المراحم بمنه وكرمه.

أصدرها إليه زبدة زبيد المحروسة معربة عن صدق ولائه، متمسكة بوثيق أسباب آلائه، ناشرة طيب ثنائه، مترجمة ناظمة لمنثور الكتاب الكريم الظاهري الوارد على يد المجلس العالي البرهاني بتاريخ ذي الحجة عظم الله بركاتها، سنة سبع وتسعين وسبعمائة، أحسن الله خاتمتها، فتلقيناه باليدين، ووضعناه على الرأس والعين، واستدللنا به على شريف همته، وصفاء مودته، وتأكيد أخوته، وسألنا الله تعالى على أن يمتعنا ببقاء دولته القاهرة، وينشر في المشارق والمغارب أقلامه الزاهرة، ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم الشريف ما يخجل منه نوار الربيع وبهاه، فانشرحت به الصدور وتزايد به السرور، وقرت به الأعين، وكثر التهجد به لما استعذبته الألسن، وامتثلنا المرسوم الشريف في تعظيم المجلس العالي ذي الجلالتين، برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلي، ومراعاته في جميع أموره وسرعة تجهيزه، على أنا نجله ونبجله، ونوجب حقه ولا نجهله، فهو عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك

الأفضل، بل أمكن وأفضل فهو لدينا المكين الأمين وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مراسمنا إلى النواب بثغر عدن المحروس أن لا يعترض في عشور ونول، وجملناه على ظهور مراكبنا عزيزاً مكرماً، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا لا جل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه، وجهزنا الهدية السعيدة المباركة المتقبلة، صحبته هو والأمير الأجل الكبير الافتخاري، افتخار الدين فاخر الداوادار، وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة، للمقام الشريف والأمراء الأجلاء الكبراء، وصحبتهما نفر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافنات الجياد، على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره بمقدار همته الشريفة العالية، ورتبته المنيفة السامية، لاستصغرت الأفلاك الدائرة، والشهب السائرة، واستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقلته طرفه، ولم نرض أن نبعث إليه الأنام مماليك وخولاً، ونجبي إليه ثمرات كل شيء قبلاً، ولو رام محب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتماد، وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد، فوثق بهذه القضية، وأنفذ إلى المقام الشريف على يد موصلها هذه الهدية، راغباً إلى إنعامه في بسط عذره، وحمله على شروط المحبة طوال دهره، وتصريفه بين أوامره الممتثلة ومراسيمه المتقلبة، والمسؤول الإتحاف بالمهمات والمراسيم الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها.

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بنوده، وأشرقت سعوده، وبرقت سيوفه في رقاب المارقين، واطردت في راياته المآرب فتناولها باليمين، " نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين " وفتح القلاع والمصانع، والاستيلاء على المرابع والمزارع، واستئصالنا شأفة المارقين، واسترجاع حصن قاف المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب، فكم من كمي مقتول وأسير مكبول وحصان ترك سبيلها ورب حصان كثر عليه عويلها، فخربنا

المعاقل، وأطلقنا العقائل وأوطناهم الحميم، " وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم " وغير ذلك مما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمير افتخار الدين، فاخر الداوادار لقضاء بعض الحوائج الطارئة من الديار المصرية ألف وأربعمائة وسبعون قطعة من أصناف البهار، وسبع قطع حرير، والمستمد من إحسان المقام الشريف العالي، بروز أمره الشريف العزيز النافذ المطاع، أنفذ الله تعالى شرقاً وغرباً، وأمضاه بعداً وقرباً، في قضاء حوائجهما وسرعة تجهيزهما وقفولهما على يمن اليمن، وعز وتعز قريباً.

وبعد فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة، وتوفير الحرمات، بل هي أعظم الكرامات، والمسؤول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى أنصاره، وضاعف اقتداره، بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة، وثغر الإسكندرية والشام بالجلالة والاحترام، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن انتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أم مقيماً، وأن يعار في مهماته، جلالة تفيأ ظلالها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهراً، إن شاء الله، فثم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح لخدامنا الدماء، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتب لهم مربعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يبدي المستعطي ما في ضميره إلى المعطي، والاشتهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة الممهدة، والمصافاة المؤكدة، والمودات المحكمة، والأسباب الثابتة، أوجب ذلك، وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال، في هذا الاسترسال، ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه، وتعاطي كأس الوداد، يدل على حسن الاعتقاد، ولذلك نطق اللسان، وكتب البنان، بما افترض على عباده الرحمن، فقال في محكم كتابه المبين: " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف، ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تسيير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف

على منابر الدنيا تتلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تملى. جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج وتسفير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام، فحاج اليمن تعذرت عليه الطرقات، ولم يطق حمل النفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحل عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهاب، بمنه وكرمه.

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهاني فإنها متينة، وشواهدها من أقواله وأفعاله مبينة، خصوصاً في المقام الشريف واستمالته للقلوب بالعبارات اللطيفة، فقد نظم مقاعد الائتلاف، وتزايد بشرحه الأنس في محاورته والاختلاف، ولولا المهم الشريف لاستوقفناه عندنا عاماً كاملاً من بعد هذا التاريخ، ليملي علينا آيات المقام الشريف، شرفه الله تعالى وعظمه. وعلى لسانه ما يبديه في المواقف الشريفة شفاهاً إن شاء الله تعالى.

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، أحسن الله تعالى ختامها، والحمد لله أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً.

قلت: أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف على مكاتبة، وإن كان المقر الشهابي بن فضل الله قد أشار في كتابه التعريف إلى أنه ورد عنه مكاتبة إلى الأبواب السلطانية الناصرية محمد بن قلاوون يستجيشه على صاحب اليمن، والغالب على الظن أن مكاتبته أعرابية، كما أن إمارته أعرابية، إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفن الإنشاء جملة، وإنما يكتب عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم، على أن فيما يأتون به مقنعاً من الفصاحة والبلاغة بكل حال، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يعول.

الطرف الرابع في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند

قد تقدم أن المكاتبة إلى صاحب الهند تشبه المكاتبة إلى القانات العظام بإيران

وتوران، وتقدم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب، من حيث أن الغالب جريان العادة في الأجوبة بأن تكون على نمط الكتب الواردة، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكتب الواردة من صاحب الهند في هيئة الكتب الصادرة إليه في قطع الورق وغيره، فتكون في البغدادي الكامل بقلم مختصر الطومار بالطغراء والخطبة المكتتبتين بالذهب، إلى ما جرى مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكاتبات إلى القانات.
قلت: ولم أقف على صورة مكاتبةٍ من ذلك ولا على نسخة شيء ورد، لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن في جملة ممالك الهند مملكة تعرف بالسيلان، وقد رأيت في تذكرة محمد بن مكرم التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية، أنه في سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صفيحة ذهب رقيقة عرض ثلاثة أصابع، في طول نصف ذراع، وحوله مدورة حلقة داخلها شبيه بالخوص أخضر، عليه كتابة تشبه الخط الرومي أو القطبي، فطلب من يقرأه فلم يوجد، فسئل الرسل عما هو مكتوب فيها، فقيل: إنه سير رسوله رومان ورفيقه، وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف، فقيل له: ما لهم طريق. فقال لهم: سافروا إلى هرمز فحضروا إليها، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام، والدعاء للسلطان، وأن البلاد السيلان مصر، وبلاد مصر السيلان، وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة، وتعلق بمحبة مولانا السلطان خلد الله ملكه وسأل أن يحضر رسول من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رسله، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق، وأن عنده الجواهر واللآلئ والفيلة والقماش الكثير من البز وغيره، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم، وأن عنده في كل سنة عشرين مركباً يسيرها إليه، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى البلاد وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التقادم والفيلة حتى يسافروا إلى اليمن فرده، ولم يعطه شيئاً، وإنه يعبي التقادم والفيلة على أبواب مولانا السلطان، وأن بمملكة سيلان سبعاً وعشرين قلعةً، وبها معادن الجوهر والياقوت ومغاص اللؤلؤ، ولم يزد على ذلك، ورأيت في كتاب

الذيل على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك، وفيه ذكر البلاد التي مرت عليها رسل صاحب السيلان في طرقها.

المقصد الثاني في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب

والعادة الجارية في الكتب الواردة عنهم أن تكون على نمط واحد في الورق، مع تقارب الحال في الترتيب، وتكون كتبهم في طومار واحد، في عرض نحو شبرين، في طول نحو ثلاثة أشبار، والبسملة بعد بياضٍ نحو شبر وثلاثة أصابع مطبوقة من أعلى الطومار، وعرض سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة، والسطور منحطة الأوائل مرتفعة الأواخر حتى يصير البياض الذي في أعلاها في آخر سطر البسملة، قدر شبر فقط، وبين كل سطرين قدر عرض إصبع ونصف إصبع، وكل سطر ينقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج، حتى يكون السطر الآخر قطعة لطيفة في زاوية الطومار التي على اليسار إلى أسفل، ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله آخذاً من آخر السطر الأخير، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدر رأس خنصر، ويبتدئ السطر الأول منها بقطعة لطيفة منحطة الأول مرتفعة الآخر ثم السطر الثاني قطعة أطول من ذلك، ولا يزال كذلك حتى يكمل السطر فيكتب أسطراً كاملة، إلا أنه في أول سطر ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتى يكون السطر الأخير قدر الأنملة في زاوية الطومار من جهة البسملة، ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدر إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة، أسطراً متضايقة حتى ينتهي إلى آخر الكلام، ويكتب في آخره بقلم الثلث: وكتب في التاريخ المؤرخ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف وفيه جمل:

الجملة الأولى في المكاتبة الواردة عن صاحب يونس

وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ: من عبد الله الفلاني بلقب الخلافة الخاص به، أمير المؤمنين ابن فلان. ويقال في كل من آبائه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له إلى أخينا فلان ويؤتى بالسلام والتحية، ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد، ويختم الكتاب.

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله بن أبي بكر، إلى السلطان الملك الظاهر برقوق صاحب مصر، جواباً عن كتابه إليه. وهو: من عبد الله المتوكل على الله، أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر، ابن الأمراء الراشدين، أعلى الله به كلمة الإسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام.

إلى أخينا الذي لم نزل نشاهد من إخائه الكريم، في ذات الرب الرحيم، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا انتزاح، ونثابر من حفظ عهده والقيام بحق وده على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ونبادر إلى ما يبعث القلوب على الائتلاف، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف، وإن شحطت الدار وتناءت الصور والأشباح. ونتعرف بما له من مزيد الإعظام، بمجاورة البيت الحرام والقيام بما هنالك من مطالع الوحي الكريم ومشاعر الصلاح، ونجتلى من أنوائه الكريمة الشريفة، ومطالعه العالية المنيفة، وجوه البشائر رائقة الغرر والأوضاح. ونستهدي ما يسرنا من أنبائه، ممن يرد من تلقائه حتى من أنوار الصباح وسفراء الرياح، ونبتهل إلى الله بالدعاء أن يخبرنا عنه، ويطلعنا منه، على ما يقر عيون الفوز ويشرح صدور النجاح، السلطان الجليل الطاهر الملك الأعظم الظاهر، جمال الدين والدنيا، مؤيد كلمة الله العليا، سيف الملة المرهوب المضاء، بيد القضاء، وركنها الباسق العلاء، في أوج عزها المنداح للفضاء، المشهود له من لدن حل التمائم، ولوث العمائم، بالشهامة التي ترعب الأسد في أجمها، وتستخدم له سائر الأمم، تركها وعربها وعجمها، المختار للقيام بحقه بين عباده، في أرضه وبلاده، الفائز من جوار بيت الله ومقام خليله، ومشرع الحجيج إليه وتيسير سبيله، بما

أحرز له سعادة الدارين، وعز المقامين، كوكب السعد الذي شقيت به أعداؤه، وبدر الدين الذي استضاءت به أنحاؤه، ميزان العدل لإنصاف الحقوق وشمس الهداية النيرة الغروب والشروق، أبي سعيد برقوق وصل الله له رتبة راقية يتبوأ محلها، ونعمة باقية يتفيأ ظلها، وعزة واقية تسم وجوه أعدائه خسفها وذلها، بمنه وكرمه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله ناظم الشمل وقد راب نثره وشتاته، وجابر الصدع وقد اتسعت عن الجبر جهاته، وراد الأمر وقد أعيا ذهابه وفواته، وواصل الحبل وقد استولى انقطاعه وانبتاته، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة مما تكنه أرضه وسمواته الذي قرن بالعسر يسراً، وجعل لكل شيء قدراً، فلا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا يكون في ملكه إلا ما تنفذه أحكامه وإرادته.

والصلاة والسلام الأكملين، على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي صدعت بالحق آياته، وقامت بحجة دعواه معجزاته، ونطقت بأنه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته، المبعوث بالملة السمحة، من أزكاها حج بيت الله المقدسة أركانه وحجراته، المعظمة عند الله حرماته، المغفورة لمن سبقت له الحسنى بحجة سيئاته، وعلى آله وأصحابه الذين قضوا رضي الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولاته، وأنصار حزبه المفلح وحماته، وليوث دفاعه في صدور الأعداء وكماته، والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خلصت لله نياته، وصدقت في ذاته دعواته، وصممت لإظهار دينه القويم عزماته، وصلة الدعاء لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقي، بنصر تمضي به في صدور أعدائه شباته، وعز يطرد به استقلاله وثباته، وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته، وتطول به حياته.

فإننا كتبنا لسلطانكم كتب الله لكم من إسعاده ما يتكفل بعزه ونصره، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره من حضرتنا العلية تونس كلأها الله تعالى ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة متبجلة الصور، وآيات فتحه المبين ولله المنة محكمة السور، أحاديث الشكر على نعمه

سبحانه مسلسلة الخبر، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت إيالتنا الكريمة من البشر. وإلى هذا فموجبه إليكم بعد تقريب حب شرعت في ملة الوفاء قواعده، وقبل في عهد الصفاء شاهده، واستقل بصلة الخلوص عائده، وثبت في مرسوم الصداقة الصادقة زائده، إعلامكم أنا علم الله من حين اتصل بنا خبركم الذي جره القدر المقدور، وجرى به في أم الكتاب الحكم المسطور، لم نزل نتوجه إلى الله تعالى في مظان قبول الدعاء، ورفع النداء، بأن يجبركم بفضله من حيث صدع، ويصلكم بخيره إثر ما قطع، ويعطيكم من نعمته أضعاف ما منع، إلى أن دارك الله بلطفه وأجاب، وتأذن بفضله في قبول الدعاء بظهر الغيب وهو مستجاب، فرد عليكم ملككم، وصرف إليكم ملككم، فأخذ القوس باريها، وفوق السهم مقرطسها وراميها، وأنفذ القضايا حكمها ومفتيها، وإذا كان العويل يفضي إلى النجدة، والبلا يقضي بالجدة، والفرج يدافع في صدر الشدة، فلا جرم غفر الله للأيام ما اقترفت، لما أنابت واعترفت، وهل هو إلا التمحيص الإلهي أراكم الله من باطن الضراء سراءكم، وأجزل من جانب الغماء نعمائكم، والتبر بعد السبك يروق النواظر خلاصة نضاره، والبدر بعد السرار تتألق أشعة أنواره.

ولما جاءنا بنصركم البشير، وطلع من ثنية الهناء بأكمام السرور إلينا يشير هززنا له أعطاف الارتياح وتلقينا منه وارد التهاني والأفراح، وحمدنا الله لكم على ما من به من الفوز والنجاح ورأينا أن تهنئتكم به من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة، وأنه لا يقوم به عنا هنالكم، ويؤدي ما يجب منه بين يدي كرسي جلالكم، إلا من له من ديار الملوك قرب الأدب والسلوك، فاقتضى نظرنا الجميل أن عينا له شيخ دولتنا المستشار، وعلمها الذي في مهماتها إليه يشار فلان.

وقد كان منذ أعوام يتطارح علينا في أن نخلي للحج سبيله، ونبلغه من ذلك مأموله، ويد الضنة لا تسمح به طرفة عين، ونفس الاغتباط لا تجيب فيه دواعي البين، إلى أن تعين من تهنئتكم الكريمة ما عينه وسهل شأنه علينا وهونه، فوجهناه والله تعالى يسعد وجهته، ويجعل حجته لقبول الأعمال حجته. وحملناه من أمانة الحب ما يلقي إليكم، ومن حديث الشوق ما يقص أخباره عليكم، ومن طيب الثناء ما يفض ختامه بين يديكم، وأصحبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة ما يسر الحب

سبيلها، وأوضح الخلوص دليلها، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت الملوك تهادى على قدر جلالها، لما اتسعت لذلك خزائن أموالها، لكنها عنوان الحب السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الشريف.

في أثناء شروعنا في ذلك، وسلوكنا من أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر في وجوه بشائره نضرة النعيم، فاطلعنا منه على ما راق العيون وصفاً ونعتاً، وعبر للخلوص سبيلاً لا ترى القلوب فيها عوجاً ولا أمتاً، ولله هو من كتاب كتب من البيان كتائب، واستأثر بفلك الإجادة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسماً بالقلم وما سطر! والحبر وما حبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به لبيد لأعاده في مقام بليد، ولو قص على قس إيادٍ فصاحته لنزله عن منبر خطابه بعكاظ، أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر الحلال بين المعاني الرائقة الألفاظ.

ولما استقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه، تشوقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يسنيه من ذلك ببلادنا، رأينا أن نتحف أسماعكم منه بما قرت به أعين الإسلام، وأثلج صدور الليالي والأيام، وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ما صدر، حسب ما جره محتوم القدر، لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمه وحماه، ونطرق طروق الغارة الشعواء بلاده وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت به يداه، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرفوا عاقبة مكرهم.

وكان من جزائرهم المعترضة شجاً في حلوق الخطار، ومتجشمي الأخطار، وركاب البحار من الحجاج التجار، جزيرة غودش وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غرباناً نعقت عليهم بالمنون، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون، وشحناها عدداً وعدداً، واستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها، وتحوم إلى أن رمت مخالب مراسيها عليها، فلما نزلوا بساحتها وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بهت الذي كفر وود الفرار والحين يناديه: أين المفر؟ فلما قضى السيف منهم أوطاره،

وشفى الدين من دمائهم أواره، وشكر الله من المسلمين أنصاره، عمدوا على ما تخطاه السيف من والدٍ وولد، ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد، فجمعوا منه عدداً ينيف بعد الأربعمائة على الأربعين، وجاؤوا بهم في الأصفاد مقرنين، وامتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين، وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين.

فعرفناكم بهذا الفتح لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه، وتتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه، وهو سبحانه وتعالى يطلعنا ويطلعكم على ما يسر النفوس ويهنّيها، ويجلو البشائر ويبديها، بمنه وكرمه، والسلام العطر المحيا الجميل المحيا عائد عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجملة الثانية في المكاتبات الواردة عن صاحب تلمسان من بني عبد الواد

ورسم مكاتبته فيما وقفت عليه في المكاتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبتدأ الكتاب بقوله: إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان، بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال، ويؤتى بخطبةٍ، ثم بالسلام، ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع، ويختم بالدعاء المناسب.

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن، إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة: إلى الحضرة العالية السامية السنية الماجدة المحسنة الفاضلة المؤيدة المظفرة المنصورة المالكة حضرة السلطان، الملك الجليل الفاضل المؤيد المنصور المظفر المعظم ناصر الإسلام، ومذل عبدة الأصنام، الذي أيده الله بالبراهين القاطعة، والأنوار المنيرة الساطعة، الأعلى الأوحد الأكمل الأرفع الأمجد الأسمى الأسرى، ذي المجد الظاهر،

والشرف الباهر، الملك الناصر، ابن السلطان الملك الجليل العادل الفاضل المؤيد المظفر الأعلى الأوحد الأكمل الأرفع الأمجد الأسنى الأسمى، ناصر الإسلام والمسلمين، ومعلي كلمة الموحدين، المقدس المرحوم، ذي المجد المشهور، والفخر المنشور، والذكر المذخور، الملك المنصور، أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليه نعمه باطنة وظاهرة، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافرة، وصفقة أعدائهم خائبة خاسرة.

وبعد حمد الله الذي أظهر الأمر العلي الناصري وأيده، وبسط في قول الحق وفعله لسانه ويده، وسدد نحو الصواب منحاه كله ومقصده، والصلاة التامة المباركة على سيدنا محمد رسوله المصطفى، الذي خصه الله بعموم الدعوة وأفرده، وقرن ذكره بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده، والرضا عن آله الكرام، وصحابته الأعلام، الذين حفظوا بالتوقير والتعزيز مغيبه ومشهده، كانوا عند استلال السيوف، ومجال الحتوف، عدده المظفر وعدده، الدعاء لكم المقام الشريف بسعد يطيل في شرف الدين والدنيا مدده وأمده.
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من أخيكم البر بكم الحريص على تصافيكم، عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن، وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها، وأثبتها عزاً وأوضحها، من حصن تلمسان حرسها الله تعالى، ولا ناشيء بفضل الله تعالى إلا ما عود من بشائر تحث جيادها، ومسار يتطاول إلى المزيد اعتيادها، وإلى هذا أعلى الله كلمتكم، وأمتع المسلمين بطول بقائكم، فإنا نعرفكم بطول كتابكم الخطير الأثير، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم، وتتبعنا فصوله واستوعبنا فروعه وأصوله، وتحققنا مقتضاه ومحصوله، وعلمنا ما انطوى عليه من المنن والإفضال، واشتمل عليه من التفصل والإجمال، ومن أعظم ذكر إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيع في المحشر، الذي وجبت له نبوته ومثنى الغيب عليه منسدل، وأدام صلوات الله عليه في طينته منجدل، وعلم الله أننا لم تزل آمالنا متعلقة بتلكم المشاعر الكريمة، وقلوبنا متشوقة إلى تلكم المشاهد العظيمة، فلنا في ذلك نيات صادقة التحويم، وعزمات داعية

التصميم، وكان بودنا لو ساعدنا المقدار، وجرى الأمر على ما نحبه من ذلك ونختار، أن نمتع برؤية المواطن التي تقر أبصاراً، ويتشفى بها إيراداً وإصداراً، ولعل الله تعالى ينفعنا بخالص نياتنا، وصدق طوياتنا، بمنه وكرمه.
وقد وجب الشكر علينا من كل الجهات، واتصلت المحبة والمودة طول الحياة، غير أن في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكريم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيده، ولا يبالي بهزله ولا جده، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع الأكمل الزاهد أبو زكريا يحيى ابن الشيخ الصالح المرابط المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد بن جرار الوادي، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يلقيه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الود والإخاء والمحبة والصفاء، مما يعجز عنه الكتاب، فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه، وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذلكم المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنة العظمى، والمزية القصوى، والله تعالى يبقي ذلكم المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب، إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة في المكاتبات الواردة عن صاحب فاس إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية

وعادة كتبهم أن تفتتح بلفظ من عبد الله فلان أمير المسلمين. وأول من كتب منهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين استولى على المغرب، قبل بني مرين، خضوعاً أن يتلقب بأمير المؤمنين مضاهاة للخلفاء وهو: من عبد الله علي أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك

العدوتين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين وسلطان العدوتين، القائم لله بإعلاء دين الحق، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، منح الله التأييد مقامه، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه.

إلى السلطان، الجليل، الكبير، الشهير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافل، المالك، الناصر، المجاهد، المرابط، المثاغر، المؤيد، المظفر، المنصور، الأسعد، الأصعد، الأرقى، الأوقى، ناصر الدنيا والدين، وقامع البغاة والمعتدين، مفيد الأوطار، مبيد الكفار، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار، مالىء صدور البراري والبحار، حامي القبلتين خديم الحرمين، غيث العفاة عون العناة، مصرف الكتائب، مشرف المواكب، ناصر الإسلام، ناشر الأعلام، فخر الأنام، ذخر الأيام، قائد الجنود، عاقد البنود، حافظ الثغور، حامي الجمهور، نظام المصالح، بقية السلف الصالح، ظهير الخلافة وعضدها، ولي الإمامة وسندها، عاضد كلمة الموحدين، ولي أمير المؤمنين، أبي المعالي محمد بن السلطان، الكبير، الجليل، الشهير، الشهيد، الخطير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المظفر، المعظم، المبجل، المكبر، الموقر، المعزز، المجاهد، المرابط، المثاغر، الأوحد سيف الدين قلاوون أدام الله فضل عزمه الماضي بتأييده، وأدار الأفلاك بتشييد ملكه الشامخ وتمهيده، وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين، وأدناس المارقين، بما يريق عليها من دمائهم، فما كل متطهر يجزأ عنه غسل مائه أو تيمم صعيده.

سلام كريم، طيب عميم، أرج الشميم، متضوع النسيم، تستمد الشمس باهر سناه، ويستعير المسك عاطر شذاه، يخص إخاءكم العلي، ووفائكم الوفي، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أيد المؤمنين، على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، وعرف الإسلام وأهله من السر العجيب، والصنع الغريب، ما فيه عبرة للمسلمين والناظرين، حكمة عجزت عن فهم سرها المكتوم، وقصرت عن كنهها المختوم،

ألباب عبيده القاصرين. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي أرشد به الحائدين الحائرين، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله برغم الجاحدين الكافرين، وعلى آله وصحبه الذين هاجروا إليه وبلادهم هجروا، والذين آووا من أوى إليهم ونصروا، والذين جاهدوا في الله فصبروا، ففازوا بذكر المهاجرين والأنصار وأجر المجاهدين الصابرين، وصلة الدعاء لحزب الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بفضل لا يزالون معه لأعدائهم قاهرين، وسعد لا ينفكون له بآمالهم ظافرين، ونصر من عند الله وما النصر إلا من عند الله وهو خير الناصرين.

فإنا كتبنا لكم كتب الله لكم مجداً مديد الظلال، وعضداً حديد الإلال، وسعداً جديد السربال، من منصورة تلمسان حرسها الله تعالى، والصنائع الربانية تكيف العجائب، وتعرف العوارف الرغائب، وتشنف الأسماع بما تسمعها من إجزال المنوح والمواهب، وتفوف الرقاع بما تودعها من أحاديث الفتوح الغرائب، والحمد لله على ما يسر من المآرب، وسهل من المواهب، وإخاؤكم الصادق مبرور الجوانب، مأثور المناقب، مشرق الكواكب، مغدق السحائب، نامي المراتب، سامي المراقب، والله تعالى يبقيه في ذاته، ويقيه من صرف الدهر وأذاته، وإلى هذا وصل الله لكم سعداً جديدً، وجداً سعيداً، ومجداً حميداً، وحمداً مجيداً، فقد وصل كتابكم الأثير، المزري بالمسك النثير، فاجتلينا منه روضة جادها البيان فأمرعها، ورادها البنان فوشعها، واجتنينا من غصون سطوره ثمرات وداد ما أينعها، إنباءً عما تلقاه الإخاء الكريم من قبل الشيخ الأجل، أبي عبد الله محمد بن الجراح مما عنا تحمل، وفي إلفائه وأدائه بحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل، وهو ما كان عليه عزم مولاتنا الوالدة ألحقها الله تعالى رضوانه، وبوأها جنانه، من حج البيت المحرم، وزيارة القبر المعظم المكرم، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وثالثها في شد الرحال للمسجد الأقصى ونعم المغتنم، وقضاء النسك بتلك المناسك والمشاهد، والتبرك بتلك المعالم المنيفة والمعاهد، وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي، ورصف في أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حربي،

وما منحنا الله من نصر لقلوب أهل الإيمان مبهج، ولصدور عبدة الصلبان محرج، وإن الإخاء الكريم حصل له بذلك أبهى ابتهاج، وحل منه محل القبول الذي انتهج له من اقتفى سبيل القصد أنهى انتهاج، فعقد العزم على تلقي الوافد من تلقائنا، والوارد رجاء أداء فرض الحج من أرجائنا، بتسهيل سبيله، وتيسير ارتحاله إلى بيت الله ورسوله، وأنه متى وقع الشعور بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على بلاده، وقربها من جهاته المجودة من جود جوده بعهاده، يقدم للخروج من يتلقى ركابها، ويعتمد بالبر والتكريم جنابها، حتى تحمد وجهتها الشريفة بجميل نظره وإيابها، وقام عنا بما نوده من برها، وساهم فيما تقدمه إلى الله عز وجل من صالح أجرها. وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجزله، ومن البر بأحفاه وأحفله، وحصل لدينا بإزائه سليم ود وكريم إخائه، من تخليص ولائه، وتمحيص صفائه، منا ما يزال عهده الأنيق في نهائه، وعهده الوثيق في ازدياده ونمائه، وغصنه الوريق في رونق غلوائه، ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها، وبرد ضريحها، قد وافت بما قدمت عند الله من صالح العمل، وماتت على ما أبرمته في قصد البيت الشريف في نية وأمل، إذا كانت رحمة الله تعالى عليها قد تأهبت لذلك، واعتدت لسلوك تلك المناسك، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك، وعلى الله إجزال ثوابها، وعنده نحتسب ما ألم فألم من مصابها فإن لدينا ممن يمت بحرمة المحرم إلينا، ويلزم بحق التربية علينا، من يقوم عندنا مقامها، ويروم من ذلك المقصد الشريف مرامها، وسنوردها إن شاء الله تعالى على تلكم البقاع، ونوردها من تلكم الأقطار والأصقاع، ما يجعل بحسن نظركم مورده ومصدره، ويطابق في جميل اعتنائكم وحفيل احتفالكم خبره ومخبره، بفضل الله وعونه.

وأما تشويق ذلكم الإخاء، المواصلة الكتب بسار الأنباء، فإن من أقربها عهداً وأعذبها حديثاً يهادى ويهدى، ما كان من أمر العاق قاتل أبيه، الحال من إقليم تلمسان وممالكها بالمحل النبيه، وذلك أن أسلافه بني زيان، كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتومين على ملك المغرب الأقصى وقائع توريدهم الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون

المنازعة، ويعودون للموادعة، ثم لم يلبثوا أن ينكثوا، ولم يصبروا أن يغدروا، إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته إياهم، فأكثر موتهم وكدر محياهم، وتمادى بهم الحصار تسع سنين، وما كانوا غير شر ذمةٍ قليلين، وهنالكم اتصلت بينكما المراسلة، وحصلت الصداقة والمواصلة، ثم حم موته، وتم فوته، رحمة الله تؤمه، ورضوانه يشمله ويعمه، فنفس خناقهم، وعاد إلى الإبدار محاقهم، وصرف القائم بعده عنهم حين، عما كان هو رحمه الله قد طوعه من بلاد مغراوة وتحين، فاتسعت عليهم المسالك، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طمع الممالك، لكن هذا الخائن وعمه كانا ممن أسأرته الفتن، وعم به فيها غوامر المحن، فسلكا مسلك أسلافهما في إذاعة المهادنة، والروغان عن الإعلان بالمفاتنة.

ولما سول الشيطان لهذا العاق قتل والده، والاستيلاء على طارفه وتالده، لم يقدم عملاً على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبي سعيد، قدس الله مثواه، وجعل الجنة مأواه، في السلم راغباً، وللحكم بموادعته طالباً، فاقتضى النظر المصلحي حينئذ موافقته في غرضه، وإن كان باطنه على مرضه، فقوي أمره، وضري ضره، وشري شره، ووقد تحت الرماد جمره، وسرى إلى بلاد جيرانه الموحدين داؤه، وطال عليهم تضييقه واعتداؤه، واستشعر ضعفهم عن مدافعته، ووهنهم عن مقاومته ومنازعته، فبغى وطغى، ولم يدر أن من فوقه سقب السماء رغا، وباطن جماعة من عرب أفريقية المفسدين وجروا بحبل الأطماع إليها، وأقام على بجاية عشرين سنة يشد على بجاية الحصار، ويشن على أحواز تونس الغار، حتى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان، بممالأةٍ منهم ومن غيرهم من وراتيه؟ مابن اللحياني وابن الشهيد وابن عمران، فأدى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره في طلب النصرة رسولاً، وأوفد علينا أعز ولده أبا زكريا في إذهاب المضرة عنه دخيلاً، فخاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاق مبصرين، وبقوله تعالى: " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما " مذكرين، فما زادته الموعظة إلا شراً، ولا أفادته التذكرة إلا بطراً، وحين ذكر

فلم تنفعه الذكرى، وفكر فلم يتيسر لليسرى، امتثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله: " فإن بغت إحداهما على الأخرى " فأزمعنا قدعه، وأجمعنا رده وردعه.
وفي أثناء ذلكم وصل إلينا أيضاً سلطان الأندلس مستغيثاً على النصارى أعداء الله جيرانه على طاغيتهم، المصر على عداوته وعداوتهم، فجهزنا معه ولدنا عبد الواحد في أربعة آلاف من الأبطال، وأمددناهم بما كفاهم من الطعام والعدة والمال، فأجاز في سبتة إلى الخضراء عجلاً، ولم يقدم على منازلة جبل الفتح عملاً، وكان هذا الجبل الخطير، شأنه منذ استولى عليه العدو قصمه الله في سنة تسع وستين شجاً في لهوات أهل العدوتين، وغصة لنفوس الساكنين بالجهتين، لإطلاله عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تحطف من رام العبور ببحر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق، فكم أرمل وأيتم، وأثكل وأيم، فأحاطت به العاديات السوابح براً وبحراً، وأذاقت من به من أهماج الأعلاج شراً وحصراً، إلى أن أسلموا المسلمين قهراً وقسراً، ومنح الله حزبه المؤمنين فتحاً ونصراً، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغاثته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بخيله ورجله إزاءه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقى منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنث يمينه، وأقلع بعد شهرين وأيام مدلجاً، وأسرع العود إلى مستقره واسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنابته للسلم وانقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب غرناطة من معتادة، وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفاً من الذهب في العام، ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إلزام، فسمناه تركها وإسقاطها، وألزمناه فيما عقدناه له من السلم أن يدع اشتراطها، والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد اعتنينا بتحصين حصن هذا الجبل تتميماً لها وتكميلاً، وابتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجاً وإكليلاً. وكنا في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا الممتنع بسجلماسة من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصلاح والفلاح على التفصيل بالجملة،

لعثايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب تلمسان ومساعدته على البغي والعدوان، فسهل الله افتتاحها وعجل من صنائعه الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع، ما يقصر عنه كل نعت ووصف، وفي خلال تلكم المنازلة وحال تلكم المحاولة لاحت للخائن التلمساني فرصة، جرع منها عصة، إذ ظن أن عنه مشغولون، وفي أمر ما عرض من سجلماسة وجبل الفتح معتملون فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجد، إلى حصن ماوريرت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحد فوجد هنالك ولدنا الأسعد تاشفين في ثلة من

بني مرين، آساد العرين فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين، فنكص على عقبه ولم ير له جنة أوقى من هربه، وعاد لذلك ثانية فلم تكن عساكرنا عن طرده وانية، بل ردته في الحافرة وأنشدته بلسان حالها الساخرة. سريع.ني مرين، آساد العرين فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين، فنكص على عقبه ولم ير له جنة أوقى من هربه، وعاد لذلك ثانية فلم تكن عساكرنا عن طرده وانية، بل ردته في الحافرة وأنشدته بلسان حالها الساخرة. سريع.

إن عادت العقرب عدنا لها ... وكانت النعل لها حاضرة

ولما فرعنا والحمد لله من تلكم الشواغل، وأرغنا من الخائن التلمساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل، فأعرض وأشاح وما لاحت عليه مخيلة فلاح، نهدنا نحن أرضه، لنجزيه بقرضه، بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدى وخيول تذر الأكم للحوافر سجداً، تنقض على الأقران أمثال الأجدال، وتقض الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل، فكلفنا بتسليم منازله منزلاً فمنزلاً، وتسنم معاقله مقعقلاً فمقعلاً، وجل رعاياه تقر بفضلنا وتفر من جواره إلى عدلنا، ومن تمسك منهم بحبله، أو سلك من الغي في سبله، قاده السيف برغمه، واستنزله على حكمه والعفو مع ذلك يؤمهم، والإحسان يشملهم ويعمهم، حتى لم يبق إلا معقله الأشب ومنزله الذي رأى أنه عن عين الشوائب محتجب، قد شمخ أنفاً حمياً، وصافح كفاً للثريا، ولم يرض لهامته عمائم إلا الغمائم، ولا لأنامل شرفاته خواتم، إلا النجوم

العواتم، فنزلنا بساحه، وأقبلنا على كفاحه وجعلنا نقذفهم من حجارة المجانيق، بأمثال النيق، ومن كيزان النفط الموقدة، بأمثال الشهب المرصدة، ومن السهام العقارة، بأمثال العقارب الجرارة، حتى غدت جدرانهم مهدومة وجسورهم مكلومة، وثغور شرفاتهم في أفواه أبراجهم مهتومة، وظلت الفعلة تشيد إزاء أبراجهم أبراجاً، وتمهد منا لتسوير أسوارهم أدراجاً، وللمعاول في أسلافها إعوال، وللعواسل على أعاليها أعمال، وللأشقياء مع ذلك شدة وجلد، وعدة وعدد، وحدة ولدد، يقاتلون حمية، وينازلون بنفوس أبية، وحجارة المجانيق تشدخ هامهم، وبنات الكنائن تزلزل أقدامهم، وهم في مثل ذلك لازمون إقدامهم، إلى أن اشتدت أزمتهم فلم يجدوا لها من فارج، وأحاطت بهم الأوجال من خارج، وهدمت أبراجهم الشواهق، وردمت حفائرهم والخنادق، وأخذت الكماة في العروج إلى البروج، والحماة في السباق إلى الأنفاق، والرماة في النضال بالنصال، فمن مرتق سلماً، غير متق مؤلماً، ومشتغل بالنقب، غير محتفل بشابور الحجارة المنصب، وأفرج المضيق، وانتهج الطريق، واقتحمته أطلاب الأبطال، وولجته أقيال القبائل وولى الأشقياء الأدبار، وعاذوا بالفرار، وبدت عليهم علامات الإدبار، وسابقوا إلى الأبواب، فكان مجيئهم من أقوى الأسباب، وقتل منهم الزحام، من أسأره الهدم الحسام، فتملكنا ما دارت عليه الأسوار الخارجة، كفرار السبع والملعب، وجميع الجنان والعروش التي ما انفك الشقي يجتهد في عمارتها ويتعب، وأعلنا بالنداء أن كل من جاءنا هارباً، ووصل إلينا تائباً، منحناه العفو، ومحونا عنه الهفو، وأوردناه من إحساننا الصفو، فتبادروا عند ذلك يتساقطون من الأسوار، تساقط جنيات الثمار، فرادى ومثنى، آئبين إلى الحسنى، فيسعهم الصفح، ويحسبهم المن والمنح.

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه، وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه، أمر بسراح من في قبضته وسجنه، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شيء على وهيه ووهنه، واعتمد الناس في بقية يومهم السور تتوسع أنقابه، وتتخرق أبوابه، إلى أن جنهم الليل، وحاق منهم بالأعداء الويل، ولزم كل مركزه، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه، وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون

فلما ارتفع الضياء، ومتع الضحاء، أمرنا ولدينا يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعد له بالمراصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها، فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم ولم يكن إلا كلا حتى امتطيت تلك الصهوة، وتنسمت فيها الذروة، وتسلمت بيد العنوة، وفصمت عراها عروة عروة، وأنزلوا من صياصيهم، وتمكنت يد القهر من نواصيهم وحقت عليهم كلمة العذاب من معاصيهم، وفر الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره، وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى بن علي معينه على البغي والعصيان، وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكنفهم هنالك أولياء دولتنا العلية، فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السالب حياض المنية، ونبذت بالعراء أجسامهم، وتقدمنا للحين، بأن يمد على الرعية ظل التأمين، ويوطأ لهم كنف التهدئة والتسكين، ويوطد لهم مهاد العافية، وتكف عنهم الأكف العادية، حتى لا تمتد إليهم كف منتهب ولا يلتفت نحوهم طرف مستلب، ومن انتهب شيء أمر برده، وصد عن قصده، وكمل لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد، ونسخت منها دولتهم، ومحيت من صحيفتها دعوتهم، وعوض الرعايا من خوفهم أمناً، ومن شؤمهم يمناً، وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية، وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيعة التي بهرت الصنائع جمالاً، وأضفت على المسلمين من الصلاح والعافية سربالاً. وقد رأينا من حق الإنعام الجسيم، والصنع الرائق الوسيم، أن نتبع العفو بعد المقدرة، بالإحسان لمن أسلف لنا غمطه أو شكره، فمننا على قبائل بني عبد الواد، وأضفينا عليهم صنوف الملابس نساء ورجالاً، وأوسعنا لهم في العطاء مجالاً، وأفعمنا لهم من الحباء سجالاً، وأقطعنا له ممن بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير من بلادهم، وحبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم، وإخصاب مرادهم، وخلطناهم بقبائل بني مرين، وحطناهم باتحاد الكلمة من تقول المتقولين، وتزوير المزورين، وأعددنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد، واعتدنا من فرسانهم ورجالهم لطعان

الأعادي أكبر مدد، وأزيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية إصرهم، وأزيح عنهم بتوخي العدل فيهم جورهم ووزرهم، وخففنا عنهم ما آد من المغارم، وهاد من المكارم، فانشرحت صدورهم، وصلحت أمورهم.
والحمد لله الذي ثلّ محال الباغين ومجالهم، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم، وأخذوهم بما احتقبوا من المآثم، واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم، وأباحوا من المسكرات وأذاعوا من المنكرات وطالما أصبح ربعهم معدن الفسوق وموطن العقوق، ومقطن إضاعة الحقوق ولا سيما في أيام المسرور بهناته، المغرور بما سول له الشيطان وأملى له من ترهاته، المشهور بقتل أبيه المأثور من مثالبه ومعايبه بما لم يأت الدهر له بشبيه ولقد طبقت الآفاق معاصيه، وبلغت أخبار خيانته من بأطراف المعمور وأقاصيه ولكن الله تعالى أملى له ليكثر مآثمه، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهي ظالمة.

والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه، ورخص عنها بأيدينا أوضار أدناسه وأنجاسه، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المريد المراد، وأراح منه ومن شيعته البلاد والعباد، ولو لم يكن إلا ما نال الحجاج من تعنيه وتعديه، وطال عليهم من تعرضه لهم وتصديه، حتى حجز عن الحجاز الشريف قصاده، وحجز بقطع السبيل عن بيت الله الحرام من أراده، فكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج، وفرق فريقهم، وعوق طريقهم. والآن بحمد الله حقت الحقائق، وارتفعت العوائق، وصح العليل، ووضح السبيل، وتسهل المرام، وتيسر القصد إلى البيت الحرام، مكان ترده الزوار عليكم أرسالاً، ووفود الأبرار للسلم خفاقاً وثقالاً، يأتون من كل فج عميق، ويقضون ما يقضون من مناسكهم، آمنين في مسالكهم، إلى البيت العتيق، وهكذا أيضاً خلا وجهنا لجهاد الروم، ولإعداد من يغزونهم في عقر دارهم للقصد المروم، وأن نجدد من هذا العمل بجزيرة الأندلس حماها الله تعالى ما لسلفنا بها سلف، ونبدد من شمل عباد الصليب ما لخلفهم بفضل الله تعالى خير خلف، فعمل الجهاد، بهذه البلاد هو الفضيلة التي لنا الله سبحانه ذخرها، والحسنة التي في صحائف أعمالنا سطرها، وبجيوشنا المنصورة عز دين الإسلام بهذا

المغرب الغريب، وبسيوفنا المشكورة والله المشكور ذل بها الصليب، وأوزعنا الله تعالى شكر آلائه، وأمتعنا بتواتر نعمائه، بمنه وفضله.

وأنهينا لعلمكم الكريم هذه الأنباء السارة، والآلاء الدارة، لما ذكرتم من تشوفكم لاستطلاعها وسطرتم من تشوقكم لاستماعها، ولعلمنا أنكم تسرون بقطع دابر الباغين، وتستبشرون بحسم أدواء الطاغين وتؤثرون الإخبار بائتلاف الكلمة على أعداء الله الكافرين إيثار الحامدين لفعل الله تعالى في إظهار دينه الشاكرين. ولا زلتم تشرع نحوكم البشائر وتفرع بذكركم المنابر وترفع لاجتلاء آثار أمركم الستائر، واستجلاء أخبار سيركم الباهرة النواظر، وتجمع لسجاياكم السنية العلاء، ومزاياكم العلية السناء، ثواقب المناقب وقول خير المفاخر، إن شاء الله. والسلام الأتم الأوضع الأنم، يخص إخاءكم الأوفى ورحمة الله وبركاته.

قلت: جواب هذا الكلام تقدم في الكلام على المكاتبات عن الأبواب السلطانية في المكاتبات إلى الملوك.

وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المريني صحبة الهدايا والحرة الحاجة في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ونصه بعد البسملة: من عبد الله علي أمير المسلمين، ناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، مالك العدوتين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، منح الله التأييد مقامه، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه.

إلى السلطان الجليل، الكبير، الشهير، العادل، الفاضل، الكامل، الكافل، الملك الناصر، المجاهد، المرابط، المؤيد، المنصور، الأسعد، الأصعد، الأرقى، الأوقى، الأمجد، الأنجد، الأفخم، الأضخم، الأوحد، الأوفى، ناصر الدين، عاضد كلمة المسلمين، محيي العدل في العالمين، فاتح الأمصار، حائز ملك الأقطار، مفيد الأوطار، مبيد الكفار، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار، خادم

الحرمين، غيث العفاة، مصرف الكتائب، مشرف المواكب، ناصر الإسلام، ناشر الأعلام، فخر الأنام، ذخر الأيام، قائد الجنود، عاقد البنود، حافظ الثغور، حائط الجمهور، حامي كلمة الموحدين، أبي المعالي محمد بن السلطان الجليل، الكبير، الشهير، الشهيد، الخطير، العادل، الفاضل، الكافل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المكرم، المبجل، المكبر، الموقر، المعزر، المعزز، المجاهد، المرابط، المثاغر، الأوحد، الأسعد، الأصعد، الأوفى، الأفخم، الأضخم، المقدس، المرحوم، الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، قسيم أمير المؤمنين. أبقى الله ملكه موصول الصولة والاقتدار، محمي الحوزة حامياً للديار، حميد المآثر المأثورة والآثار، عزيز الأولياء في كل موطن والأنصار.

سلام كريم، زاك عميم، تشرق إشراق النهار صفحاته، وتعبق من شذا الروض المعطار نفحاته، يخص إخاءكم العلي، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي وسع العبادة مناً جسيماً، وفضلاً جزيلاً، وألهمهم الرشاد بأن أبدى لهم من آثار قدرته، على مقدار وحدته، برهاناً واضحاً ودليلاً، وألزم أمة الإسلام، حج بيته الحرام، من استطاع إليه سبيلاً، وجعل تعظيم شعائره من تقوى القلوب، ومثابات محط الأوزار والذنوب، فما أجزل نعمته منيلاً، وأجمل رحمة ربه مقيلاً، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى من أفضل العرب فصيلة، في أكمل بقاع الأرض فضيلة وأكرمها جملة وتفصيلاً، المجتبى لختم الرسالة، وحسم أدواء الضلالة، فأحسب الله به النبوة تتميماً والرسالة تكميلاً، المخصوص بالحوض المورود، والمقام المحمود، يوم يقول الظالم: " يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً " المبوأ من دار هجرته، ومقر نصرته، ومحلا ما بين بيته ومنبره فيه روضة من رياض الجنة ولم يزل بها نزيلاً، والرضا عن آله الأبرار، وأصحابه الأخيار الذين فضلتهم سابقة السعادة تفضيلاً، وأهلتهم العناية بأمر الدين إلى أن يوسعوا الأحكام برهاناً ودليلاً، فإنا نحيط علم الإخاء الأعز ما كان من عزم مولاتنا الوالدة قدس الله روحها، ونور ضريحها، على أداء فريضة الحج الواجبة، وتوفية مناسكه اللازبة، فأعترض الحمام، دون ذلك المرام، وعاق

القدر، عن بلوغ ذلك الوطر، فطوي كتابها، وعجل إلى مقر الرحمة بفضل الله مآبها، وعلى الله أجرها، وعنده يحتسب ذخرها، وإن لدينا من نوجب إعظامها، ونقيمها بحكم البر مقامها، وعزمها إلى ما أملته مصروف، وأملها إلى ما كانت أمته موقوف، وهي محل والدتنا المكرمة المبرورة الأثيرة، الموقرة، المبجلة، المفضلة، المعززة، المعززة، المعظمة، المطهرة، أسنى الله مكانتها، وسنى من هذا القصد الشريف لبانتها، وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام، والفوز من السلام، على ضريح الرسالة، ومثابة الجلالة، بنيل السول والمرام، لتظفر بأملها المرغوب وتنفر بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب.

وحين شخص لذلكم الغرض الكريم، موكبها، وخلص إلى قصد الحرم العظيم، مذهبها، والكرامة تلحفها، والسلامة إن شاء الله تكنفها أصحبناها من حور دولتنا وأحظيائها، ووجه دعوتنا العلية وأوليائها، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر، والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصدر، من أعيان بني مرين أعزهم الله تعالى والعرب، وأولاد المشايخ أولي الديانة والتقوى المالئين دلاء القرب، إلى عقد الكرب، وكل من له أثرة مشهورة، وشهرة بالمزايا الراجحة والسجايا الصالحة مأثورة، وقصدهم من أداء فريضة الحج قصدها، ووردهم إن شاء الله تعالى من منهل بركاته الجمة وردها، وهكذا سيرنا من تحف هذا البلاد إليكم ما تيسر في الوقت تسييره، وإن تعذر في كثير مما قصدناه ولهذا الغرض أردناه تيسيره، لطول المغيب عن الحضرة، والشغل بتمهيد البلاد التي فتحها الله علينا في هذه السفرة، وعينا لإيرادها لديكم، وإيفادها عليكم، أبا إسحاق ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن عثمان السويدي، وأمير الركب الحسن بن عمران وغيرهم، كتب الله سلامتهم، ويمن ظعنهم وإقامتهم. ومقام ذلك الإخاء الكريم، يسني لهم من اليسرى والتسهيل القصد والسول، ويأمر نواب ما له من الممالك، وقوم ما بها من المسالك، لتكمل العناية بهم في الممر والقفول. ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا، وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا، إلى مسجد سيدنا ومولانا، وعصمة ديننا ودنيانا، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيبة زادها

الله تشريفاً، وأبقى على الأيام فخرها منيفاً، رغبة في الثواب وحرصاً على الفوز بحظ من أجر التلاوة فيه يوم المآب.

وقد عينا بيد محل الوالدة المذكورة فيه، كرم الله جبهتها، ويمن وجهتها، من المال ما يشترى به في تلكم البلاد المحوطة، من المستغلات ما يكون وقفاً على القرأة فيه، مؤبداً عليهم وعلى غيرهم، من المالكية فوائده ومجانيه. والإخاء الكريم يتلقى من الرسل المذكورين ما إليهم في هذه الأغراض ألقيناه ويأمر بإحضارهم لأدائهم بالمشافهة ما لديهم أوعيناه، ويوعز بإعانتهم على هذا الغرض المطلوب، وييسر لهم أسباب التوصل إلى الأمل والمرغوب، وشأنه العون على الأعمال الصالحة ولا سيما ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السبل الواضحة، وشكر بادراتكم موطد الأساس، مطرد القياس، متجدد مع اللحظات والأنفاس، والله يصل للإخاء العلي نضرة أيامه، ويوالي نصرة أعلامه، ويبقي الثغور القصية، والسبل السرية، منوطة بنقصه وإبرامه، محوطة بمعاضدة أسيافه وأقلامه، والسلام الكريم العميم، يخص إخاءكم الأعز، ورحمة الله وبركاته، وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة.
وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المريني، في العشر الأوسط من شعبان سنة أربع وثمانمائة، وهو: من عبد الله ووليه عثمان أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، سلطان الإسلام والمسلمين، ناشر بساط العدل في العالمين، المقتدي بآثار آبائه الكرام، المتقفي سننهم الحميدة في نصرة الإسلام، المعمل نفسه العزيزة في التهمم بما قلده الله من أمور عباده، وحياطة ثغوره وبلاده، سيف الله المسلول على أعدائه، المنتشر عدله على أقطار المعمور وأنحائه، ظل الله تعالى في أرضه، القائم بسنته وفرضه، عماد الدنيا والدين، علم الأئمة المهتدين، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة الإمام، ملك الملوك الأعلام، فاتح البلدان والأقطار، ممهد الأقاليم والأمصار، جامع أشتات المحامد، ملجأ الصادر والوارد، الملك الجواد، الذي حلت محبته في الصدور محل الأرواح في الأجساد، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي العباس ابن

مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سالم ابن مولانا أمير المسلمين في سبيل رب العالمين أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وصل الله تعالى أسباب تأييده وعضده، وقضى باتصال عرف تجديد سعده، وأناله من جميل صنعه ما يتكفل بتيسير أمره وبلوغ قصده.

إلى محلنا أخينا الذي نؤثر حق إخائه الكريم، ونثني على سلطانه السعيد ثناء الولي الحميم، ونشكر ماله فينا من الحب السليم، والود الثابت المقيم، السلطان الجليل، الماجد الأصيل، الأعز الخطير المثيل، الشهير الأمجد الأرفع، الهمام الأمنع، السري الأرضى، المجاهد الأمضى، الأوحد الأسنى، المكين الأحمى، خديم الحرمين الشريفين، حائز الفخرين المنيفين، ناصر الدنيا والدين، محيي العدل في العالمين، الأجد الأود، المكين، الأخلص، الأفضل، الأكمل، أبي السعادات فرج، ابن السلطان الجليل، العز المثيل، الخطير الأصيل، الأرفع، الأمجد، الشهير، الهمام، الأوحد، الأسمى، الأسرى، الأرضى، المجاهد، الأمضى، خديم الحرمين الشريفين، حائز الفخرين المنيفين، الأفضل، الأكمل المبرور، المقدم المرحوم، أبي سعيد برقوق بن أنص، وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جداً لا يعجم عوده، وعزاً لا يميل عموده، ونصراً يملأ قطره بما يغص به حسوده، وعضداً يأخذ بزمام أمله السني فيسوقه ويقوده.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه، وترادف لطفه وآلائه، الذي عرفناه من ولائكم الكريم ما سرنا من اطراد اعتنائه، وأبهج النفوس والأسماع من صفاء ولائه، والصلاة والسلام الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله وأنبيائه، ومبلغ رسالاته وأنبائه، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود، فأكرم بمقامه وحوضه وولائه، والرضا عن آله صحبه وأوليائه، الذين هم للدين بدور اهتدائه ونجوم إقتدائه، وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه واعتلائه،

واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه، وحياطة أنحائه وأرجائه، وتأييد عزماته وآرائه.

فإنا كتبنا إليكم كتاب الله لكم سعداً سافراً، وعزماً ظاهراً، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء كلأها الله تعالى وحرسها، ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال، وولاؤه جل جلاله سابغ الأذيال، وخلافتكم التي نرعى بعين البر جوانبها، ونقتفي من كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها، وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى عضدكم، وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع، ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تتحدث به السمار فتوعيه جميع الأسماع، وقد كان انتهى إلينا حركة عدو الله وعدو الإسلام، الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام، الآخذ فيهم بالعيث والفساد الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد، وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية، والحمد لله الذي كفى بفضله شره، ودفع نقمته وضره، وانصرف ناكصاً على عقبه، خائباً في نيل أربه، كذلك كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه، وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجده في أخراه ظله يسعى بين يديه عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضا، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة ويرتضى، فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال، وأذهب عنهم الأوجال، ويسر لهم الأعمال، وهيأ لخلافتكم السنية وللمسلمين هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين.
ويحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بنيانه، والحب الذي أوضح الإخلاص برهانه، وقع تخيرنا فمن يتوجه من بابنا الكريم، لتفصيل مجمله، وتقرير ما لدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله، على الشيخ، الأجل، الشريف، المبارك، الأصيل الأسنى، الحظي، الأعز، الحاج، المبرور، الأمين، الأحفل، الأفضل، الأكمل، أبي عبد الله محمد، ابن الشيخ الأجل، العز، الأسنى، الأوجه، الأنوه، الأرفع، الأمجد، الآثر، الأزهى الشريف، الأصيل، المعظم، المثيل،

الأشهر، الأخطر، الأمثل، الأجمل، الأفضل، الأكمل، المرضي، المقدس، المرحوم أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسني العراقي، وصل الله تعالى سعادته، وأحمل على حضرتكم السنية وفادته، حسب ما يفي بشرح ما حملنا نقله، ويكمل بإيضاحه، لديكم يقظته ونبله، إن شاء الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى يديم سعادتكم، ويحفظ مجادتكم، ويسني من كل خير إرادتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجملة الرابعة في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس

والرسم في ذلك أن يكتب الأبواب الشريفة ويصفها، ثم يقول: أبواب السلطان الفلاني ويصفه، ويذكر ألقابه ثم يدعو له، ثم يقول سلام كريم ويصفه، من فلان، ويذكر السلطان المكتوب عنه، ثم يقول: أما بعد حمد الله، ويأتي بخطبة في المعنى تشتمل على التحميد، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم، والرضا عن الصحابة رضي الله عنهم، ثم يقول: إنا كتبنا إليكم، ويأتي على ما يناسب المقام، ثم ينخرط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.
وهذه نسخة كتاب كتب عن أمير المسلمين السلطان عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر، صاحب غرناطة، من الأندلس، إلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة الفرنج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور. وهي:

الأبواب الشريفة التي تعنو لعزة قدرها الأبواب، وتعتزي إلى نسب عدلها الحكمة والصواب، وتناديها الأقطار البعيدة مفتخرة بولائها، واصلة السبب بعلائها، فيصدر بما تشفي الجوى منها الجواب. فإذا حسن مناب عن أئمة الهدى، وسباق

المدى، كان منها عن عمومة النبوة النواب، وإذا ضفت على العفاة بغيرها أثواب الصلات، ضفت منها على الكعبة المقدسة الأثواب، أبواب السلطان الكبير، الجليل الشهير، الطاهر الظاهر، الأوحد الأسعد، الأصعد الأمجد، الأعلى العادل، العالم العامل، الكامل الفاضل، الكافل، سلطان الإسلام والمسلمين، رافع ظلال العدل على العالمين، جمال الإسلام علم الأعلام، فخر الليالي والأيام، ملك البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمل الأمصار الأقطار، وعاصب تاج الفخار، هازم الفرنج والترك والتتار، الملك المنصور أبي الفتوح شعبان ابن الأمير الرفيع المجادة، الكريم النبوة والولادة. الطاهر الظاهر، الكبير الشهير، المعظم الممجد الأسمى، الموقر الأعلى، فخر الملة، سيف الأمة، تاج الإمارة، عز الإسلام، جمال الأيام، قمر الميادين، أسد أجمة لدين، سمام الطغاة والمعتدين، المقدس المظفر، الأمير أبي علي حسين، ابن السلطان الكبير، الشهير، ملك الإسلام والمسلمين، والد السلاطين، سيف خلافة الله في العالمين، ولي أمير المؤمنين، وظهير الدين، سلطان الحج والجهاد، وكاسي الحرم الأمين، قامع المعتدين، قاهر الخوارج والمتمردين، ناصر السنة، محيي الملة، ملك البرين والبحرين، مقيم رسوم الحرمين الشريفين، العادل، العالم، العامل، الطاهر الظاهر، الأسعد، الأصعد الأوحد، الأعلى المنصور، المؤيد المعان، المرفع المعظم، المبجل المؤمل، المجاهد المرابط، الغازي، أبي عبد الله محمد قلاوون، الصالحي أبقاه الله، وفلق الصبح يشهد بكماله، وخدمة الحرمين الشريفين، طراز مذهب على حلة أعماله، ومسورات الإسلام، آمنة على طول الأيام، من إهماله، ولا زال ركناً للدين الحنيف، تتزاحم على مستلمه الشريف، شفاه أماله.

سلام كريم بريم عميم، كما استودعت الرياض أسرارها صدر النسيم، وأرسلت مطالع الفجر أنهارها، من بحر الصباح الوسيم، يسري من الطيب، والحمد المطيل المطيب، في الصوان الكرم، ويقف موقف الأدب والفهامة، بما استحفظ من الأمانة إلى محل الإمامة، وقوف الحفيظ العليم، يعتمد مشارع تلك الأبواب الشارعة إلى الفضل العميم، المقابلة لذمام وسائل الإسلام بالصدر المشروح، والبر الممنوح، والقلب السليم. من معظم سلطانه، ومجل شأنه، المفتخر بالانتظام في سلك

خلصانه، أمير المسلمين بالأندلس، عبد الله الغني بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر، بلغه الله من رضاه أقصى سؤله، وأعانه على جهاد عدو الله وعدو رسوله.

أما بعد حمد الله جاعل قلادة الإسلام، على الدوام، آمنة من الانخرام، والانتثار، مفصلة النظام، بخرز المآثر العظام، والآثار، معرف أهلها، في حزن البسيطة وسهلها عوارف الصنع المثار، وإقالة العثار، القوي العزيز، الذي لا يغلب قدره بالاحتشاد والاستكثار، ولا يبدل غيبه المحجوب، بعد ما عين حكمه الوجوب، في خزائن الاستئثار، حتى تظهر خبيئة عنايته بأوليائه، المعترفين بآلائه، بادية للأبصار، فيما قرب وبعد من الأعصار، ورحمته عند الاستغاثة به والانتصار، في مختلف الأقطار والأمصار، الولي الذي لا تكدر هبات فضله شروط الاعتصار، ولا تشين خطب حمده ضرائر الاقتصار والاختصار.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله، نخبة الأكوان، وسر الدهور والأزمان، وفائدة الأدوار، نور الله المتميز باختصاصه، واستصفائه واستخلاصه، قبل خلق الظلمات والأنوار، ورحمته الوارفة الشاملة، الهامية الهاملة، على الهضاب والوهاد والنجاد والأغوار، أقرب عوالم الشهادة والخلق، إلى حضرة الحق، على تعدد الرتب وتفاضل الأطوار، منقذ الناس من البوار، ومبوئهم من جوار الله خير الجوار، نبي الرحمة والجهاد والغوار المنصور على الأحزاب عندما استداروا بمثوى نبوته على الأطم والأسوار دور السوار، الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فمهما أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار.

والرضا عن آله وأصحابه حماة الذمار، ومقتحمي الغمار، وباذلي كرائم الأموال من دونه ونفائس الأعمار، القائمين على سماء ملته للاهتداء بسننهم، والاقتداء بسننهم، مقام النجوم الهادية والأقمار، ما صقلت مداوس النسيم سيوف الأنهار، وخجل الورد من تبسم البهار، وغازلت عيون زهر المجرة عيون الأزهار، وطرد أدهم الليل أشهب النهار.

والدعاء لتلك الأبواب، المتعددة الحجاب، المعودة باجتلاء غرر الفتوح، والمطالع

المشيدة المصانع على العز الممنوح، والأواوين، المؤيدة الدواوين، بالملائكة والروح، بإعلاء المظاهر والصروح، وإنارة الله تعالى بأهلة تلك السروج ساحات تلك السروح، ولا زالت أقلام بشائرها تأتي على سورة الفتح بأكمل الشروح.
فإنا كتبناه لمثابتكم السلطانية دار العز الأحمى والملك الأشرف الأسمى والصيت البعيد المرمى، كتب الله لها من عنايته وقد فعل أوفر مقاسم النعمى، وجعل غيث نوالها الأهمى، وحظ جلالها من الله الأنمى، ودامت كواكب سعودها تمزق جلابيب الظلما، وأخبار بأسها وجودها، وسعادة وجودها، تهديها على البعد ركائب الدأما، وترفرف برياح ارتياحها أجنحة بنات إلما. من منزلنا المحبور، بسعادة سلطانكم المنصور، وخزي عدوه المدحور، بحمراء غرناطة، دار ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس، وإلى الله عنها الدفاع، وأنار بمشكاة نوره، الذي وعد بإتمامه الأعلام منها والأيفاع، ووصل لها بشرف مخاطبتكم الارتفاع والانتفاع، حتى تشفع بتهانيكم الأوتار وتوتر الأشفاع، وآلاء الله لدينا، بنعمة دين الإسلام علينا، قد أخجلت اللسان الشكور، وإن استنفدت الرواح والبكور، والثقة بالله في هذا الثغر الغريب قد كثرت العدد المنزور، والحق الصريح قد كافح الزور، والتوطين على الشهادة قد شرح الصدور، واقتطع في الجنة المنازل والدور، والمعرفة بمقام تلك الأبواب الشريفة عقيدة لا تبدل، وأدواح علائها حمائم الحمد بها تتهدل، ومحافل ثنائها تتراكم في سمائها الألوة والمندل والحال ما علمتم: بحر زاجر الأمواج وعدو وافر الأفواج، وحرم لولا اتقاء الله مقتحم السياج، وجياد ضمرتها مصابرة الهياج، وداء على الأيام متوقع الاهتياج، وعدد إلى الإصراخ والإنجاد عظيم الاحتجاج فالنفوس إلى الله تجهز وتسلم، والصبيان في المكاتب تدرب على مواقف الشهادة وتعلم، والألسنة بغير شعار الإسلام لا تنبس غالباً ولا تتكلم، إلا أن عادة الخبير اللطيف، تخفيف الذعر المطيف، ونصر النزر الضعيف، على عدد التضعيف، والحال تجزى بين الحرب والسلم، والمكالمة والكلم، وتأميل الجبر، وارتقاب عاقبة حماة الدبر.

وإلى هذا فإننا اتصل بنا ما رامت الروم من مكيدة التي كان دفاع الله من دونها سداً، والملائكة جنداً ، والعصمة سوراً، والروح الأمين مدداً منصوراً، وأنها استنفدت الوسع في احتشادها، حتى ضاقت اللجج عن أعوادها، وبلغت المجهود في استنفادها، حتى غص الكافر البحر بكفارها، يصيح بهم التأليب، ويذمرهم الصليب، وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الإسكندرية شجا صدورهم، ومرمى آمال غرورهم، ومحوم قديمهم، ومتعلل غريمتهم، ليهتموا ثغر الإسلام بصدمتها، ويقودوا جنائب الساحل في رمتها، ويرفعوا عن دينهم المعرة، ويتلقفوا في القدس كرة الكرة، ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام، ويشيموا سيوف التغلب على الشام، ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم، وحجهم ومزارهم، وبيت ربهم، الذي يقصدونه من كل فج عميق، ويركبون إليه نهج كل طريق، وقبر نبيهم الذي يطفئون بزيارته من الشوق كل حريق، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء وشهيق، وشوق بذلك الحبيب خليق، ويقطعوا حبل المسلمين حتى لا يتأتى بلوغ فريق ولا غرض تشريق، والله من ورائهم محيط، وبدمائهم مشيط، وبعباده بصير، ولدنيه الحق ولي ونصير، " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " فما هو إلا أن صمأ جرادهم، وخلص إليهم مرادهم، وفاض عليها بحرهم، وعظم من المحاولة أمرهم، حتى اشترك الشرك بعض أسوارها، ونال النهب مستطرف ديارها، وظنت أنها الوهية التي لا ترفع، والمصيبة التي غلتها لا تنفع، واشتعل الباس، وذعر الناس، وأرى الشدة من تدارك بالفرج، وأعاد إلى السعة من الحرج، وأنشأ ريح النصر عاطرة الأرج، ونصر حزب الإسلام من لا غالب لمن ينصره، وحصر العدو من كان يحصره، وظهر الحق على الباطل، والحالي بزينة الله على العاطل، فخرج العدو الخاسر عما حازه والسيوف ترهقه حيث تلفه، والسهام تثبته وتنفيه، وغرماء كرة الإسلام تستقضي منه دينها وتستوفيه، والخزي قد جلل سباله الصهب، وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشهب، والغلب قد أخضع رقابه الغلب، فكم من غريق أردته دروعه، لما حشي بالورع روعه، وطعين نظمت بالسمهري ضلوعه، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين، " كم من فئةٍ قليلة غلبت

فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " . فأي رحمةٍ منشورةٍ ضفت على الإسلام ظلالها، وخطة نعمةٍ اتسع نطاقها ورحب مجالها، ومجلى صنيعةٍ راق عيون المؤمنين جمالها، فاهتزت بها الأرض وربت، وبشكر الله جل جلاله أعربت، واستبشرت النفوس، وذهب البوس، وضفا بمنة الله اللبوس، وظهرت عناية الله بمقامكم، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة الحرمين، وإنها للوسيلة الكبرى، والذريعة إلى سعادة الدنيا والأخرى، وهي عهدة الله التي يصونها من كل اهتضام، وقلادته التي ما كان يتركها بغير نظام. وكان من لطائف هذا الفتح الذي أجزل البشرى، وأوسع أعلام الإسلام نشراً، وروده بعد أن شفيت العلة، ونصرت الملة، وبعد أن جفا الدهر وتجافى، وعادى ثم صافى، وهجر ووافى، وأمرض ثم عافى، فلو ورد مقدمه قبل تاليه، ونقده متأخراً عن كاليه، أو كانت أواخره بعيداً ما بينهما ومن أواليه، لأوحشت الظنون وساءت، وبلغت الهموم من النفوس ما شاءت، فإن الإسلام كالجسد يتداعى كله لتألم بعضه، ويتساهم إخوانه في بسطه وقبضه، وسماؤه مرتبطة بأرضه، ونفله متعلق بفرضه، فالحمد لله الذي خفف الأثقال وألهم حال الضر الانتقال، وسوغ في الشكر المقال، وزار وأقال، وجمع بين إيقاظ القلوب، وإنالة المطلوب، وإن وجد العدو طعم الإسلام مراً فما ذاقه، وعوداً صلباً فما أطاقه، ورفع عن طريق بيت الله ما عاقه، وقاد إليكم من بيوتكم فضل الجهاد وساقه، ورد المكر السيىء على العدو وأحاقه، فما كانت هذه المكيدة إلا داهية للكفر طارقة، ونكثة لعصب التثليث عارقة، ومعجزة من آثار النبي الشريف لهذا الدين المنيف خارقة، واستأصلت للعدو المال، وقطعت الآمال، وأوهنت اليمين والشمال، فبادرنا عند تعرف الخبر، المختال من أثواب المسرة في أبهى الحبر، المهدي أعظم العبر، إلى تهنئتكم تطير بنا أجنحة الارتياح، مبارية للرياح، وتستفزنا دواعي الأفراح، بحسب الود الصراح، وكيف لا يسير اليسار بيمينه، والوجه بجانبه، والمسلم بدينه، وخاطبناكم مهنئين ولولا العوائق

التي لا تبرح، والموانع التي وضحت حتى لا تشرح، ومكايدة هذا العدو الذي يأسو به الدهر ويجرح، لم نجتز بإعلام القلم، عن إعمال القدم، حتى نتشرف بالورود على المثابة الشريفة، ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفة، فيقضى الفرض تحت رعيها، وبركة سعيها، لكن المرء جنيب أمله، ونية المؤمن أبلغ من عمله، فهنيئاً بما خولكم الله من ظفر شهدت برضى الله مراسمه، وافترت عن الثغور العناية الربانية مباسمه، وتوفرت لديكم مواهبه ومقاسمه، ويهنئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه، وسلامة مجنه، ويهنئ الإسلام عصمة ثغره المؤشر، وطهارة كتابه المنشر، وجمال عنوانه، وقفل صوانه، وباب إيوانه، مرفأ الفسطاط، ومركز لواء الرباط، ومحط رحال الاغتباط، ومتخير الإسكندر عند البناء والاختطاط، ومما زادنا بجحاً بهذا الفتح، وسروراً زائداً بهذا المنح، ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، وتجلب عليه براً وبحراً عبدة الأصنام، بحيث البر موصول، والكفر بكثرة العدد يصول، ونيران الجوار مترائية للعيان، والفراسخ القليلة، متوسطة بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا ينسب، والصريح إلا من عند الله لا يحسب، فتنجدنا بالدعاء ألسنة فضلائه، وتسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويعرفنا بركة أنبيائه، وينصرنا في أرضه بملائكة سمائه.
لا تبرح، والموانع التي وضحت حتى لا تشرح، ومكايدة هذا العدو الذي يأسو به الدهر ويجرح، لم نجتز بإعلام القلم، عن إعمال القدم، حتى نتشرف بالورود على المثابة الشريفة، ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفة، فيقضى الفرض تحت رعيها، وبركة سعيها، لكن المرء جنيب أمله، ونية المؤمن أبلغ من عمله، فهنيئاً بما خولكم الله من ظفر شهدت برضى الله مراسمه، وافترت عن الثغور العناية الربانية مباسمه، وتوفرت لديكم مواهبه ومقاسمه، ويهنئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه، وسلامة مجنه، ويهنئ الإسلام عصمة ثغره المؤشر، وطهارة كتابه المنشر، وجمال عنوانه، وقفل صوانه، وباب إيوانه، مرفأ الفسطاط، ومركز لواء الرباط، ومحط رحال الاغتباط، ومتخير الإسكندر عند البناء والاختطاط، ومما زادنا بجحاً بهذا الفتح، وسروراً زائداً بهذا المنح، ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا

القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، وتجلب عليه براً وبحراً عبدة الأصنام، بحيث البر موصول، والكفر بكثرة العدد يصول، ونيران الجوار مترائية للعيان، والفراسخ القليلة، متوسطة بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا ينسب، والصريح إلا من عند الله لا يحسب، فتتجدنا بالدعاء ألسنة فضلائه، وتسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويعرفنا بركة أنبيائه، وينصرنا في أرضه بملائكة سمائه.

وقد كان اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذي ملأ اليد استكثاراً، والخلد اعتداداً واستظهاراً، والهمم فخاراً، وأضاء القطر أنواراً، جوابكم الكريم يشم من نفحاته شذا الإذخر والجليل، وتلتمس من خلال حافاته بركات الخليل، وتقرى الوجوه به آثار المعاهد، وتلتمح من ثنايا وفادته بوارق الفوائد، فأكرم به من وافد مخطوب، وزائر مرقوب، صدعنا به في حفل الجهاد انتحاء وافتخاراً، ثم صناه في كرائم الخزائن اقتناء للخلف وادخاراً، وجعلنا قراه شكراً معطاراً، وثناء يبقى في الخافقين مطاراً، ودعاء يعلي الله به لمقامكم السني في أوليائه مقداراً، ويجهز به لملككم كما فعل أنصاراً، ويثيبكم الجنة التي لا يرضى السعداء بغيرها قراراً، والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مداراً، ويقيم الشكر ألزم الوظائف لحقكم ابتداراً، والثناء أولى ما تحلى به مجدكم شعاراً، ويبقيكم للإسلام ركناً شديداً، وظلاً مديداً، وسماء مدراراً، ما استأنفت البدور إبداراً، وعاقب الليل نهاراً، والسلام.

المقصد الثالث في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول في المكاتبات إلى صاحب مالي

وهو المستولي على التكرور وغانة وغيرهما، وهي أعظم ممالك السودان المسلمين مملكة، ولم أقف لأحد منهم على صورة مكاتبة إلى الأبواب السلطانية، إلا أن المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه مسالك الأبصار عند الكلام على هذه المملكة تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو منسى موسى، وذكر أنه ورد منه كتاب يمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته.

الطرف الثاني في المكاتبة الصادرة عن صاحب البرنو

ورسم مكاتبته أن يكتب في ورق مربع بخط كخط المغاربة، فإن فضل من المكاتبة شيء كتب بظاهرها، وتفتتح المكاتبة بخطبة مفتتحة بالحمد، ثم يتخلص إلى المقصد ببعدية، ويأتي على المقصد إلى آخره، ورأيته قد ختم مكاتبته إلى الأبواب السلطانية بقوله: والسلام على من اتبع الهدى. وكأن ذلك جهل من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء، إذ لا يهتدون إلى حقائقها.

وهذه نسخة كتاب ورد علىالملك الظاهر أبي سعيد برقوق ووصل في شهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة، صحبة ابن عمه، مع هدية بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكر فيه من أمر عرب جذام المجاورة لهم، وهي في ورق مربع، السطر إلى جانب السطر، بخط مغربي، وليس له هامش في أعلاه ولا جانبه، وتتمة الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأباعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات. وصلوات الله على نبينا المصطفى، ورسولنا المرتضى، الذي أغلق الله به باب النبوة وختم، وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ما ناحت الورق وما عاقب الشروق الأصيل. ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.

من المتوكل على الله تعالى، الملك، الأجل، سيف الإسلام، وربيع الأيتام، الملك المقدام، القائم بأمر الرحمن، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان، ودهر وزمان، الملك، العادل، الزاهد، التقي، النقي، الأنجد، الأمجد، الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام أبي عمرو عثمان الملك، ابن إدريس، الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا بملكه هذا اللفظ وارد على لسان كاتبنا لآلنا ولا فخر، إلى ملك مصر الجليل، أرض الله المباركة أم الدنيا.

سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من الماء الغمام واليم، زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم، أجمعين.

وبعد ذاك، فإنا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو ابن عمي، اسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يسمون جذاماً وغيرهم قد سبوا أحرارنا، من النساء والصبيان، وضعفاء الرجال، وقرابتنا، وغيرهم من المسلمين، ومنهم من يشركون بالله، يمارقون للدين، فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً، لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا ملكنا، عمرو بن إدريس الشهيد، وهو أخونا ابن أبينا إدريس الحاج ابن إبراهيم الحاج، ونحن بنو سيف بن ذي يزن، والد قبيلتنا، العربي القريشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن، وسبوا أحرارنا وقرابتنا، من المسلمين، ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم، ويختدمون ببعضهم، فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان، فإنهم قد اتخذوا متجراً، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم، ووزرائكم، وقضاتكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويبحثون ويكشفون، فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم، وليبتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسلمون، فصدقوهم ولا تكذبوهم، فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم، وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصلحون، فإنهم

الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزينون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تخذلوهم يسترقوا ويباعوا، قال الله تعالى: " المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " . وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام: " فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم " . وقال الله تعالى: " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " . وكان عليه السلام يقول: " السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم " وقال: " المؤمنون كالبيان يشد بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة " . وقال: " المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه " إلى آخره. وفي الحكمة: ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض أراد به السلاطين وعلى من تصل يده إلى ذلك أراد بذلك القضاء والحكام والأمراء فإن لم يقدر فبلسانه، أراد بذلك الفقهاء والعلماء وإن لم يقدر فبقلبه، أراد بذلك عامة المسلمين أطال الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم، قال الله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " ، وقال عليه السلام: " كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته " . وقال في الحكمة لولا السلطان لأكل بعضهم بعضاً. وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام: " يا داود، إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " . والسلام على من اتبع الهدى. ولم يؤرخ.

الطرف الثالث في المكاتبات الصادرة عن ملك الكانم

ولم أقف له على المكاتبة إلا أنه يشبه أن تكون المكاتبة عنه نظير المكاتبة عن صاحب البرنو فإنه على قرب من مملكته والله أعلم.

المقصد الرابع في الكتب الواردة من الجانب الشمالي وهي بلاد الروم

قد تقدم ذكر المكاتبة إلى أمرائها وأن كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وانقادوا إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برسا.

النوع الثاني من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار وهي أربعة أضراب

الضرب الأول
الكتب الواردة عن ملوك الكرج
الضرب الثاني
الكتب الواردة عن ملوك الحبشة
والعادة فيها أن ترد في قطع باللسان ولم أظفر بصورة مكاتبة في هذا المعنى إلا مكاتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس ضمن كتاب إلى صاحب اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات وهو:

أقل المماليك يقبل الأرض، وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلد الله ملكه، أن رسولاً وصل إلي من والي قوص، بسبب الراهب الذي جاءنا فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطراناً يكون رجلاً جيداً عالماً، ولا يجني ذهباً ولا فضة، ويرسله إلى مدينة عوان. وأقل الممالك يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر، صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى نواب مولانا السلطان، وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى ما بين يدي مولانا السلطان، إلا أنني في سكار؟ والملك داود قد توفي، وقد ملك موضعه ولده، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين، وأما النصارى فكثير لا يحصون، والكل غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين، وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل

المماليك، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون، وأما الرسول الذي سفروه فهو مريض، وبلادنا وخمة، أي من مرض لا يقدر أحد أن يدخل إليه، وأي من شم رائحته فيمرض فيموت، ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين، فسيروا مطراناً يحفظهم.

قلت: وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة، وأنه لولا اضطراره إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يشمخ بنفسه عن المكاتبة، ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم.

الضرب الثالث

الكتب الواردة عن ملوك الروم

ورأس الكل صاحب القسطنطينية

وقد وقفت على كتاب ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربعة عشر وثمانمائة في درج ورق فرنجي في نحو عشرين وصلاً قطع النصف، والبياض في أعلاه وصل واحد، وفي أسفله وصلان، وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره، كل منها تقدير إصبعين، ومقدار ما بين السطور متفاوت، فأعلاه بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة، ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كل سطرين ثلاثة أصابع، ثم بعد ذلك ين كل سطرين قدر إصبعين، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية الدقة بقلم الرقاع الدقيق، وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتاب معربة بترجمة بطرك الملكانية بحضور سيف الدين سيف الترجمان، وهي: المعظم، الممجد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر فرج ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر برقوق المحبوب إلي العزيز أكثر من أولاد مملكتي.

يحيط علمه أنني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون إن شاء الله تعالى سلطنتك الممجدة طيبة في خير، وأن المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم

وبين والدي إلى آخر وقتٍ، ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت، وتتوكد أيضاً المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد، فإن ذلك واجب، وتتردد رسلكم بكتبكم إلينا، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم، وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولاً لكن الفتن في بلادنا، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تخت مملكته، ولم نعرف إلى أي مكانٍ توجه، أوجب تأخير ذلك، وأن حامل هذا الكتاب المتوجه به السلطان المعظم المسمى سورمش التاجر من اسطنبول هو من جهتنا، وله عادة بالتردد إلى مملكتكم المعظمة ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي، فجهزنا لكم صحبة المذكور خمس كواهي وبازدار، ليكون نظركم الشريف عليهم، وكذلك على البطاركة والنصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان ومحبته، والوصية بهم، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جاري عوائدهم، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولاً وآخراً لأجل محبتكم لنا ومحبتنا، واستمرار العناية بهم، مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم، والإحسان إليهم، ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته، ونضاعف شكرنا من إحسانكم على ذلك، وتكونوا إن شاء الله طيبين، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع فيرسم بها ونبادر بذلك.

والذي بآخره بالحمرة علامة الملك مضمونها مانويك المسيحي بنعمة الله، ضابط مملكة الروم البلالوغس.

الضرب الرابع

الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس

والجهات الشمالية وما والى ذلك

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجي، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب في فرخة ورق فرنجي مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدي أو دونها، بأسطر متقاربة، باللسان الفرنجي وقلمه، ثم يطوى طياً مسطحاً ويعنون في وسطه، ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهراً من الطي، ثم يخرز

ويختم بسحاءة، ويختم عليه بطمغة في شمع أحمر على نحو ما تقدم في الكتب الواردة من ملوك الغرب، فإذا ورد على الأبواب السلطانية فك ختمه، وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه في ورقة منفردة وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره في مقدمة الكتاب.

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقي في السادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر، وسيف الدين سودون، التراجمة بالأبواب الشريفة، فيفرخة ورق فرنجي مربعة متقاربة السطور. وهو: السلطان المعظم، ملك الملوك فرج الله ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه.

يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة، ويسأل الله أن يزيد عظمته، لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها، وينهي ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم يزل أكابر التجار والمحتشمين والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده، وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا بالمحبة.

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العنز في ثغر دمياط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس، وزنجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهدلة بين جنوسهم والضرر والقهر الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك، لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في جميع مملكتنا بكثرة عدله، وبمحبته لطائفتنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع نوابنا: إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان، ويراعونه ويحسنون إليه، والمسؤول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما تشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته. وهذه نسخة

كتاب وارد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر وسيق الدين سودون الترجمانين بالأبواب الشريفة، وهو: الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله شأنه.

يقبل الأرض بين أياديه الكبطان والمستشارون، وينهون أنهم آناء الليل داعون بطول بقائه، مجتهدون في استمرار الصلح والمودة التي لا يشوبها كدر بين القومون؟ وبين مولانا السلطان، وأن في هذا الوقت ثم حرامية غراب يتحرمون بأطراف هذه البلاد، والمين الإسلامية، ونحن لم نزل نشحطهم بالمراكب والأغربة، ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا، حتى إن أحداً صار لا يجسر على الدخول إلى مينا الماغوصة جملة كافية، مع أننا كنا خلصنا في المدة الماضية من الحرامية المذكورين خمسة وعشرين نفراً من المسلمين، وأكرمناهم وأطلقنا سبيلهم وعزمنا أن نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الإسكندرية.

وأما غير ذلك، فقد بلغنا أن برطلما أوسق للمواقف الشريفة صابوناً في مراكبه، وكان قصد أن يهرب بذلك، فللحال عمرنا مركباً كبيراً، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة، وأحضرناه إلى الماغوصة، وعهدنا بطروق المركب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون وهو رجل مشكور السيرة، وقلنا له أنه يتوجه إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يوسق شيئاً من الأصناف لمولانا السلطان، ويجهزه إلى أي مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه، فليفعل، وهذا القول كله يكون دليلاً عند مولانا السلطان على صدق الولاة والتمسك بالصلح، والمسؤول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته، وكف أسباب الضرر عنهم، وينشر معدلته عليهم، والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه.

الفصل السادس من الباب الثاني في المقالة الرابعة في رسوم المكاتبات الإخوانيات

وهي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان جمع أخ والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء وفيه طرفان:

الطرف الأول في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين

وهي في الغالب لا تخرج عن ضربين

الضرب الأول

أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب عنه

وكان رسمهم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان إلى فلان، سلام عليك، إني أحمد الله الذي لا إله إلا هو فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يزاد هنا في السلطانيات وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله، كما تقدم في موضعه، جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضاً، وكان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا، وأنت، ولي، ولك، وعندي، وعندك، وما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب، وكانت خاتمه الكتب عندهم بالسلام.

الضرب الثاني أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب إليه تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه الافتتاح بتفخيم اسم المكتوب إليه

وكان رسمهم في ذلك أن يفتتحوا المكاتبة بلفظ إلى فلان من فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وباقي الكتاب على ما تقدم في الضرب الأول في الخطاب والختام وغيرهما.

الطرف الثاني في رسوم الإخوانيات المحدثة بعد السلف وفيه ثلاثة مقاصد

المقصد الأول في رسوم إخوانيات أهل المشرق وفيه أربعة مهايع

المهيع الأول في صدور الابتداءآت

وهي على أساليب

الأسلوب الأول: أن تفتتح المكاتبة بالدعاء، وعليه اقتصر أبو جعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب وكان على رأس الثلثمائة في خلافة الراضي، وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات نقلاً عن مواد البيان، أن الأدعية كانت في الزمن الأول تستعمل فيما يتعلق بأمر الدين، مثل قولك: أكرمه الله، وحفظه الله ووفقه، وحاطه، وما أشبه ذلك، فعدل عنها قصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البقاء، وإدامة العز، وإسباغ النعمة، ونحو ذلك مما يتنافس فيه أبناء الدنيا، جرياً على عادة الفرس. ثم رتبوا الدعاء على مراتب، فجعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء، ثم بإطالة العمر ثم بالمد، وكذلك سائر المكاتبات على ما تقدم بيانه هناك.

ثم هو على ستة أضراب:

الضرب الأول: المكاتبة من المرؤوس إلى الرئيس، وهو على صنفين

الصنف الأول: المكاتبة إلى الأمراء. قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتباتهم: أطال الله بقاء الأمير، فإذا أردت أجل ذلك كله، كتبت: أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والسرور والغبطة، وأتم عليه نعمته في علو الدرجة، وشرف من الفضيلة، وتتابع من الفائدة، ووهب له السلامة والعافية في الدنيا

والآخرة، وبلغ بالأمير أفضل ما تجري إليه همته، وتسمو إليه أمنيته، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل، وأجزل له ثواب الآخرة. ثم قال: ومن الدعاء له: أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر، وكرامة دائمة، ونعمة سابغة، وزاد في إحسانه إليه، والفضيلة لديه، ولا أخلى مكانه منه.

قال: ومنه أطال الله بقاء الأمير، وأدام عزه وتأييده، وعلوه وتمكينه، وكبت عدوه.

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل. منها أطال الله بقاء الأمير، ومكن له في البسطة وتزايد النعمة، وزاده من الكرامة والفضيلة، والمواهب الجليلة في أعز عز وأدوم سلامة، وأسبل عافية، ومنها: أطال الله بقاء الأمير، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه، وزاد في إحسانه لديه، وأتم نعمته عليه، ووصل له خير العاجل بجزيل الآجل.

الصنف الثاني: المكاتبة إلى القضاة. وقد قال النحاس: أنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به الأمير، غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي، إلا أن الفضل بن سهل قال: يدعى لقاضي القضاة، أطال الله بقاء القاضي، وأدام عزه وكرامته، ونعمته وسلامته، وأحسن من كل جميل زيادته، وألبسه عفوه وعافيته، وإنه يدعى له أيضاً: أطال الله بقاء القاضي في عز وسعادة، وأدام كرامته، وأحسن زيادته، وأتم نعمته، عليه في أسبغ عافية، وأشمل سلامة. قال: وقال غير الفضل: إن الكفء يكاتب كفأه ومن كان خارجاً من نعمته: أدام الله بقاءك أيها القاضي.

الضرب الثانيالمكاتبة من الرئيس إلى المرؤوس، كالمكاتبة عن الوزير وقاضي القضاة وغيرهما، والخطاب في جميعها بالكاف

قال النحاس: وهي على مراتب، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عزك وأكرمك، وأتم نعمته عليك، وإحسانه إليك وعندك. ودونه: أطال الله بقاءك، وأعزك وأكرمك، وأتم نعمته عليك وعندك. ودونه: أدام الله عزك، وأطال بقاءك، وأدام كرامتك، وأتم نعمته عليك، وأدامها لك. ودونه: أعزك الله ومد في عمرك، وأتم نعمته عليك، وما بعده على توالي الدعاء الذي تقدم. ودونه: أكرمك الله وأبقاك وأتم نعمته عليك، وأدامها لك. ودونه: أن تسقط وأدامها لك. ودونه:

أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك، وأدامها لك. ودونه: أن تسقط وأدامها لك.
ودونه: حفظك الله وأبقاك، وأمتع بك. ودونه: عافانا الله وإياك من السوء.
قال في صناعة الكتاب: هذا إذا جرى الأمر على نسبته ولم تتغير الرسوم، وإلا فقد تعرض أن يكون في الدولة من هو متقدم على الوزير أو مساوى به فتتغير الكتابة، فقد كان عبد الله بن سليمان يعني وزير المعتضد يكاتب أبا الجيش يعني خمارويه بن أحمد بن طولون: أطال الله يا أخي بقاك إلى آخر الصدر، للمصاهرة التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كناه. ثم قال: فإن كان الرئيس غير الوزير، فلربما زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل، فيزيده ويكاتبه بزيادة التأييد ودوام العز. قال: ويدعى للفقهاء: أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته وكفايته وأعلى جدك وصان قدرك، وكان لك ومعك حيث لا تكون لنفسك. أو أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال، وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى، وحباك برشده، وقطع بينك وبين معاصيه، أو طال الله بقاءك بما أطال به بقاء المطيعين، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين. أو أكرمك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وأسعدك بعونه، وأيدك بنصره، وجمع لك خير الدنيا والآخرة برحمته، إنه سميع قريب، أو: تولاك من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم. أو: أكرم الله عن النار وجهك، وزين بالتقوى تجملك. أو: أكرمك الله بكرامة تكون لك في الدنيا عزاً، وفي الآخرة من النار حرزاً.
الضرب الثالث المكاتبة إلى النظراء والمخاطبة فيه بالكاف
قال في الصناعة الكتاب وأعلى ما يكتب في ذلك يعني بالنسبة إلى المكتوب إليه يا سيدي أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر. ودونه: أطال الله يا سيدي بقاءك. ودونه يا سيدي وأخي أطال الله بقاءك. ودونه: أدام الله يا أخي بقاءك.
الضرب الرابع المكاتبة الأبناء والخطاب فيه بالكاف
قال في صناعة الكتاب يكتب الرجل إلى ابنه: بأبي أنت، أو: فداك أبوك. أو: مات قبلك. أو: أسأل الله عز وجل حفظك وحياطتك ورعايتك. أو: أرشدك الله أمرك. أو: أحسن البلاغ بك. أو: بلغ الله بك أفضل الأمل، وأتم السرور بك، وجعلك خلفاً

صالحاً، وبقية زاكية.

الضرب الخامس: المكاتبة إلى الفتيان والخطاب فيه بالكاف

قال النحاس: يدعى لهم: صرف الله السوء عنك، وعن حظي منك، أو: أطال الله بقاء النعمة عليك وعلي فيك، أو: جعلت أنا وطارفي وتالدي فداك. أو: ملاني الله إخاءك، وأدام الله بقاءك. أو: أستودع الله عز وجل ما وهب لي من خلتك، ومنحني من إخوتك، وأعزني به من مودتك. أو: حاط الله حظي منك، وأحسن المدافعة عنك. أو: ببقائك متعت، وفقدك منعت. أو: نفسي تفديك، والله يبقيك، ويقيني الأسواء فيك. أو: ملاني الله النعمة ببقائك، وهنأني ما منحني من إخائك. أو: أبقى الله النعمة لي ببقائها لك، وبلغتها بك. أو: وفر الله حظي منك، كما وفر من المكارم حظك. أو: ملاني الله ببقاك، كما منحني إخاك. أو: دافع الله لي وللمكارم عن حوبائك، وأمتعني ببقائك، وجمع أملي فيك بجمعه المكارم لك. أو: زادك الله من النعم حسب تزايد البر لإخوانك، وبلغ بك أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك.

الضرب السادس المكاتبة إلى النساء

قد ذكر النحاس أنهن يكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبة الرئيس والمرؤوس والنظير، غير انه قد وقع في الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال في مكاتبتهن: وكرامتك ولا أتم نعمته عليك، ولكن أتم نعمته لديك، ولا فضله عندك، ولا سعادتك، ولا فعلت ولا أن تفعلي، ولكن إن رأيت أن تمني بذلك مننت به، وما أشبه ذلك، وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهن لذلك.

قلت: ثم راعى الكتاب في تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف عن نظير خطاب المواجهة إلى المعنى الغيبة، فقالوا: له، وإليه، وعنده، ونحو ذلك وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب في حق المكتوب إليه. على أنه قد تقدم من كلام النحاس إنكار ذلك على من اعتمده محتجاً عليه بأنه أعظم من الله تعالى مع أنه يقال في الدعاء يا الله ونحو ذلك.

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه ذخيرة الكتاب أدعية مرتبة على الغيبة،

وقال: أعلاها أطال الله بقاءه وأدام تمكنه وارتقاءه، ورفعته وسناءه، وكبت عدوه. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيده، وكبت عداه. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام تأييده وحرس حوباءه. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام تأييده ونعماه. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام نعماه. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام عزه. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام توفيقه وتسديده. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام سداده وإرشاده. ودونه: أطال الله بقاه، وأدام حراسته. ودونه: أدام الله تأييده. ودونه وأدام الله توفيقه. ودونه: أدام الله عزه وسناءه. ودونه: أدام الله عزه. ودونه: أدام الله حراسه. ودونه: أدام الله كرامته. ودونه: أبقاه الله. ودونه: حفظه الله. ودونه أعزه الله. ودونه: سلمه الله. ودونه: رعاه الله. ودونه: عافاه الله. وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء: أطال الله بقاء الأمير، أو بقاء القاضي أو بقاء سيدي أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك من كل رتبة بحسبها.

واعلم أن الذاهبين من الكتاب إلى إجراء المخاطبة في المكاتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، كسيدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدي ومولاي، وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويجعلون الإفراد دون ذلك، في الرتبة فيقولون: سيدي أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل، ونحو ذلك. ثم توسعوا في ذلك فجعلوا الدعاء متوسطاً كلام الصدر على القرب من الابتداء، مقدمين بعض كلام الصدر عليه، ومؤخرين بعضه عنه، مثل أن يقال في المكاتبة بشكر: إذا كان الشكر أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان ترجمان النية، ولسان الطوية، وشاهد الإخلاص، وعنوان الاختصاص، وسبباً إلى الزيادة، وطريقاً إلى السعادة وكانت معارفه قد أحاطت بمعادنه واستولت على محاسنه، فألسن آثارها من الصمت أفصح من لسانه، وبيانها مع الجحود أبلغ من بيانه، ونحو ذلك. ثم أحدثوا اصطلاحاً آخر أضافوه إلى الاصطلاح الأول، فقدموا على الدعاء لفظ كتابنا أو لفظ كتابي رتبة دون رتبة، مثل أن كتبوا: كتابنا أطال الله بقاء الأمير، ونحن على أفضل ما وعدنا الله من النظام الأمور وسدادها،

واستقامتها بحضرتنا واطرادها، أو كتابي أطال الله بقاء مولاي الحاجب عن سلامة ينغصها فقدك، وينتقصها فراقك، وما يجري مجرى ذلك. وربما أبدلوا لفظ كتابنا أو كتابي بلفظ كتبت بصيغة الفعل، وربما ابتدءوا بلفظ أنا ونحوه، ثم خرج بهم الاختيار إلى المصطلحات اصطلحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القيم،
فخاطبوا بالحضرة تارة وبالخدمة تارة، وبالمجلس أخرى، فكتبوا كتابي، أطال الله بقاء حضرة سيدنا الوزير، أو سيدنا الأمير، ونحو ذلك، أو أسعد الله الحضرة، أو أسعد الله الخدمة، أو ضاعف الله جلال الخدمة، أو أعز الله أنصار الخدمة، وربما كتبوا: صدرت هذه الخدمة إلى فلان. وقد يكتبون: صدرت هذه الجملة، إلى غير ذلك من تفنناتهم التي لا يسع استيعابها ولا يمكن اجتماع متفرقها.
قلت: وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتداءاتها على هذا المصطلح غير ممكن لاختلاف مذاهبهم في ذلك، والذي تحصل لي من كلام النحاس وابن حاجب النعمان، وترسل أبي إسحاق الصابي، والعلاء بن موصلايا، وأبي الفرج الببغاء، وغيرهم ممن الكتاب المجيدين أن الغالب في المكاتبات الدائرة بين الأعيان الدول على سبعة أساليب: الأسلوب الأول: أن تفتتح المكاتبة بالدعاء: كما كتب أبو إسحاق الصابي إلى صاحب إسماعيل بن عباد بالشكر والتشوق: أطال الله بقاء سيدنا الصاحب الجليل، في سلامة دنيا ودين، ونفاذ أمر وتمكين، وتمام عز وتأييد، وثبات وطأة وتمهيد، وعلو قدر وسلطان، وتعاظم خطر وشان، وتولاه في نفسه وأوليائه بأحسن ما عرف وألف، من نعم دارة الحلب متفرعة الشعب، محمية الجهات والجوانب، محجوبة عن النوائب والشوائب، وأراه في حساد فضائله، وكفار فواضله، وما عوده فيهم من شقاء جدودهم، وفلول حدودهم، وحلول النكال بهم، وإثبات العصمة منهم، وجعل حكمه قطباً لمدار الأفلاك، ونهجاً لمجاري الأقدار، فلا ينزل منها محبوب مطلوب إلا توجه إليه ونحاه، ولا محذور إلا أعرض عنه وتحاماه، ثم كان برؤوس معانديه حلوله، وبرقابهم إحاطته، وفوق ظهورهم محمله، وعلى صدورهم مجثمه، أمراً جزماً قضاه الله له وخصه به، وأعطيته الأيام عليه عهد أمانها، وأمرت له به عقد ضمانها، عاطفة عليه بطاعتها ومواتاتها، مغضية له عن نوائبها ونبواتها، وحقيق عليه جل اسمه أن يفعل ذلك

به، ويسمع هذا الدعاء فيه، إذ كان مرفوعاً إليه في أوفر عباده فضلاً، وأغمرهم نيلاً، وأجزلهم أدباً، وأكثرهم حسباً، وأعملهم بطاعته، وأولاهم بإحسانه ومعونته. كتبت هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا الصاحب الجليل، ثم انخرط في سلك مقصده إلى آخره.

الأسلوب الثاني: أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الابتداء بكلام مناسب الحال. كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضاً عن بعض الأمراء إلى أمير آخر، مبشراً بفتح:

ومن أعظم النعم أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل، خطراً وأحسنها أثراً، نعمة سكنت ثورة، وأطفأت فورة، وعادت على الناس بجميل الصنع، وجليل النفع، ونظام الأمور، وصلاح الجمهور، فتلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفاً، الاعتداد بها متضاعفاً، بحسب ما أزالت من المضرة، وجددت من المسرة، وأماطت من المحذور، ونشرت من المأمول. وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ويوفوها من حمد الله قسطها، ويتنجزوه وعده الحق أدائها، وإطالة الإمتاع بها، والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدي إليه، ويعتقده وينطوي عليه، ويؤدي فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستزادة منه، وأن خصنا من هذه النعم بذوات الفضل السابغ، والظل الماتع، الجامعة لكتب العدو ومساءته، وابتهاج الولي ومسرته، وهو المسؤول جل اسمه وعز ذكره، أن لا يسلبنا ما ألبسناه من سرابيلها، وأجرناه من فضل ذيولها، وعودناه من جلالة أقدارها، وتعاظم أخطارها، ولا يعدمنا معونة منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها، ومنتهى الطوق في البشر لها، بمنه وطوله، وقوته وحوله.

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كان من كذا وكذا، ثم أتى على ذكر الفتح إلى آخره.

الأسلوب الثالث: أن يفتتح الكتاب بلفظ كتابي كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله الحسن بن سعدان، إلى فخر الدولة بن بويه في بشارة الفتح: كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل فخر الدولة، ومولانا الملك السيد صمصام الدولة وشمس الملة، جار على أفضل حال، جمع الله بينهما في تمام عز ونصر، ونفاذ

أمر ونهي، وعلو كلمة ورأي، وسبوغ موهبة ونعمة، وشكر الله يستزيد من فضله، ويستدر المادة من طوله، وأنا جار فيما أحمله من أعباء خدمتهما، وأتولاه من تعظم شؤونهما، على أجمل ما عود الله وزراء هذه المملكة المناصحين لها، وأوليائها المحامين عنها، من هداية إلى مراشد الأمور، وتوفيق لصواب التدبير، والحمد لله رب العالمين، وقد كان كذا وكذا.

الأسلوب الرابع: أن يفتتح الكتاب بلفظ كتبت كما كتب الصابي إلى صاحب الجيش في تعزية: كتبت أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش والعين عبرى، والكبد حرى، والصبر مسلوب، والعزاء مغلوب والفجيعة في سيدي فلان نضر الله وجهه، وكرم منقلبه، التي هدت الجلد وفتت في العضد، وبسطت عذر الجزوع، وهجنت حلم الحليم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإلى أمره صائرون، وعند الله نحتسبه غصناً ذوى، وشهاباً خبا، وعلق مضنة علقت به أيدي النوائب، وتخيرته سهام المصائب، وقارنت بين قلوب الأباعد والأقارب، والخواص والعوام في التألم لفقده والاستيحاش لمصرعه، والكآبة لوقوع المحذور به، وعز علي ان يجري لساني بهذا القول، ويدي بهذا الخط، إلى آخر المكاتبة.

الأسلوب الخامس: أن يفتتح بالخطاب، كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه، إلى شجاع الدولة وزير دمشق، بعد هلاك زنكي بن اقسنقر: أيها السيد الرئيس المحامي عن سربه، والذي قصر إلا في المعالي، رب ناء بجسمه وهو دان بقلبه، وغريب إذا نسبت وأمير على دمشق مطاع في صحبه، وله بالعراق إخوان من حزبه، إلى آخر المكاتبة.

الأسلوب السادس: أن تفتتح المكاتبة بفظ: أنا، كما كتب الصابي عن نفسه إلى الأثير أبي الحسن يهنئه بعيد: أنا، أطال الله بقاء سيدنا الأستاذ الأثير أحاول الخدمة له والقرابة منه منذ وصلت إلى العسكر المنصور، فيعترض دون ذلك عوارض يجري بها المقدور، إلى حين الموقف المسطور، وقد علم مني وشهر عني كذا وكذا، إلى آخر الكتاب.

الأسلوب الرابع: أن تفتتح المكاتبة بلفظ: صدرت، أو أصدرت، كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفرج سعد بن محمد تشوقاً:

صدرت هذه الجملة إلى فلان، ولواعج الأشواق، إليه متضاعفة مترادفة، واستمرار الصبر على البعد عنه قد رث قواه، ووهن عراه، وأوزعنا وجدناه إذ عنت ذكراه، وإن كان ذكره سمير الخاطر، وتجاه الناظر، والغريم الملازم، الذي يستحق غالبه اللبيب الحازم، إلى آخر الكتاب.

المهيع الثاني في الأجوبة على هذا المصطلح

وهي على ضربين

الضرب الأول أن تفتتح الجواب بما يفتتح به الابتداء ثم يقع التعرض بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه إما متلاصقاً لأول الابتداء، وإما بعد كلام طويل فأما ما هو متصل بأول الابتداء فكما كتب الصابي

كتابي، ووصل كتاب مولاي وفهمته، وجل عندي قدره وموقعه، وسكنت إلى ما دل عليه من سلامته، وسألت الله أن يسبغ عليه ظلها، ويمليه نعمه كلها، فأما ما ذكره من كذا وكذا، إلى آخر الكتاب.

وأما ما هو بعد كلام طويل، فكما كتب الصابي أيضاً عن نفسه إلى الصاحب ابن العباد: كتابي، أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة وليس من جارحة إلا ناطقة بشكره وحمده، ولا في الدهر جارحة إلا عافية بفضله ورفده، وأنا مستمر له على دعاء، إن خلوت من أن يكون عائداً لصلاحي، ورائشاً لجناحي، لألتزمنه عن الأحرار العائشين في نداه، المستظلين بذراه، فكيف وأنا أول ساهر في مرابعه، ووارد لشرائعه، وأحوالي جارية على استقامة أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائه، واتباعها إيثاره في أوليائه وأعدائه، والحمد لله رب العالمين، قضاء لحقه واقتضاء لمزيده، واستدامة للنعمة عنده، التي استحصفت في أيدينا سعتها، وسالت علينا شعابها، وغمرتنا سجالها، وتفيأت لنا ظلالها، وما يزال بين رغبة مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة أدام الله علوه، وكبت عدوه، في عبده

ورغبة عبده إليه سر مكنون في الصدور، ومستور تحت الضلوع، فهما يتناجيان به على بعد الدار، ويلتقيان عليه بالأفكار، فإن تطلع من حجاب القلوب، وشذ من ظهور الغيوب، فإن ظهوره يكون من جهته في نفحات الإنعام، ومن جهتي في ثمرات الكلام. وقد وصل كتابه المخطوط بكرمه لا بقلمه، إلى صنيعته الماثل بين يديه بهممه لا بقدمه، فلم يستطع إلا أن ينهض من الفكر، إلا بقدر ما يبرأ ساحته من الكفر، ويبلغه إلى آخر الاجتهاد والعذر، وأسأل الله أن يطيل بقاءه للإفضال المأخوذ منه، والفضل المأخوذ عنه، والعلم الذي يزخربه بحره، والفخر الذي يسحب له ذيله، والعز الذي ضرب عليه رواقه، والسلطان الذي ألقي إليه استحقاقه، والأمر والنهي اللذين يحويهما تراثاً واكتساباً، إذا حواهما غيره غلولاً واغتصاباً، بمنه وطوله، وقد كان كذا وكذا.

الضرب الثاني أن يفتتح الجواب بلفظ ورد أو وصل ونحوهما

كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله بن سعدان في جواب كتاب ورد عليه: وصل كتابك، أطال الله بقاءك وفهمته، وأدى فلان ما تحمله عنك ووعيته وازدادت به بصيرة في سدادك ومعرفتك، وفضلك وحصافتك، واجتماع الأدوات الجميلة فيك، الداعية إلى إعلاء محلك، وحميد حالك، والثقة بك، والاستنامة إليك، وأنهيت ذلك إلى الملك فلان، فأصغى إليه مستمعاً، وأوجب لك به حقاً متضاعفاً، وأمرني كذا وكذا، إلى آخر مراده.

وكما كتب أبو الفرج الببغاء في جواب كتاب: ورد كتابك مشافهاً من البر ومؤدياً من الفضل ومتحملاً من المن، ما تجاوز الإنصاف إلى الإسراف، وقرن الإكرام بالإنعام، ولم أدر أي المنح به أشكر، ولا بأي العوارف له أعترف، أبما تحمله من جميل نيته، أم ما أدى من جليل مخاطبته، أم ما ناجتني به فوائد ملاطفته، أم ما اعتمدني من حلاوة مفاوضته، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطاولها بشكر، ولا أقاومها بمنة اعتداد، وهو ابتداؤه إياي من المكاتبة بما أحرز به على عادته قصب السبق، وزاد على الرغبة مبرهناً وبصادق الود مخبراً، وإلى البسط دليلاً، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعثاً، ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا.

المهيع الثالث: في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح.

واعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتامات، ولا ما يقضي ملازمة اختتام معين لصدر معين، بل ذلك موكول إلى رأي الكاتب لا يرعي فيه غير علو الرتبة وهبوطها، حيث تفاوتت رتب الاختتامات عندهم.
ثم الاختتامات عندهم على أنواع شتى: منها: الاختتام باستماحة الرأي، وهو على مراتب: أعلاها ولمولانا علو الرأي في ذلك، كما كتب الصابي في خاتمة كتاب: ولمولانا علو الرأي في تشريف خادمه بالقبول، والتقدم بإعلامه بالوصول، واستخدمه بما يتعلق بآرابه وأوطاره ومن نظائر ذلك وأشكاله، إن شاء الله.

ودون ذلك: الاختتام بلفظ فإن رأي كذا وكذا فعلكما كتب الصابي في خاتمة كتاب بشارة بفتح: فإن رأى سيدي أن يعرفني موقع هذه البشرى منه، ومقابلتها بالشكر الواجب عليها، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله، ليبكت الله به عدوه وعدونا، ويكاتبني بما أتطلعه من أحواله وأخباره، وأتعمد إسعافه بع من مآربه وأوطاره، فإني أعتده شريكاً لنا مساهماً، وخليطاً مفاوضاً، فعل إن شاء الله تعالى.
ودونه: فرأيك في كذا وكذا كما كتب أبو الفرج الببغاء في خاتمة كتاب في الحث على مواصلة الكتب، فرأيك في إيناسنا بكتبك متضمنة ما نؤثره من انبساطك، ونعلمه من أخبارك، موفقاً إن شاء الله تعالى.
وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأي معنى كان فرأيك دون فإن رأيت.
وذكر ابن حاجب النعمان أن أعلى المراتب وللآراء العالية فضل السمو ومزيد القدرة. ودونه: ولرأي المجلس الفلاني فضله وسموه. ودونه: ولرأي الحضرة الفلانية فضله. ودونه: ورأي حضرة مولانا أسمى. ودونه: ورأي حضرة مولاي العالي. ودونه: ورأيه موفقاً. ودونه: ورأيه السديد. ودونه: ورأيه الأرشد. ودونه: المؤثر كذا. ودونه: فأحب أن يفعل كذا. ودونه: ويجب أن يفعل كذا. ودونه: فافعل كذا من غير مخالفة. ودونه: وأحذر المخالفة. ومنها الاختتام بالدعاء، كما كتب

الصابي كتاب وأسأل الله أن يطيل بقاءه، ويصل إخاءه، ويحفظه بعيداً وقريباً، ويرعاه غائباً وحاضراً.

ومنها: الاختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتبا لصابي في خاتمة كتاب: وأنا أسأله أن يواصلني بكتبه، مضمنة أخباره الطيبة، وأمره الممتثل، وأوطاره ومهماته، معتمداً بذلك، إن شاء الله تعالى.

ومنها: الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة من غير الضروري كما كتب الصابي في آخر مكاتبة: وما أطالب سيدي بالمكاتبة إلا عند الحاجة العارضة، فإنه يفيدني بها جميلاً اشكره، ويستفيد مني سعياً يحمده، فأما ما عدا ذلك مما يشغل أوقات راحته، ويسد فرج خلوته، فإنني أستعفي منها استعفاء المتقرب إليه، المؤثر لما خف عليه، وله فيما سألت فضل النظر فيه، والإسعاف به، إن شاء الله تعالى.

ومنها: الاختتام بالتحذير من المخالفة، كما كتب الصابي في خاتمة الكتاب إلى جماعة بتحصيل قوم: وليكتب كل واحد منهم بخبر من عسى أن يظفر به من هؤلاء، أو يقف على موضعه، أو ينتهي إليه من خبره، وليحذر من التقصير في ذلك. إلى غير ذلك من الاختتامات التي لا تحصى كثرة.

وقد ذهب كثير من الكتاب إلى عدم تفصيل بعض الاختتامات على بعض على أن ابن الحاجب النعمان قد قال في ذخيرة الكتاب: إن أعلى ذلك بالنسبة إلى المكتوب إليه، وللآراء الفلانية فضل السمو ومزيد القدرة. ودونه: ولرأي المجلس الفلاني فضله وسموه. ودونه: ولرأي الحضرة الفلانية فضله. ودونه: ورأي حضرة سيدنا أسمى. ودونه: ورأي حضرة مولاي العالي. ودونه: ورأيه موفقاً. ودونه: ورأيه السديد. ودونه: ورأيه الأرشد. ودونه: المؤثر كذا. ودونه: فأحب كذا. ودونه: ويجب أن تفعل كذا. ودونه: وسبيله أن يعتمد كذا. ودونه: فافعل كذا. ودونه: فافعل كذا من غير مخالفة. ودونه: وأحذر المخالفة.

المهيع الرابع: في عنوانات الكتب على هذا المصطلح،

وفيها أربعة أحوال: الحالة الأولى: أن يكون العنوان من الرئيس إلى المرؤوس. قد ذكر في صناعة الكتب أن العنوانات من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب: الأولى: أن يكتب في الجانب الأيمن لأبي فلان أطال الله بقاءه وأعزه، وفي الجانب الأيسر من فلان بن فلان، باسم الوزير واسم أبيه إن لم يكنه الإمام، فإن كناه، كتب من أبي فلان، والقاضي في معنى ذلك.

الثانية: أن يكتب في الجانب الأيمن لأبي فلان أطال الله بقاءه فقط، ويكتب السم ولا يكتب: وأعزه.

الثالثة: أن يكتب في الدعاء للمكتوب إليه: أدام الله عزه.

الرابعة: أن يكتب: أعزه الله.

الخامسة: أن يكتب: أكرمه الله وأدام كرامته.

السادسة: أن يكتب: أكرمه الله، وفي ذلك يكتب اسم الوزير في الجانب الأيسر.

السابعة: أن يكتب: أبقاه الله، ولا يذكر اسم الوزير في هذه المرتبة وما بعدها.

الثامنة: أن يكتب: حفظه الله، ولا يكتب اسم الوزير.

التاسعة: أن يكتب: عافاه الله.

وعلى نحو ذلك جرى ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكتاب، فقال: إنه يبدأ في الجانب الأيمن بذكر المكتوب إليه ونعوته وكنيته واسمه واسم أبيه ونسبه المشهور من ناحيه أو قبيلته أو بلده، ثم يذكر المكتوب عنه في الجانب الأيسر باسمه واسم أبيه، فإن كان الكتاب عن الوزير، ذكر كنيته في الجانب الأيسر، وإن كان الإمام أمره أن يكاتب متكنياً أو ملقباً.

وقد سبق الكلام على أصول المكاتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان، وقال: الصواب أن يكتب إلى أبي فلان. قال في صناعة الكتاب ويكتب: لأبي الحسن، فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت: أبو الحسن علي بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ، وإن شئت خفضت على البدل، فإن لم تعد الكنية كان الخفض أحسن، فقلت لأبي الحسن. ثم قال: وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن، كتبت لأبوي

الحسن، إذا لم يكن لهما ولد يقال له الحسن، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن، جاز أن يكتب لأبوي الحسنين. قال: والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضاً، لأن المعنى للذين يقال لكل منها أبو الحسن. ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكنيان بأبي الحسن: لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة من قال جاءني أبك، والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء، الأصل لأبين بكسرها أيضاً، سقطت النون للإضافة على لغة من قال: جاءني أبوك يعني بضم الواو، ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر، كما يقال لفتى الحسن.

قال في ذخيرة الكتاب وإن كان الكتاب إلى اثنين وكنايتهما مختلفة، كأبي جعفر وأبي منصور، وأبي بكر، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر. وإن كانت كنايتهم متفقة مثل أن تكون كنية كل منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر.

الحالة الثانية: أن يكون العنوان من المرؤوس إلى الرئيس. قد ذكر النحاس عن الفضل بن سهل أنه خوطب الكفء بجعلني الله فداك، بالصدر الكامل، فأحسن دعائه للعنوان، أعزه الله وأطال بقاءه، وذكر أنه إذا كوتب بأعزه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره. قال في صناعة الكتاب: ولا يتكنى الرجل في كتبه، إلا أن تكون أشهر من اسمه فيتكنى على نظيره، ويتسمى لمن فوقه، ثم يلحق المعروف أبا فلان، أو المعروف بأبي فلان. قال: ويكتب: من أخيه، إن كانت الحال بينهما توجب ذلك.

الحالة الثالثة: أن يكون العنوان من الرجل إلى ابنه ومن في معناه، قد ذكر النحاس أنه يعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان، ثم قال: وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته.

الحالة الرابعة: أن يكون المكتوب إلى امرأة. قال في صناعة الكتاب: إن كان المكتوب إليه أم الخليفة، كتب: للسيدة أم فلان أمير المؤمنين، وإن كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهوداً إليه بالخلافة، كتب للسيدة أم فلان ولي عهد المسلمين، وإن كانت امرأة رجل جليل، كتب للحرة أم فلان، ولا يكتب اسمها، ويدعو بالدعاء الذي يكون خطابها به. هذا ما كان الحال عليه في زمن النحاس في خلافة

الراضي وما حولها.

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكتاب أن الحال تغير عن ذلك عند تغير المكاتبات إلى المجلس العالي، والحضرة السامية، وما يجري مجرى ذلك، ثم قال: فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالي السامي ونعوته، فيجب أن يكني عن نفسه بالمملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم. وإذا كتب: الحضرة السامية أو العالية ونوتها، فيجب أن يكني عن نفسه خادمها أو خادمه وعبدها أو عبده. قال: وفي الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبته، بل له أن يكني عن نفسه بما شاء مما تقدم ذكره.

ثم قال: وإن كانت المكاتبة من الرئيس إلى المرؤوس، فيجب أن يكني: حضرة الفلاني بغير مولاي، ودونه: الفلاني بغير حضرة، وكنيته ونعوته واسمه واسم أبيه، ويكني عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرؤوس مما هو معروف مشهور، ويزيد في اسمه واسم أبيه ألفاً ولاماً، إن كانا مما يجوز أن يزاد فيهما، ويحذف من اسمه واسم أبيه الألف واللام. قال: وللرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكنايات التي تليق بمنصبه واسمه واسم أبيه ونعته المقترن بأمير المؤمنين، مثل ناصر أمير المؤمنين، وحسام أمير المؤمنين، وما أشبه ذلك.

المقصد الثاني في رسوم إخوانيات أهل المغرب

وعادتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة. مثل: أنت، وأنا، ولك، وعندي، وعندك، وربما خاطبوا الواحد بميم الجمع تعظيماً للمكتوب إليه، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له. قال ابن شيث في معالم الكتابة: ولا يعرف ذلك لغيرهم، وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً وفيه جملتان:

الجملة الأولى في مفتتحات المكاتبات على اصطلاحهم وفيها مهيعان

المهيع الأول في ابتداء المكاتبات

وهي على طرق منها: أن تفتتح المكاتبات بالدعاء، إما بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر: أطال الله بقاء سيدي الأعلى، ومفزعي في الجلى، متممة عليه النعم، ميسرة لديه الهمم، أقول بدءاً أيدك الله: لقد أعشى الناظرين سناك، كما أعيا الطالبين مسعاك، ولئن فت الجميع، لقد أبدعت الصنيع، فلا غاية لمجد إلا أنت آتيها، ولا ذروة لعز إلا ومن ظباك بانيها، لك الهدى والناس ضلال، وفي يديك الضوء والكل أغفال، وإن الأمر كذا وكذا.

وكما كتب ابن المطرف بن عميرة: أطال الله بقاء الأخ السري الكريم، الحري بالتقديم والتعظيم، أوحد فرسان الإحسان، وواحد عقبان البيان، ولا زال قلمه جالي بدائع السحر، جالب بضائع الشحر مغبوط السبق، عند كلال جياد الكلام، مبسوط الرزق، في حال إملاق الأقلام، إن ذكرت أبقاك الله البلاغة فمن على موردها يساجلك، أو قيل في شريعتها بنيت على خمس فإنما هي أناملك، صفوها متفجر من معينك، وشاؤها لا مطمع فيه لغير يمينك، وشأوها تستوفيه في هيئة متمهل، وجناها ترعاه بعزة أخي مهلهل، فقد صرت أمام أمتها، لا بل إمام أئمتها، والراضع لرسلها، بل الواضع لأصلها. فهنيئاً لها أن كنت سابق غايتها، وسائق رايتها، وبشرى لمهرق وشته يراعتك، ومشته براعتك، لقد أوتي من الحسن ما تشتريه القلوب بحبالها وتشتهيه النفوس أكثر من حياتها، وإن الأمر كذا وكذا.

وإما بالبقاء المجرد. كما كتب أبو محمد بن عبد البر إلى بعض أرباب الأقلام، أبقى الله الشيخ في عزة تالدة طارقة، وسعادة لا تزال طارقة بكل عارفة، ولا زال قاصده مخيماً من رفده بروض ناضر، ومحوماً من مجده على مسرة سمع وقر ناظر، والأمر كذا وكذا.

وإما بالدعاء للحضرة. كما كتب أبو زيد الفازازي: أبقى الله حضرة السيد ناضرة أدواح السعد، عاطرة أفواح المجد، ساكبة أنواع الجد، صائبة سهام الجد، ولا

وزالت مغشية الجانب، بوفد الحمد، موشية الإهاب، بسودد الحفد. الظل إذا رحب، ازدحم عليه الضاحون، والورد إذا عذب، ازدلفت إليه الممتاحون، وظل الحضرة الكريمة كثيف الأفياء، ووردها مغن عن وسائط الأرشية والدلاء، فلا غرو أن تضرب إليها أكباد الإبل، وتغص بالوفود عليها أفواه السبل، والله تعالى يعين الحضرة المكرمة على الأيادي تسوغها، والآمال تبلغها، بمنه. وإن الأمر كذا وكذا. وإما بالدعاء للمحل. كما كتب أبو المطرف بن عميرة في صدر شفاعة:
أبقى الله المحل الأعلى حرماً يتحاماه الأنام، وعلماً تتضاءل له الأعلام، ولا زالت آراؤه الناجحة، تستمدها العقول والأفهام، ومساعيه الصالحة، يشكرها الله والإسلام، إن مجداً سامى الكواكب بمثواه، وسارى الغر الساكب في جدواه، لداع إلى استلام كفه العلية، والاستهام على وصفه الذي له حقيقة الأولية، وكيف لا وقد أجار من الدهر المخيف، وصار قبلة كل داخل تحت التكليف، يعيد متى أخطأها صلاة الأمل، ويرى الاجتهاد في طلبها من راحة العمل، وإن الأمر كذا وكذا إلى غير ذلك من أنواع الدعاء.
ومنها أن تفتتح المكاتبة بلفظ كتابي كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض العلماء:

كتابي إلى سيدي حفظه الله مقيماً وسائراً، وأبقاه لغرر البيان ساحراً، وعن وجه الإحسان سافراً، ولا زالت آدابه تشرق وتروق ساهراً، ومحاسنه كالشمس إذا لم يلق نورها ساتراً، من فلانة والود روضة مطلوبة، ورحم موصولة، خلص من القلب إلى حبته، واختص منه بما ليس لأحد من أحبته، وأثار شوقاً على قدره، وهوى ثوى في صدره، وأسفاً على عهد أصبو إلى ذكره، فات، ورد الفائت يعسر، وقصر، وأيام السرور تقصر، كأنما كان قراءة سطر، أو إغفاءة فجر، أو زيارة مجتاز، أو عبارة ذي إيجاز. فمن لنا بذلك الأرج الذكي، والأريحي يرتاح لما يخترع أو يحكي، ومتى نفوز بمن ينحت من صخر، ويزري بأبي صخر، ويغرف من بحر، ويجري مع أبي بحر، ويجمع إسناده بين الجامع والمسند، وينشد من بدائع حفظه ما يؤثر يد المسند، شجرة علم تؤتى كل حين أكلها، ومزنة فضل

تجود ما نخشى بخلها، وضالة أدب يقل لها أن نحن لسعنا، أو سبيل إلى ما يفيدنا من الكلام فنحن في حروف تجيء بغير معنى، وإن الأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بلفظ: كتبت. كما كتب أبو زيد الفازازي: كتبت كتب الله للأخ الأبر الأوفى، والفاضل الذي آثار مآثره لا تخفى، مجداً هامي الربابة، سامي الرابة، وذاكراً منتحلاً بالإطالة والإطابة، وقرن أعماله بالقبول ودعواته بالاستجابة، من كان كذا، ولا جديد بيمن الله تعالى إلا صنعه الجميل، ولطفه العريض الطويل، والحمد لله رب العالمين، حمداً يؤمن آلاءه من التغيير والتبديل، والأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بكناية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه، كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء: الجناب الرياسي أدام الله اعتلاءه وحرس مجده وسناءه.

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب لجلاله من التعظيم، ولفضله من التقديم، ولآلائه من الشكر العميم، وإن الأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري: السيد العماد، والماجد الجواد، والملجأ المنيع المريع لمن يرتاع أو يرتاد، أدام الله علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بدر الجملة الشريفة، وفرع الدوحة المنيفة، من آل قيس الجود، وقيل بني قيلة الباذلين الموجود، أولئك الذين عز المهاجرون بإخائهم وسخائهم، فلا غرو أن الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه، ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتتحه، والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير أبي زكريا بن إسحاق: الأمير الأجل الهمام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهر بالنصرة مضاءه واعتزامه، راسخ شرف النجار، ثابت أصل الفخار، مستهل آلاء السحب الغزار، والعيون إليه سامية، والهمم إلى ما لديه مترامية، والصدور بالأمل فيه تشرح، والنفوس الحرة استرقاقه تطمح، ولا غور والكرم من بعض شيمه، والغنى من فضل ديمه، أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتترامى نحوه ركائب الرجاء من كل تربة، ومخاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله

عما نعلمه من كبير قدره، ونوجبه لعالي أمره، ونبيح من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا. وكما كتب أبو الحسن بن شلبون: العماد المذخر، والملاذ الذي بولائه أفخر، جعل الله قدره عالياً، ودهره بمحاسنه حالياً، ولا زال للنعم قابلاً وللأسواء قالياً، كتبت من مكان كذا، والود حلية يتألق رونقها، وشجرة لا يسقط ورقها، وإنها مغروسة، لا تقبل بذر العوادي، ومحروسة، لا يقع عليها من يقع في شجر الوادي، والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعاً موصياً: المحل الأعلى ضاعف الله أنوار هدايته، وأبقى على الجميع آثار عنايته، مستودع الكمال، ومشرع الآمال، ومعقد أرباب السؤال، ومصعد الصالح من الأعمال، وإن فلاناً من أمره كذا وكذا.

وكما كتب ابن أبي الخصال: السيخ الأجل أدام الله عزه ونعماه، ووصل رفعته وأعلاه بتقواه، مجل قدركم، وملتزم بركم وشكركم، العارف بحقكم، فلان، فكتب يعظمكم كتب الله لكم خيراً مستمراً، ورضاً على ما ترضونه، ثابتاً مستقراً، من مكان كذا، على الرسم الملتزم من توفير علائك، والشكر لآلائك، والرب تعالى ينهض بحقكم اللازم الألزم، ويصل حراسة مجدكم الأتلد الأقدام، بمنه وفضله، وإن الأمر كذا وكذا.

واعلم أنه ربما أتي بعد ذكر النعوت بالسلام، ثم بحمد الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم الرضا عن الخلفاء الماضين والخليفة القائم. وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحدين أتباع المهدي بن تومرت كما كتب أبو محمد بن عبد البر.

الشيخ الأجل، أدام الله عزته، ووصل كرامته ورفعته، مجل قدره، وملتزم بره وشكره، المسرور بما يجزيه إحسانه من طيب ذكره. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله العظيم، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم، وعلى آله والرضا عن الإمام المعصوم مهديه، وعن خلفائه الأئمة الراشدين، والدعاء لسيدنا الخليفة

الإمام أمير المؤمنين، ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين، بالنصر الأعز، والفتح الأتم الأوفى، فكتب كتب الله لكم مجداً لا يهي شرفه، وسعداً لا يني طرفه، من فلانة حرسها الله ولا ناشيء عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير الأكمل، والصنع الأجمل، والحمد لله رب العالمين كثيراً وإن الأمر كذا وكذا.

قلت: وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب، كاتب ابن الأحمر بالأندلس على القرب من زماننا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بالخطاب، إما مع حذف ياء النسب أو مع إثباتها، أما مع حذفها، فكما كتب أبو المطرف بن المثنى: سيدي ومفخري، وعصمتي ووزري، وركني وعمادي، وذخيرتي وعتادي، أبقاك الله ناهجاً سبل المكارم والمعالي، موقى حوادث الأيام والليالي، كتبي أعزك الله عن عهد حسن لك قد أحكمت معاقده، وود محض فيك قد صفت موارده، ونفس ترتاح لذكراك، ولسان لاه بين محاسنك وعلاك، قد انفسح في نشر فضائلك ميدانها، وفاق في وصف فواضلك بينها، فهي تنظم عقود مجدك، على أجياد شكرك، وتحوك من برود تقريظك وثنائك، خلعاً لمجدك وسنائك، وشيها الذكر الخطير، وطرازها الترفيع والتوقير، تكسير عصب عدن، وتعفي على وشي اليمن، وتطلع من رياض أخلاقك، في منابت أعراقك، ما يزري بنسيم المسك تضوع عرفه وانتشاره، ويربي على حسن النجوم طوالع أزهاره وأنواره، وأخلق بمن جمع الله العالم فيه، وحرس معاهد البر بكريم مساعيه، أن لا تعزى خلة نبيلة إلا إليه، ولا تقصر منقبة جليلة إلا عليه، ولا تؤثر مأثرة نفيسة إلا عنه، ولا تقتبس سيرة جميلة إلا منه، والله تقدس اسمه يحمي هذه الأوصاف البديعة، والخلال الرفيعة، من طوارق الدهر ونوازل الغير، ويجعل عليها يده، ويصرف عنها معرة كل خطب وشدة، بحوله وطوله، ويكون الأمر كذا وكذا.

وأما مع إثبات يا النسب، فكما كتب أبو المطرف بن الدباغ إلى بعض الأدباء عند وروده إلى بلاده: يا مولاي وسيدي، العظيم شأنه وامره، العالي صيته وذكره، من أبقاه الله في عز لا تنفصم عراه، وحرز لا يستباح حماه، لم أزل أبقى الله سيدي ومولاي تسمو بي إلى الكتابة همة، وتترامى بي إلى البلاغة عزمة، حتى تذللت

لي صعابها فامتطيت، وتسهلت لي حزونها فارتقت، ولما رفعت لي عن غرائبها الأستار، وعلمت عن غوامضها الأسرار، وفزت بالمعلى من سهامها، والموفور من أقسامها، جعلت بأي أئمتها أأتم وأهتدي، وإلى أي رؤسائها أنتسب وأعتزي، ناظراً في ذلك إلى شائع الأخبار، ومتداول الآثار، فوجدت ألسنة إذا تناولت صفة سواه، تحلت بعض حلاه، أو أرقته إلى رتبة من العلياء، تمثلت به في الرفعة والسناء، ثم تفرده أعزه الله دونها بالفهم المتين، والعلم المشهور، والحلم المتعارف، والفضل المتواصف، والرتبة السامية، والجلالة المتناهية، فكلما رأيت محاسن مجده تجلى، وسور فضله تتلى، هممت أن أطير إلى حضرته بنجاح الارتياح، كما وأركب إلى أفقه نوره الله أعناق الرياح، والأيام تقطعني بمصائبها، وتقيدني بأحداثها وبحوائبها، حتى قضى الله أن يرد هذا الأفق فأفرخ الأمل بغير نصب وأنال البغية بغير طلب طويل.

وليس الذي يتبع الوبل رائداً ... كمن جاءه في داره رائد الوبل

ومنها أن تفتتح المكاتبة بالتحية والسلام. كما كتب أبو المطرف بن عميرة:

تخص الابن محبة ومقة، والعباد اعتداداً بجانبه وثقة، حفظ الله نجابته، وجعل لداعي السيادة تلبيه وإجابته، تحية الجلال والتكرمة، والمودة الخالصة المتحكمة، ورحمة الله تعالى وبركاته، من مكان كذا، والود كلف، والعهد بالصون من جميع جوانبه مكتنف، وتلكم الذات السنية ذخيرة جليلة، وأمل لا تخطأ منه مخيلة، وهبة يكذب معها أن يقال الأيام بخيلة. وكنا نظن أن بناء الكرم صم صداه، ومربع الفضل عاصب برداه، وغائب عن الرشد أداه. ونقول: ما كل من أقعدته العلية عميلة، ومتى يفطن عمير عمر وبحيله، فكفا بكفاتها، وهل يستوي قيس لرحى العجوز عدمت جداتها، حتى تمثل هذا المجاهد من طرفيه، المستقبل آثار سلفيه، حفظ الله الألفاظ والألسنة، وحملة الأقلام والأسنة.

وكما كتب أبو زيد الفازازي: السلام الكريم العميم، على الشيخ الذي أثبت على وده فلا أتحول، أطنب في حمده فلا أستعر ولا أتأول، وأتعلل بذكره عند عدم مرآته ولأمر ما أتعلل، فلان، أدام الله رفعته، وحرس من الأسواء مهجته. كتب

أخوكم، البر بكم، الشيق إليكم الشاكر محاسنكم، المسرور بما سمعه من صلاح أحوالكم، فلان، ولا جديد بمن الله تعالى إلا الخير والحمد لله كثيراً، والأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بالكناية عن المكتوب عنه، كما كتب ابن أبي الخصال إلى بعض الكتاب يسأله حاجة: معظم الشيخ الأجل أبي فلان، ومجله المكبر له فلان، أعلى الله قدركم، وأوزع أولياءكم شكركم، أياديكم أدام الله كرامتكم أو كف من الغمام، ونعمكم ألزم للأعناق من أطواق الحمام، وإن وليكم ومعظمكم يحتاج إلى كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بلفظ فلان: كما كتب بعضهم من فلان، إلى الشيخ الحافظ الأكرم أبي فلان، أدام الله كرامته بتقواه، فالكتاب إليكم كتب الله لكم أحوالاً صالحة، وخيرات عليكم غادية رائحة، من موضع كذا، والبركات متوافرة، والخيرات الظاهرة، والحمد لله تعالى، وإن الأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بلفظ فلان، كما كتب بعضهم إلى والده: إلى مولاي المعظم مولاي وأبي، المتكفل بتعليمي وحسن أدبي، أبقاه الله ناظراً إلي بعين رضاه، وأعانني على الجري في بره على حكم الشرع القويم ومقتضاه، من ابنك المعظم لك، بل عبدك المتطلع إلى ما تصل الأنباء الكريمة من عندك، المواصل المسعى في شكرك وحمدك، فلان، بأبي كتبته كتب الله لكم لياناً من العيش وخفضاً، وجمع بعد الافتراق بعضاً مناً وبعضاً، ويسر لي بطوله ومنته أن يصفح عني وأن يرضى، من موضع كذا، ولا جديد إلا نعم من الله عز وجل تراوح وتعادي، وتجري الخواتم منها على حكم المبادي، وشوق إليكم يعمر أحناء ضلوعي وفؤادي، ويحسم عني قطيعي دمعي الهتون وسهادي، والله جل وعز ييسر انقضاب غربة النوى، ويريح النفوس من محرق اللوعة ولاعج الجوى، والأمر كذا وكذا.

المهيع الثاني في الأجوبة

وهي على ما تقدم في أجوبه المشارقة من أنها على ضربين

الضرب الأول

أن تفتتح المكاتبة بما يفتتح به الابتداء ثم يقع التعرض إلى وصول الكتاب وذكر الجواب منه كما كتب أبو عمرو الباجي: وعدك الكريم - أدام الله عزك - دين، وقضاؤه شرف وزين، ومثلك من تحلى بمحاسن الشيم، وزاحم في السيادة بالمناكب العمم، وحفظ العهد لما أضيغ، واشترى المجد بما بيع، والتزم للوفاء شرطاً لا يفسح، ورآه شرعاً لا ينسخ، ووصل كتابك العزيز في معنى كذا وكذا.
الضرب الثاني أن يفتتح الجواب بورود الكتاب ووصوله ابتداء كما كتب ابن الخصال ورد كتابك في أمر فلان يفرض الحمل عليه في النفوذ لوجهته، والتقدم إلى رتبته، وليس عندي إلا عون وإنجاد، وطاعة وانقياد، غير أن في الأمر كذا وكذا.

الجملة الثانية في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم

وهي على أساليب

منها: أن يختم الكتاب بالسلام المجرد هن الدعاء. كما كتب أبو عمرو الباجي في خاتمة كتاب: وأقرأ عليك يا سيدي، وأسنى عددي، وأجزل السلام وأحفله، وأتمه وأكمله.

ومنها: أن يختم بالدعاء. كما قال أبو المطرف بن الدباغ في خاتمة كتاب: والله لا يخلي مولاي من عبد يسرقه، ومنعم ينعم عليه بما يستحقه، وجميل يوليه، وصنع يسديه، بمنه وجميل صنعه.

ومنها: أن يختم بذكر التودد والمحبة. كما قال أبو جعفر الكاتب في آخر كتاب: وإن لم يكن لي من الحق ما لا أتبسط عليه، فلي من الود ما أمت به إليه، فحسبي به سلماً إلى فضلك، وذريعة إلى مجدك، إن شاء الله تعالى والسلام.

ومنها: أن يختم باستماحة النظر في أمر المكتوب عنه. كما كتب أبو المطرف بن المثنى في خاتمة كتاب: ولط الطول العام، والفضل الزاهر، في اعتبار أمري، وتحقيق خبري، والسلام.

إلى غير ذلك من الخواتم التي تستدعيها المكاتبة وتستوجبها المقاصد، وفيما ذكر من الصدور والخواتم ابتداء وجواباً مقنع لمن تأمل والله المستعان في الأمر كله.

المقصد الثالث في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية وفيه ثلاثة مصطلحات

المصطلح الأول ما كان عليه في الدولة الطولونية وما قاربها مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره وفيه أربعة مهايع

المهيع الأول في الصدور

وهي على ضربين

الضرب الأول ولهم فيه أساليب

الأسلوب الأول: منها: الدعاء بطول البقاء وما في معناه. كما كتب ابن عبدكان في صدر المكاتبة: أطال الله بقاءك، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي، وأدام عزك ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي، وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق، ونزلت منزلة الاستيجاب ووقفت على من لا يكره الآلء مكانه، ولا تنكر الفواضل محله. وكما كتب عمر الله بك الأزمنة والدهور، وآنس ببقائك الأيام والشهور، وأمتع بدوام عزك السعداء بحظهم منك.

ومنها: الدعاء بدوام النعمة. كما كتب: أسبغ الله عليك نعمه الراهنة بنعمة المستظفر، وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها، فلم أر ولله الحمد نعمة قصدت

مستقرها، وتوخت وليها، وتمنت كفؤها، إلا نعمتك أكسبت أولياءها عزاً ونضرة، وملأت أعداءها ذلة وغضاضة، وتمكنت بحل الصيانة والرعاية، وخيمت بمستقر الشكر والحمد.

ومنها: اطراح الدعاء بدوام النعمة لتقييدها بموجباتها منها. كما كتب: قد كفى الله عز وجل مؤونة الدعاء لنعمتك بالنماء، لأنها توخت لديها محلها، فحلت بفنائك سارة، مطمئنة قارة، تستوثر مهادها قبلها، وتستهنأ مواردها عندك، ولم تزل تائقة إليك، متطلعة نحوك بما استجمع لها فيك، من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم، فهنأكها الله متصلة البقاء بطول مدة بقائك، ومتحلية بحسن فنائك، فلا زلت لعوارف النعم مستدعياً، وللشكر بالزيادة فيها ممترياً، وبدوام الحمد لردفها مستمرياً.

ومنها:الدعاء بجعلت فداك. كما كتب: جعلني الله فداك، فإن في ذلك شرفاً في العاجل، وذخر العقبى في الآجل، وخير تراث لمخلفي من بعدي، دعاء أخلصته النية، وصدقته الطوية.

ومنها: استكراه الدعاء بالتفدية. كما كتب: إن قلت في كتابي إليك: جعلني الله فداك، فأكون قد بخستك حظ إجسانك إلي، وحق مفترضك علي، لأنها نفس لا توازن ساعة يومك، ولا توازي طرفة من دهرك، وإنما يفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض.

ومنها: تفدية النعمة إعظاماً لها. كما كتب: جعلني الله فداء نعمتك التي علت ذروة سنامها، وفاضت درة سائها، فعمرت أقطار الآملين، ونضرت جناب ناحية المعتدين.

ومنها: الدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة. كما كتب: أسعدك الله ببعواقب قضائه وقدره، ووهب لك الصلاح في دينك والسلامة في دنياك.

ومنها: الدعاء بكبت العدو. كما كتب: مكن الله يدك من ناصية عدوك بالصولة عليه، ومن زمام وليك بالإحسان إليه، وبلغك من كلتا الحالتين ما ينمي على تأملك، ويوفي على تمنيك.

ومنها: الدعاء المشترك بين المكتوب عنه والمكتوب إليه. كما كتب: أدام الله أنسي

بحياتك، وحرسني من الغير في نعمتك، وأكرمني بصيانة أيامك ولياليك، وأعزني بذل عدوك وقمع حاسديك.

ومنها: الدعاء بطيب الحياة. كما كتب: عش أطيب الأعمار، موقى من سوء الأقدار، مبلغاً نهاية الآمال، مغبوطاً في كل الأحوال، لا ينقضي عنك حق عارفة حتى تجدد لك أخرى أجل منها، ولا يمر بك يوم من الأيام إلا كان مؤمناً على أمسه عن فضلة غده.

ومنها: الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف. كما كتب: جعلك الله ممن ينظر بعين العدل، وينطق بلسان القسط، ويزن بقسطاس الحق، ويكيل بمعيار الإنصاف.

ومنها: الدعاء بإيزاع الشكر. كما كتب: وصل الله لك كل نعمة ينعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضياً، وللمزيد إليها داعياً، ومن الغير مؤمناً، والسلامة موجباً.

ومنها: الدعاء للحاج بالبلاغ. كما كتب: أوطأك الله في مسيرك أوثر المطايا، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا، وأوردك الهداية إلى الكريم المشاهدة وزكي المواقف وأولاها بالزلفة المقبولة، والقربة المأمولة.

ومنها: الدعاء للمسافر. كما كتب: جعلك الله في حفظه وكنفه، وأحاطك بحيطته، وجعل سفرك أيمن سفر عليك، ورجع لك بدرك الحاجة، وبلوغ الأمل، ونجح الطلبة، ونيل السؤل.

ومنها: الدعاء بالعافية من المرض. كما كتب: مسح الله ما بك، وعاد بالبر عليك، وعجل الشفاء لك، ومحص بلواك.

ومنها: الدعاء للولاة. كما كتب: أجرى الله بالخير يدك، وصما بالعز طرفك، وأوطأ كل مكرمة قدمك، وأطال إلى كل غاية هممك، وبلغك أقصى محبتك.

ومنها: الدعاء في الأضحية بقول النسك. كما كتب: جعلك الله بقبول النسيكة والقربان، فائزاً بالأجر والرضوان، مخلصاً لله بالإيمان، في السر والإعلان، مؤدياً لما افترض عليك، شاكراً لإحسانه إليك.

ومنها: الدعاء بالهناء في الأعياد. كما كتب: عرفك الله في هذا العيد المبارك من

السلامة وعمومها، والعافية وشمولها، والعارفة سبوغها، والحياطة وكمالها، والحماية وجمالها، وأفضل ما عرفك في ماضي أعيادك، وسالف أعوامك.

ومنها: الدعاء بدفع النوائب. كما كتب: كان الله جارك من فجائع الدهر ونوبه، وولي إنعام النعمة فيما آتاك من فضله، وتطول عليك من حسن الحياطة لما تولاك والذب عما أفادك.

الأسلوب الثاني: أن تفتتح المكاتبة بلفظ: كتابي أو كتبت.

فأما كتابي، فكما كتب ابن عبدكان: كتابي إليك وأنا استعيب الأيام فيك، وأصانع الزمان في تقريبك، وربع الجوار الذي كنا نسكن تحت ظلاله، ونتفيأ برونق جماله، بأجل تحفة، وأيسر ألفة، وأعذب مشاهدة، وأصدق مشافهة، ولعل أن يرتاح فيشعب صدعاً، ويؤلف جمعاً.

وأما كتبت، فكما كتب ابن عبدكان أيضاً: كتبت وأنا من حنين الصبابة إليك، وإرزام الشوق نحوك، وأليم التشوق إليك، ولاعج اللوعة بك، على ما أسأل الله أن يرحم ضعفي ويتصدق علي برؤيتك، ويهب لي النظر إلى وجهك وجمال غرتك، التي هي حليف الجذل، ونزهة الأمل.

الأسلوب الثالث: أن تفتتح المكاتبة بالخطاب بأنا.

كما كتب: أنا من جملة صنائعك، وحفظة ودائعك، وشكرة إحسانك، متى تصرفت في البلاد، فأنا المعروف بمعروفك، والعائش بجدواك، وأنت منزع همتي وقرة عيني، ومدار أملي، ومحل رجائي.

الضرب الثاني الأجوبة

وابتداؤها إما كما في الصدور الابتداآت كما تقدم ثم يقع التعرض لوصول الكتاب، وإما بإن تصدر بوصوله وهو الأكثر. كما كتب ابن عبدكان: وصل كتابك فدفع تباريح الشوق وقمع كآبة البين، وأطفأ لهيب الحرقة، وبرد حر الصبابة. وكما كتب: وصل كتابك مشتملاً من أنواع البر، على ما يقصر في جنب أيسره أعظم الشكر.

وكما كتب: وصل كتابك المصدر بجواهر لفظك، وبدائع معانيك، ومحاسن نظمك، مستودعاً ما لا يقدر على حمده وشكره إلا بالاعتراف بالعجز عنه، وما أشبه ذلك.

المهيع الثاني في خواتم الكتب

وكان اختتام المكاتبات عنه أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق من استماحة الرأي، إما بلفظ فإن رأيت: كما كتب ابن عبدكان: فإن رأيت أن تأتي فيه مؤتنفاً، ما لم تزل تأتيه سلفاً، فعلت.
وإما بلفظ فرأيك: كما كتب: فرأيك فيه بما أنت أهله، فإن الرأي الذي أنت أهله، فوق ما يلتمسه المسرف في همته، والمتبسط في أمنيته. وكما كتب فرأيك في ذلك بما تقضي به الحق وتصل به الذمام وتحفظ به الحرمة وتصدق به الأمل، وتقتعد به الصنعة، وتستوجب به الشكر.

المهيع الثالث في عنوانات الكتب

ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتبات أهل الشرق، وكتابة إلى فلان من فلان، أو من فلان إلى فلان.
فأما ما يكتب إلى فلان من فلان، فكما كتب ابن عبدكان: للسيد الذي استعبد الأحرار بفضله. وكما كتب: لمن قربه يمن وسعادة، ونأيه نكد ومحنة.
وأما ما يكتب من فلان فكما كتب: من صريع الشوق إليه، وأسير الرقبة عليه.
وكما كتب: ممن لا يتمنى الخير إلا له، إذ كان لا يناله إلا به.

المصطلح الثاني من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية

مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده وهو على قسمين

القسم الأول: الابتداء: وليس لمصطلحهم ضابط في الابتداء ولا في الترتيب في الرفعة والضعة، بل افتتاحاتهم في هذه متباينة. فمن ذلك الافتتاح بالدعاء، وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني: أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدل مدلية، ولعثرات المقل مقلية، ولمعاطف العز مميلة، ولمقاطف الفوز منيلة، ولقدح الجدوى مجيلة، ولا زالت الآراب بمكارمه باجخة، والآراء بمراسمه ناجحة، ومتاجر المفاخر بموالاته رابحة، وأيدي الآمال لأيديه بمصافاته مصافحة، وأرواح أوليائه بروح آلائه في المواطاة أعطياته عابقة فاتحة، وأدعية الداعين لأيامن أيامه، المذعنين لعهوده إنعامه، طيبة صالحة.

ومن ذلك افتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات: إن تأخرت مكاتباتي، فإن العذر معلوم، والأجر محتوم، والقلم مصدود، واللقم مسدود، والبلد محصور.

إلى غيرها من أساليبهم المشهورة التي لا يسع استيعابها، ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها.

المصطلح الثالث من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية

مما رتبه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي والمقر الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم من فضلاء الكتاب إلى زماننا مما هو دائر بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة من نواب السلطنة وسائر

الأمراء والوزراء ومن في معناهم من أعيان الكتاب ومن نهجهم من أرباب الوظائف وفيه مهيهان:

المهيع الأول في رتب المكاتبات المصطلح عليها

وقد اختلفت مقاصدهم فيترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأبه على ما خالفه من ترتيبهم المقدم الذكر، لتحصل الإحاطة به، ويعلم ما جرى عليه أهل كل من عصر منهم مما لعل مختاراً يختاره، أو ينسج على منواله، منبهاً على وهم من وهم في شيء من ذلك.

واعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخونيات على قاعدتين، تتعين معرفتها قبل الخوض في رتب المكاتبات:

القاعدة الأولى فيما يتعلق بورق هذه المكاتبات

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتبات من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر، غير أن الأعيان أهل الديار المصرية يكاتبون في الورق المصري، وأعيان أهل الشام يكاتبون في الورق الشامي، لكثرة وجوده عندهم، والمعنى في ذلك أن كتب السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من النواب وغيرهم في هذا القطع، فلا جائز أن تعلو مكاتبة أحد منهم على مكاتبة السلطان في ذلك.

ثم قد اصطلحوا على أن يكون في أعلى المكاتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضاً، إذ كان أقل ما يجعل بياضاً في الكتب السلطان وصلين فاقتصروا على وصل واحد، كي لا يساويه غيره في ذلك، واصطلحوا أيضاً على أم لا تنقص المكاتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال: الوصل الأبيض في أعلى المكاتبة على ما تقدم، ووصلان مكتوبان، إذ لو نقص عن ذلك، لخرج الكتاب في

القصر عن الحد فيزدرى، أما لو عدت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه، واصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر ربع الدرج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

القاعدة الثانية فيما يتعلق بخط هذه المكاتبات وكيفية أوضاعها

وقد اصطلحوا على أن جميع هذه المكاتبات تكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق من أن لقطع العادة قلم الرقاع. واصطلحوا أيضاً على أن تكون كتابة البسملة في أول الوصل الثاني من المكاتبة، وأن يكون تحت الجلالة من البسملة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره، فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كنواب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معناهم من رؤساء الكتاب السلطانية، كتب الملك الفلاني، بلقب ملكه السلطان، مثل الملكي الظاهري ونحو ذلك كما في هذه الصورة: بسم الله الرحمن الرحيم الملكي الظاهري

وإن كان المكتوب عنه من أتباع الأمراء كإستدار أمير ونحوه، انتسب في كتابه إلى لقب أميره الخاص مما يضاف في التلقيب إلى الدين، فإن كان أميره لقبه سيف الدين مثلاً، كتب بدل الملكي الفلاني: السيفي، وإن كان لقب أميره ناصر الدين كتب الناصري، وإن كان لقبه علاء الدين كتب العلائي، ونحو ذلك. وإذا كتب تحت الجلالة من البسملة الملكي الفلاني ونحو ذلك، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً، ويكون ذلك قطعة من سطر مفردة بذاتها. واصطلحوا على أنه كلما دق القلم وتقاربت الأسطر، كان أعلى في رتبة المكتوب إليه، وكلما غلظ القلم وتباعدت الأسطر كان أنزل في رتبة المكتوب إليه. واصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السكر الأول من المكاتبة تلو الملكي الفلاني وما في معناه ملاصقاً له، وفيما دون ذلك من المكاتبات يترك بياضاً يسير، ولا يكتب فيه شيء، وكأن المكتوب عنه يقول للمكتوب إليه: هذا محل العلامة، ولكني قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدباً معك ورفعة لقدرك، وفيما دون ذلك يترك بياضاً أوسع من ذلك ويكتب فيه المكتوب عنه علامته على ما سيأتي بيانه

في مواضعه إن شاء الله تعالى. واصطلحوا على أنه بعد انتهاء الكلام في المكاتبة يكتب إن شاء الله تعالى في خطه. ثم يكتب التاريخ في سطرين: اليوم والشهر في سطر، والسنة في سطر، ثم يكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر، ثم الحسبلة في سطر على ما تقدم بينه في الكلام على الفواتح والخواتم في المقالة الثالثة.

وليعلم أن هذه المكاتبات على قسمين:

القسم الأول الابتداءات

وهو على أربعة درجات سق توجيه ترتيبها في الكلام على أصول المكاتبات وفي أول هذه المقالة

الدرجة الأولى: المكاتبة بتقبيل الأرض، وهي أعلاها رتبة بالنسبة إلى المكتوب إليه. واعلم أن كثيراً من كتاب الزمان يظنون أن المكاتبة بتقبيل الأرض من مخترعات كتاب الدولة التركية، بل بعضهم يطن أنها مخترعات المقر الشهابي بن فضل الله وليس كذلك، بل المكاتبة بذلك كانت موجودة في أواخر الدولة العباسية ببغداد، ثم سرت إلى الديار المصرية في أوائل الدولة الأيوبية، فاستعملت بعض الاستعمال، والمكاتبة بذلك موجودة في كلام القاضي الفاضل في بعض المكاتبات الملوكية، ومن ذلك ما كتب به عن نفسه إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في صدر كتاب تهنئة بمولود: المملوك يقبل ارض بالمقام العالي الناصري، نضر الله الإسلام بمقامه، وأهلك أعداء الحق بانتقامه، ولا أعدم الأمة المحمدية عقد التزامه، بكفالتها ومضاء اعتزامه. ثم توسع في الكتاب بعد ذلك كاتب به الآحاد بعضهم بعضاً.

وقد رتبوا المكاتبة بتقبيل الأرض في المصطلح المستقر عليه الحال على خمس مراتب: المرتبة الأولى: الإتيان بالإنهاء بعد يقبل الأرض من غير تعرض لذكر دعاء ولا ثناء، مع مراعاة الاختصار وعدم السجع وتقارب السطور، مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي تحت البسملة: يقبل الأرض وينهي

كيت وكيت، وسؤال المملوك من الصدقات العميمة بروز الأوامر العالية بكيت وكيت، أو: والمملوك يعرض على الآراء العالية كيت وكيت، ونحو ذلك، ويختم الكتاب بقوله: أنهى ذلك، أو طالع بذلك، وللآراء العالية مزيد العلو، ويعبر عن المكتوب عنه في خلال المكاتبة بالمملوك. ويختلف الحال في الخطاب المكتوب إليه، فإن كان من أرباب السيوف وهو نائب سلطنة خوطب بمولانا ملك الأمراء عز نصره أو أعز الله أنصاره، وإن كان أميراً غير نائب سلطنة، خوطب بمولانا المخدوم ونحو ذلك مما تقتضيه الحال، وإن كان وزيراً رب سيف خوطب بمولانا الوزير، وإن كان قاضياً خوطب بمولانا قاضي القضاة، وإن كان عالماً كبيراً خوطب بمولانا شيخ الإسلام، وإن كان من مشايخ الصوفية خوطب بمولانا شيخ الشيوخ، وعلى ذلك بحسب المراتب والوظائف على ما تقتضيه رأي الكاتب بما يناسب الحال.

والعنوان في هذه المكاتبة: الفلاني مطالعة المملوك فلان، ويعبر عن ذلك: بالفلاني بمطالعة. وقد يعبر عن ذلك عن نفس المكاتبة. وصورته: أن يكتب في رأس ظاهر المكاتبة من الجانب الأيمن الفلاني باللقب الخاص بالمكتوب إليه، كالسيفي، والناصري، والشمسي، وما أشبه ذلك. ويكون ذلك ممتداً إلى نحو ربع عرض الدرج، وتحته فلان بما يقضي تعريفه من وظيفة أو شهرة. فإن كان نائب سلطنة كتب تحت الفلاني: مولانا ملك الأمراء بالمكان الفلاني، وإن كان وزيراً كتب: مولانا الوزير بالمكان الفلاني، وإن كان قاضي قضاة، كتب: مولانا قاضي القضاة بالمكان الفلاني، ونحو ذلك، ويعبر عن ذلك بالتعريف، ويكتب في الجانب الأيسر من ظاهر المكاتبة مقابل ما كتبه في الأولى ما صورته مطالعة المملوك الفلاني باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحت ذلك، وفلان تحته عن بعد ثلاثة أسطر، وتكون لطيفة القد غير ممشوقة على الضد من المكتوب إليه. وهذا مثال عنوان إلى نائب سلطنة بالشام لقبه سيف الدين عمن اسمه يلبغا: السيفي مطالعة المملوك مولانا ملك الأمراء بالشام المحروس عز نصره يلبغا وعلى ذلك يقاس سائر العنوانات من هذه المرتبة، والأصل في ذلك أن الحجاج بن يوسف

كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان، فكتب في عنوانه بقلم جليل: لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، وفي الجانب الأيسر بقلم ضئيل: من الحجاج بن يوسف كما حكاه أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب فتبعه الناس على ذلك في تعظيم اسم المكتوب إليه، وتلطيف اسم المكتوب عنه، والعلامة في هذه المكاتبة المملوك فلان، باسم المكتوب عنه بقلم ضئيل بحاشية الكتاب سطرين: المملوك سكر والاسم سكر تحته على هذه الصورة: المملوك فلان ويكون ذلك مقابل يقبل ملاصقاً له بحيث تكون جرة الكاف من المملوك تحت الياء من يقبل، فكأنهم راعوا في ذلك صورة ما يكتب في القصص التي ترفع إلى أكابر لاستماحة الحوائج ونحوها من حيث إنها يكتب فيها المملوك فلان يقبل الأرض وينهي كيت وكيت لما ظهر من إظهار الخضوع والتواضع.

المرتبة الثانيةأن يأتي بعد يقبل الأرض بذكر الدعاء دون الثناء مع تقارب الأسطر أيضاً واجتناب السجع

وقد اصطلحوا في هذه المكاتبة على أن تقارب تحت البسملة مع لقب المكتوب عنه الذي هو الملكي الفلاني ونحوه لقب المكتوب إليه، كالسيفي ونحوه، على سمت الملكي الفلاني من الجهة اليمنى مع بياض بينهما، بحيث يقع بعض اللقب في حاشية الكتاب، وبعضه تحت أول البسملة على هذه الصورة: بسم الله الرحمن الرحيم

السيفي الملكي الظاهري، ثم يأتي بصورة المكاتبة بعد ذلك، ويختلف الحال في هذه المكاتبة باختلاف حال المكتوب إليه، فإن كان نائب سلطنة كتب يقبل الأرض وينهي بعد رفع الأدعية الصالحة، أو بعد ابتهاله إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة، تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كل داع مخلص، ببقاء مولانا ملك الأمراء، أو بدوام أيام مولانا ملك الأمراء، وخلود سعادته، ومزيد تأييده، وعلو درجاته في الدنيا والآخرة، بمحمد وآله: أن الأمر كيت وكيت، والمملوك يسأل الصدقات العميمة أو الصدقات الكريمة، أعز الله تعالى أنصارها بروز الأمراء المطاعة بكيت وكيت. ثم يقول المملوك مملوك مولانا ملك الأمراء وعبد بابه

ونشء إحسانه، ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمه، أو المملوك يستعرض المراسيم الكريمة، والخدم العالية، ليبادر إلى امتثالها، والفوز بقضائها، أو والمملوك مملوك الأبواب العالية ونشؤها وغلامها، ويسأل دوام النظر الكريم عليه في أحواله كلها، ونحو ذلك، مما تقضيه الحال، وقد جهز المملوك بهذه المكاتبة فلاناً أو مملوكه فلاناً. فإن كان قد حمله كلام مشافهة، قال: وحمله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بسماعه والإصغاء إليه ونحو ذلك. ثم يقول: طالع بذلك والرأي العالي أعلاه الله تعالى أعلى. وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة، كتب بدوام أيام مولانا المخدوم، بدل مولانا ملك الأمراء. وإن كان قاضياً كتب ببقاء مولانا قاضي القضاة، أو بدوام أيام مولانا قاضي القضاة. وإن كان من المشايخ الصوفية، كتب ببقاء مولانا شيخ الشيوخ ونحو ذلك، وباقي المكاتبة على ما تقدم بحسب ما تقتضيه الحال. والعنوان في هذه المكاتبة الأبواب الفلانية، مطالعة المملوك فلان ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة، ويختلف الحال في ذلك باختلاف حال المكتوب إليه، فإن كان المكتوب إليه صاحب سلطنة، كتب: البواب الكريمة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، المالكية، المخدومية، الكافلية، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها، أعلاها الله تعالى فلان الفلاني، باسمه وشهرته. وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافلية، وإن كان وزيراً رب سيف، كتب بعد الأميرية الوزيرية، وإن كان وزيراً رب قلم، أسقط الأميرية وكتب قبل الفلانية الصاحبية، وإن كان من رؤساء الكتاب ممن في معنى الوزراء، ككاتب السر، وناظر الخاص، وناظر الجيش، ونحوهم، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية. وإن كان قاضي حكم، أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالحاكمية، وإن كان من المشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك.

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عرض الدرج سطراً إلى آخر المالكية، ويخلى بياضاً في آخر السطر بقدر ربع الدرج، ثم يكتب المخدومية الفلانية في أول السطر الثاني ملاصقاً للأول، ثم يخلي بياضاً يسيراً، ثم يكتب أعلاها الله تعالى، ثم يخلي بياضاً يسيراً، ثم يكتب فلان الفلاني، تحت آخر السطر الأول، ثم يكتب في آخر الدرج من الجهة اليسرى بعد خلو بياض مطالعة المملوك فلان، ثلاثة أسطر

على ما تقدم في العنونة بالفلاني بمطالعة كما في هذه الصورة: الأبواب الكريمة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، المالكية، مطالعة المخدومية، اليسفية، أعلاها الله تعالى أمر دوادر الظاهري المملوك فلان، والعلامة المملوك فلان بقلم ضئيل مسامت يقبل كما في المكاتبة قبلها.
قال في التثقيف: وبهذه المكاتبة يكتب عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أظن.
قال: وكذلك كان يكتب المقر العلائي بن فضل الله كاتب السر الشريف إلى المشار إليه، يعني نائب حلب، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفل الكتاب دون أعلاه. قلت: وعلى هذا يكون للعلامة في هذه المكاتبة رتبتان، إن عظمه كتب له العلامة على سمت يقبل، وإلا في أسفل الكتاب، ومن ثم ذكرت قول صاحب التثقيف هنا وإن محله رتب المكاتبين على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثالثة: أن لا يكتب في أول المكاتبة عن يمين أسفل البسملة الفلاني ويأتي بذكر الدعاء والثناء مسجوعاً، مثل أن يكتب البسملة ولقب المكتوب عنه الذي هو الملكي الفلاني يقبل الأرض وينهي بعد رفع دعائه، وإخلاصه في محبته وولائه، واعترافه بإحسان مولانا وجزيل آلائه، أن الأمر كيت وكيت، والمملوك يسأل إحسان مولانا أو صدقات مولانا، أو إحسان المخدوم، أو صدقاته في كيت وكيت، ثم يقول: والمملوك فهو مملوك مولانا ومحبه، والداعي لإحسانه ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمه، وقد جهز المملوك بهذه العبودية فلاناً، أو مملوكه فلاناً، وحمله على الدعاء والولاء ما يبهيه من لسانه، ويعرب عنه ببيانه، أو وقد حمل المملوك ما يقوم عنه بعد إنهائه، من رصف الأدعية، ووصف الأثنية، والمملوك يسأل الإصغاء إليه، والتشريف بالمراسيم العالية والخدم الكريمة، ليفوز بإقبالها، ويبادر إلى امتثالها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك، أو المملوك يستعرض المراسيم العالية، والخدم الكريمة المتوالية، ليتشرف بقضائها، ويتشوف إلى إمضائها.
صدر آخر: وينهي بعد رفع الأدعية، وبث المحامد والأثنية، والموالاة التي يحمل منها عالي الأولوية، أن الأمر كيت.

آخر: وينهي بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه، ولا يخفى إن شاء الله أبان نفعه، وابتهاله الذي يرفع السحب، وشوقه الذي يهدي النجب، أن الأمر كيت وكيت.

آخر: وينهي بعد دعائه المقبول، وشوقه الذي لا يحول عنه ولا يزول، ولا سلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حمله الرسول.

آخر: وينهي بعد دعاء يرفعه بالغدو والآصال، وولاء لا يتغير ما دامت الأيام والليال، وثناء أطيب من عرف الروض إذا مر عليه نسيم الشمال، أن الأمر كيت وكيت.

آخر: وينهي بعد رفع الدعاء، ونصب لواء الولاء، وجر ذيول الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والاعتزاء، أن الأمر كيت وكيت.

آخر: وينهي بعد دعائه المرفوع، وثنائه الذي هو كالمسك يضوع، وشكره الذي يسمع منه أطيب مسموع، أن الأمر كذا وكذا.

والعنوان لهذه المكاتبة الأبواب الفلانية بغير مطالعة، ويختلف الحال فيه، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف وهو نائب سلطنة، كتب الأبواب ،الكريمة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، السيدية، المالكية، المخدومية، الكافلية، الفلانية، أعلاها الله تعالى، ثم يقال: نائب السلطنة الشريفة المحروسة، أو كافل المملكة الفلانية المحروسة، وباقي عنوانات أرباب الوظائف، من أرباب السيوف والأقلام على ما تقدم في العنونة بالأبواب بمطالعة. وصورة وضعه أن يكتب الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية مثلاً سطراً واجداً من أول عرض الدرج إلى آخره، ثم يكتب الفلانية أعلاها الله تعالى في أول السطر ملاصقاً له، ثم يترك بياضاً قدر رأس إبهام، ثم يكتب في آخر السطر الثاني كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة كما في الصورة: الأبواب الكريمة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، السيدية، المالكية، المخدومية، الكافلية، السيفية، أعلاها الله تعالى. كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة.

والعلامة في ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع المملوك فلان وكأنهم لما انحطت رتبة المكتوب إليه عن أن تكتب العلامة إليه على سمت يقبل ليكون في

معنى القصة كما تقدم، أخذ المكتوب عنه في التنازل إلى آخر المكاتبة تواضعاً للمكتوب إليه وتأدباً معه.

قال في التثقيف: وبذلك كان يكتب عن الأمير يلبغا العمري، يعني الخاصكي وهو أتابك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب. قال: وكذلك كتب بعده إلى المذكورين: الأمير منكلي بغا، والأمير الجاي، ونواب السلطنة بالديار المصرية.

المرتبة الرابعة: أن يأتي بصدر المكاتبة على ما تقدم في المكاتبة قبلها من الابتداء بيقبل الأرض وينهي بعد رفع وما معناه على ما تقدم من غير فرق ولا يختلف الحال في الصدر ولا في متن الكتاب، والعنوان الكريم ولا يكون إلا بغير مطالعة. فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب الباب الكريم، العالي، المولوي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، المالكي، المخدومي، الفلاني، أعلاه الله تعالى، فلان الفلاني، باسم المكتوب إليه. وإن كان من أرباب الأقلام أو غيرهم فعلى ما تقدم في الأبواب بمطالعة من إبدال الأميري بالقضائي، أو الشيخي، وزيادة قاضي الحكم الحاكمي قبل الفلاني.

وصورة وضعه: الباب الكريم بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطراً واحداً من أول الدرج إلى آخره، ثم يكتب المخدومي الفلاني، أعلاه الله تعالى في أول السطر الثاني، ويترك بياضاً، ثم يكتب فلان الفلاني باسم المكتوب إليه أو شهرته كما في هذه الصورة: الباب الكريم العالي، المولوي الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، المالكي، المخدومي، السيفي، أعلاه الله تعالى. بهادر أمير أخوار الأشرفي تنبيه كل ما كان العنوان فيه الباب الكريم، كان العنوان فيه للمسافر المخيم بدل الباب، وباقي الألقاب على حالها كما نبه عليه بالتثقيف وغيره، والعلامة في آخر المكاتبة مقابل حسبي الله، إذ لما كانت العلامة في أسفل الكتاب مقابل تحت الحسبلة كانت العلامة فيما فوق ذلك أنزل في رتبة المكتوب إليه وأعلى في رتبة المكتوب عنه.

المرتبة الخامسة: يقبل الأرض بالمقر الشريف. والرسم فيه أن يترك بعد البسملة

وما تحتها من الملكي الفلاني قر سطر أو سطرين بياضاً، ثم يكتب يقبل الأرض بالمقر الشريف، ويختلف الحال فيه، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: يقبل الأرض بالمقر الشريف، العالي، المولوي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، الذخيري، الظهيري المسندي، الزعيمي، المالكي، المخدومي، الفلاني، أعز الله أنصاره وأعلى مناره، وضاعف مباره، وينهي بعد وصف محبته، وبث أثنيته، كيت وكيت، والمسؤول من إحسانه كيت وكيت، وربما كتب: والمملوك يسأل كيت وكيت، كما في المكاتبات السابقة، أو والمملوك يسأل تشريفه بمراسمه وخدمه، والله تعالى يديم عليه سوابغ نعمه.

دعاء آخر لهذه المكاتبة: أعز الله تعالى أنصاره، وأدام انتصاره، وجعل على غايات النجوم اقتصاره، وينهي.

آخر: لا زالت الرقاب لمهابته خاضعة، والركاب به فوق النجوم واضعة، وأجنحة السيوف من ماء الأعداء راضعة، وينهي.

آخر: لا زالت أعلامه مشرقة، وأقلامه مصرفة، وأيامه بطيب ثنائه بين الخافقين معرفة.

وآخر: لا زالت الدنيا ببقائه مجملة، والعلياء لارتقائه مؤملة، والنعم على اختلافها جواهر مكملة، وينهي.

قلت: ربما أتي بصورة الإنهاء مسجوعة أيضاً، مثل أن يكتب: وينهي بعد تعبده بولائه، وقيامه بحقوق آلائه. أو وينهي بعد دعاء يقوم بوظائفه، وولاء يتردى بمطارفه، أو وينهي بعد رفع أدعيته، وقطع العمر في موالاته وعبوديته، ونحو ذلك، وعلى ذلك جرى في عرف التعريف إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان إهماله. العنوان إن قصد تعظيمه: الباب العالي، بألقاب الباب الكريم في المكاتبة قبلها، إلا أنه يحذف منها الكريم، وإن لم يقصد تعظيمه، فالمقر الشريف بالألقاب التي في صدر الكتاب. وصورة وضعه في الباب العالي على ما تقدم في الباب الكريم: أن يأتي به في سطرين كاملين من أول عرض الدرج إلى آخره، كما في الصورة: المقر الشريف، العالي، المولوي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، الذخري، الظهيري، المسندي، الزعيمي، المالكي، المخدومي، السيفي،

أعز الله تعالى أنصاره. أمير حاجب بالشام المحروس.
والعلامة في هذه المكاتبة المملوك فلان بقلم الرقاع، بأسافل الكتاب، مقابل إن شاء الله تعالى.

واعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكاتبات بين كتاب زماننا بمملكة الديار المصرية وما جرى على نهجها، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة الأولى، منها حذف الدعاء والثناء المقتضيان للدالة من المكتوب عنه على المكتوب إليه، واقتصر على اليسير من الكلام دون الكثير الذي فيه سآمة المكتوب إليه وإضجاره، عند قراءة الكتاب، وعنونت بالفلاني كالسيفي ونحوه، من حيث إنه لقب مؤيد إلى رفعة، وأتي فيه بمطالعة المملوك فلان، إشارة إلى التصريح بالرق والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرفعة بذكر لقبه المؤدي إلى رفعة قدره، وفي المرتبة الثانية أتي فيها بالفلاني داخل المكاتبة دون العنوان فكانت أنزل مما قبلها، من حيث إن العنوان ظاهر وباطن المكاتبة خفي والظاهر المؤدي إلى الرفعة أعلى من الخفي من ذلك، وأتي بالدعاء فكانت أنزل رتبة من التي قبلها لما تقدم من أن الدعاء فيه معنى الدالة، واجتنب فيه السجع من حيث إن في الإتيان به تفاصحاً على المكتوب إليه، وعنوان بالأبواب إشارة إلى شرف محل المكتوب إليه من حيث الإشعار بأن له أبواباً يوقف عليها، وجعلت دون المرتبة الثانية من حيث إن العنونة في المرتبة الأولى باللقب المؤدي إلى الرفعة مع دلالته على الذات. وفي الثانية عنون بالأبواب الموصلة على محل الشخص، ولا يخفى أن ما دل على نفس الشخص أعلى مما هو موصل إلى محله، وأتي فيها بمطالعة المملوك فلان إشارة إلى التصريح للمكتوب إليه بالرق والعبودية كما تقدم في المرتبة الأولى. وفي المرتبة الثالثة حذف منها الفلاني المؤدي إلى الرفعة من داخل المكاتبة فكانت أنزل من التي قبلها فأتي فيها بذلك، وأتي بالدعاء مسجوعاً فكان أنزل مما قبله لما في السجع من التفاصح على المكتوب عليه، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوك فلان فكان أنزل من حيث إنه لم يقع فيه تصريح برق وعبودية كما في المرتبة الأولى والثانية،

وفي المرتبة الرابعة بقي الصدر على حاله وعنون فيها بالباب بلفظ الإفراد، فكانت أنزل مما قبلها، من حيث إن الإفراد دون الجمع بدليل أنه بعض من أبعاضه. وفي المرتبة الخامسة قيل: يقبل الأرض بالمقر، يعني مقر المكتوب إليه، فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشهار ذلك بالقرب من محله بخلاف يقبل مطلق الأرض، فإنه لا ينحصر في ذلك، ثم إن عنونت بالباب العالي مجرداً عن الكريم، كانت أنزل مما عنون فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رتبة الكريم العالي على العالي المجرد عن الكريم، على ما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة، وإن عنونت بالمقر الشريف فهي على انحطاط الرتبة عما قبلها من حيث إشعاره بقرب المحل من المكتوب إليه. على أن عنونة هذه المكاتبات بالمقر الشريف نظراً فإن أعلى المراتب الابتداء في المكاتبة بالدعاء هي الدعاء للمقر الشريف، وهو بعد تقبيل الباسط والباسطة واليد على ما سيأتي ذكره في الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فربما التبس عنوان هذه بعنوان تلك قبل فضها، والوقوف على صدرها هل هو مفتتح بيقبل الأرض بالمقر أو بالدعاء للمقر، إلا أن كتاب الزمان قد رفضوا المكاتبة بالدعاء للمقر الشريف واقتصروا على الدعاء للمقر الكريم، إذ كان هو أعلى ما يكتب به السلطان لأكابر أمراء المملكة على ما تقدم ذكره في الكلام على مكاتبات السلطان إلى أهل المملكة في المقالة الرابعة.

قلت: وفي الدساتير المؤلفة في الإخوانيات في الدولة التركية من الزمن السبق ما يخالف بعض هذا الترتيب، فجعل التعريف أعلى المراتب يقبل الأرض وينهي كيت وكيت، والعنوان الفلاني بمطالعة، على ما تقدم ذكره في الترتيب السابق. ودونه: الصدر بعينه، والعنوان الأبواب بمطالعة. ودونه: كذلك والعنوان الأبواب بغير مطالعة. ودونه: يقبل الأرض بالمقر الشريف، والعنوان إما بالباب العالي أو المقر الشريف.

وفي دستور يعزى لبعض بني الأثير أن أعلى المراتب يقبل الأرض وينهي كيت وكيت، على ما تقدم، يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض وينهي بعد رفع

دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه، ولا يخفى إن شاء الله إبان نفعه. ودونه: يقبل الأرض ويدعو لها، مثل: يقبل الأرض حماها الله تعالى من غير الزمان، واكتنفها بالأمان، من صروف الحدثان، ولا زالت محط وفود الجدا، وكعبة قصاد الندا، وينهي كيت وكيت. ودونه: يقبل الأرض ويصفها، مثل أن يكتب: يقبل الأرض التي هي ملجأ العفاه، وملثم الشفاه، ومحل الكرم الذي لا يخيب من اقتفاه، ومقصد الراجي الذي إذا عول عليه كفاه، وينهي كيت وكيت. ودونه: يقبل الأرض ويدعو لها، مثل أن يكتب: يقبل الأرض لا زالت محروسة الرحاب، هامية السحاب، فسيحة الجناب، لمن أناب، وينهي كيت وكيت.

وجرى في التثقيف: على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالي، وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف، مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالي أو المقر الشريف.

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير، وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات، مثل أن يكتب: يقبل العتبات الكريمة، لا برحت مطلع السعود، ومنبع الجود، ومهيعاً للمقام المحمود. أو يقبل العتبات الكريمة، لا زالت الأفلاكك تتمنى أها بها تحف، وأنها لنجومها إليها بحوض الوالدين تزف. أو: يقبل العتبات الكريمة، لا زالت الآمال بها مطيفة، والسعود لها حليفة، وسعادتها لاستخدم كل ذي إلمام مضيفة.

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير محكم الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضي صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التشهي، كلما تقدم متقدم في دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويجعل له شيئاً يحدثه لينسب إليه ولا يبالي وافق في ذلك غرضاً صحيحاً أم لا، وقل من يصيب الغرض في ذلك. على ما تقدم بعض هذه المراتب على بعض في العلو والهبوط إنما هو من جهة استحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك.

الدرجة الثانية: المكاتبة بتقبيل اليد وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب: المرنبة

الأولى: يقبل الباسط الشريف، وهي الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت الملكي الفلاني، بعد البسملة قدر سطرين بياضاً كما في المسألة قبلها ويختلف الحال في ذلك، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: يقبل الباسط الشريف العالي المولوي، الأميري الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، السيدي، المالكي، المخدومي، المحسني الفلاني، لا زالت ساحته مقبلة وسماحته مؤملة وينهي بعد وصف خدمه، وثبوت قيامه فيها على قدمه، إن الأمر كيت وكيت، والمسؤول من إحسانه كيت وكيت، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه.

دعاء آخر: يليق بهذه المكاتبة يقال بعد تكملة الألقاب لا زالت نعمه باسطة، وأيامه لعقود الأيام واسطة، وينهي كيت وكيت.

آخر: لا زال جناح كرمه مبسوطاً وجانب حرمه من المخاوف محوطاً، وينهي كيت وكيت.

آخر: لا زال يصرف الأعنة والأسنة، ويقلد أعناق أعدائه كل أجل وأعناق أوادئه كل منة وينهي.

آخر: لا زالت حمائل السيوف تتسابق إلى بنانه وأعقاب الرماح تأوي إلى أنامله، ليمكنها من قلوب أعداء الله يوم طعانه، ومتون الخيل متحصنة بعزائمه فيقوى جنانها بجنانه.

آخر: لا زالت رحى حروبه على أعدائه تدار وأسنة رماحه تنادي الأعداء البدار البدار، وجنوده تقاتل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصنة أو من وراء جدار.

آخر: لا زالت أعلام النصر معقودة بأعلامه وجواري اليم السعيد معدودة من خدمه، وسطور البأس والكرم مثبتة إما بأقلام الخط من رماحه وإما برماح الخط من أقلامه.

آخر: لا زالت الأعنة والأسنة طوع يمينه وشماله، والآمال والأحوال تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله، والسيوف والأقلام هذه جارية بعوائد بأسه، وهذه جارية بعوائد نواله.

آخر: ولا زالت وجوه النصر تتراءى في مرآة صفاحه، وثمار النصر تجتنى من أغصان رماحه، ولا برح السيف والقلم يتباريان في ضر الأعداء ببأسه ونفع الأولياء بسماحه، وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف، كتب بعد الأميري الوزيري. وإن كان وزيراً رب قلم، كتب قبل فلان أيضاً الصاحبي. وإن كان من أعيان الكتاب: ككاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش وناظر الدولة وكتاب الدست ونحوهم، كتب بدل الأميري القضائي ثم يكتب للجميع بعد الوزيري أو القضائي، العالمي، العادلي، الممهدي، المشيدي، المالكي، المخزومي، المحسني، الفلاني، أسبغ الله تعالى ظلاله ومدها، وشيد به مباني الملك وشدها، ووهب الأيام منه هبة لا يستطيع الليالي ردها، وينهي كيت وكيت.

دعاء آخر: يليق بهذه المكاتبة يقال بعد تكملة الألقاب، ولا زالت أقلامه تروع الأسد في آجامها، وتزيد على الغيوث في انسجامها، وتعلم الرماح الإقدام إذا نكصت لإحجامها، وينهي.

آخر: ولا زالت الدول مشيدة بتصرفه، مجددة لتشريفه، مؤيدة بين صرير القلم وصريفه.

آخر: ولا زالت أقلامه تهزأ بالغيوث الهامية، وأنعامه تفوق على البحار الطامية، وموارد إحسانه تأوي إليها الوفود الظامية.

آخر: وأدام الله القصد لبابه، ونزول الآمال برحابه، وصعودها إلى سحابه.

آخر: لا زال فسيحاً للمقاصد جنابه، مجرباً للمناجح بابه، صريحاً في ابتغاء خير الدنيا والآخرة طلابه، وإن كان من القضاة الحكام، كتب: يقبل الباسط الشريف، العالي، المولوي، القضائي، العالمي، الإمامي، والعلامي، السيدي، المالكي، المخدومي، المحسني، الحاكمي، الفلاني، أعز الله تعالى أحكامه، وجمل به الدهر وحكامه، وثبت به الأمر وزاد إحكامه، وينهي كيت وكيت.

دعاء آخر يناسبه: يقال بعد تكملة الألقاب: أعز الله تعالى أحكامه وأنفذها، وتدارك به الأمة وأنقذها، وأسعف به الملة الإسلامية وأسعدها، وينهي.

آخر: نضر الله الدين بنوره، وسقى الغمام باقي سوره، وحمى حمى الشرع الشريف بما ضرب عليه من سوره.

آخر: وجمل الدهر بمناقبه، وزين سماء العلم بكواكبه، ولا زال الزمان يقول لمنصب الشرع الشريف بشخصه ورأيه، عز يدوم وإقبال لصاحبه.
آخر: وأمضى بيده سيوف الشرع التي هي أقلامه، وأعلى طروس العدل والحق فإنها أعلامه، ولا زالت يد القصد مشيرة إليه، ولا ينعقد إلا على ثنائه خنصر ولا ينجلي إلا بهداه إبهامه.
آخر: وسدد سهام الحق بأقضيته، وشيد أركان الشرع بأبنيته، وأيد الإسلام بأقلام سجلاته القائمة للنصر مقام ألويته وإن كان المكتوب إليه من مشايخ الصوفية،
كتب: يقبل الباسط الشريف، العالي، المولوي، الشيخي، الإمامي، العالمي، العاملي، الخاشعي، الناسكي، السيدي، المالكي، المخدومي، المحسني، الفلاني، لا أزال يقاتل بسلاحه، ويقابل فساد الدهر بصلاحه، ويجلو دجى الظلماء بصباحه، وينهي.
آخر: ونفع بركاته في الروحات والغدوات، وجمل ببقائه المحافل والموات، وبسط في صالح الدول يده، إما في مباشرته بصالح التدبير وإما في انقطاعه بصالح الدعوات.
والعنوان في هذه المكاتبة الباسط الشريف بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء، والدعاء له بأول سجعة من دعاء الصدر ونحوها، بحسب حال المكتوب إليه، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف، أعز الله تعالى نصره، أو عزه بنصره. ولمن هو من رؤساء الكتاب: أسبغ الله ظلاله. ولمن هو قاضي حكم: أعز الله أحكامه. ولمن هو من المشايخ الصوفية: أعاد الله من بركاته.
وصورة وضعه في الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كاملين من أول الورق إلى آخره، إلا أنه يفصل بين الألقاب والدعاء ببياض لطيف والتعريف ببياض لطيف كما في الصورة: الباسط الشريف، العالي، المولوي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، السيدي، المالكي، المخدومي، المحسني، الفلاني أعز الله أنصاره أمير حاجب بحلب المحروسة.
وقد ذكر في عرف التعريف: أنه إن قصد تعظيمه، عنونه بالمقر الشريف بالألقاب المتقدمة على السواء، ولا تخفى صورة وضعه بعدما تقدم، والعلامة المملوك فلان، بقلم الرقاع إن شاء الله كالمكاتبة بالمقر الشريف المتقدمة.

المرتبة الثانية: يقبل الباسطة الشريفة والرسم أن يترك تحت الملكي الفلاني قدر سطرين بياضاً كما في المكاتبة قبلها، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة بالتأنيث، ويجري الحال في ذلك كما في الباسط، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، يكتب: يقبل الباسطة الشريفة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، العالمية، العادلية، المؤيدية، الذخيرية، المالكية، المحسنية، الفلانية، لا زالت سحائبها مستهلة، ومواهبها للبحار مستقلة، وينهي كيت وكيت، والمستمد من محبته كيت وكيت، وربما قيل والمسؤول، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

دعاء آخر يليق بذلك: لا زالت سيولها تملأ الرحاب وسيوفها تسرع السل إلى الرقاب.

آخر: لا زالت خناصر الحمد على الفضل بنانها معقودة، ومآثر البأس والكرم لها ومنها شاهدة ومشهودة، وبواتر السيوف مسيرة القصد إلى مناصرة أقلامها المنضودة.

آخر: ضاعف الله تعالى مواد نعمها، وجواد كرمها، واتصال الآمال بمساقط ديمها.

آخر: لا زالت الآمال لائذة بكرمها، عائذة بحرمها، مستنجدة على جدب الأيام بسقي ديمها.

آخر: ولا زالت لرسوم الكرم مقيمة، ولصنائع المعروف مديمة، ولأيدي الإحسان متابعة إذا قصرت عن البروق ديمة، وإن كان المكتوب إليه من رؤوس الكتاب كتب بدل الأميري القضائي، والباقي على ما تقدم، ثم يدعى له بما يناسبه.

دعاء يناسب ذلك: لا زالت السيوف خاضعة لأقلامها، والنجوم خاشعة لكلامها، والجبال متواضعة لإعلاء أعلامها آخر: لا زالت موالاتها فريضة، وأجنحة أعدائها مهيضة، ومقل الأسنة إذا خاصمتها أقلامها غضيضة.

آخر: أسبغ الله ظلها، وهنأ بها أمة قرب مبعث زمانها وأظلها، وهدى الآمال وقد حيرها الحرمان وأضلها.

آخر: لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالبه، والجاه لكاسبه، والنصر لمستتيب كتبها عن كتائبه.

آخر: لا زال رفدها المطلوب، وسعدها المكتوب، وقلمها المخاطب في مصالح الدول والمخطوب.
آخر: بسط الله ظلها ولا قلصها، وزادها من فضله ولا نقصها، ولا جرع كبد حاسدها الظامية إلا غصصها.
آخر: ولا زال عميق إنعامها، قديماً وحديثاً ديمها وإكرامها، قاضية بسعدها النجوم التي في خدامها.
آخر: لا زالت بسيطاً ظلها، مديداً فضلها، سريعاً إلى داعي الندى والردى قلمها في المهمات ونصلها، وإن كان من قضاة الحكم زاد مع القاضوي قبل الفلاني الحاكمي، ودعا بما يناسب.
دعاء: أعز الله شأنها وأذل من شانها، وأغص بأدمع أعدائها الضريحة شانها.
دعاء آخر يليق بذلك: ولا زالت الآمال إليها وافدة، والصلات عائدة، ومعاني الفضل عن أخبار معنها زائدة.
آخر: لا زالت خناصر الحمد معقودة على فضل بنانها، وفصل بيانها، وعوائد الفضل والكرم شاهدة بالحسنين من فضلها وامتنانها. وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القضائية بالشيخية وأسقط العادلية والحاكمية ودعا نحو قوله: ومتع الإسلام ببقيته الصالحة، وبيض صحائف أعماله التي لأيدي الملائكة الكرام مصافحة.
آخر: لا أخلى الله من بركاته خلواته، وأعاد من نوامي دعواته، وسوامي درجاته وتوجهاته، ونحو ذلك.
والعنوان الألقاب التي في صدر المكاتبة، والدعاء بالسجعة الأولى من الدعاء باطنه أو نحوها. وصورة وضعه أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كما تقدم في الباسط كما في هذه الصورة: الباسطة، الشريفة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، العالمية، العادلية، الذخرية، السندية، الكاملية، المحسنية، أعز الله تعالى أنصارها أمير حاجب بحماة المحروسة.
والعلامة المملوك فلان بقلم الرقاع في أول الوصل الثالث على القرب من اللصاق.
المرتبة الثالثة: يقبل اليد الشريفة بألقاب الباسطة المتقدمة، ثم اليد الكريمة، ثم اليد

العالية مع حذف الكريمة رتبة بعد رتبة، والألقاب بحالها ويدعى له، ثم يقال والمستمد من محبته كيت وكيت، والله تعالى المؤيد، والحال في اختلاف بعض ألقابها بالنسبة إلى أرباب السيوف وغيرهم على ما تقدم في الباسطة.

وهذه الأدعية لأرباب السيوف في هذه المكاتبة دعاء من ذلك: يقال بعد استكمال الألقاب: لا زالت مقبلة البنان، مؤملة الإحسان، مفضلة على أنواء السحب بطل لسان، وينهي.

آخر: لا زالت ترد بالسيف صدور الكتائب، وترد الظمأة منها موارد السحائب، وتحدث عن البحر وكم من بحر من العجائب.

آخر: لا زالت بربها مأمونة، وبذبها ممنونة، وأيامها تصبح الأعداء بأسنتها الرزق المسنونة.

آخر: لا أخلى الله ودها، ولا قطع وظائف حمدها، ولا قضى مغيبها إلا جعل لها ذكرى بعدها.

آخر: لا زالت مصالحها تظفر بالمنى، وتحصل على الغنى، وتطلق لسانه بعاطر الثنا.

آخر: لا زالت لتقليد المنن سابقة في الجود العذل، مقسمة في مكارم التكريم، باطنها للندى وظاهرها للقبل.

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام. يقال بعد استيفاء الألقاب: لا زالت مستهلة بالندا، مستقلة بكبت العادا، مطلة على بعد ما بينهما من المدى.

آخر: لا برحت مفاخرها مفصلة، ومحبتها في الخواطر ممثلة، والكواكب تود لو فارقت فلكها وأصبحت لديها مسبلة. آخر: لا برحت مفاخرها لصحائف الإحسان مسطرة، ولقلوب الأعداء مفطرة، ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء ممطرة.

آخر: أعلى الله تعالى شانها، وضاعف إحسانها.

والعنوان: اليد الشريفة، أو اليد الكريمة، أو اليد العالية، بالألقاب التي في صدر الكتاب من غير زيادة ولا نقص، والدعاء بأول سجعة من المدعو به في صدر الكتاب أو نحوها، والتعريف بعد ذلك.

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما في هذه الصورة: اليد الشريفة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، العالمية، العادلية، الذخيرية، المالكية، المحسنية، الفلانية، أعلى الله تعالى شأنها. نائبة ملطية المحروسة.

والعلامة المملوك فلان بقلم التوقيعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على القرب من موضع لصاقه.

واعلم أنه ربما وصف التقبيل في هذه المراتب بعد الدعاء بالأوصاف الدالة على زيادة التأدب ورفعة قدر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى في عرف التعريف. وقد يستعمله بعض كتاب الزمان، وذلك مثل أن يقول في تقبيل الباسط بعد استعمال الدعاء: تقبيلاً يحوم على مناهله، ويحلق نسر السماء على منازله، أو يقول: تقبيل محب أخلص ولاءه، ومحص الصدق وفاءه، أو تقبيلاً يواليه، وينظم لآليه، أو تقبيلاً يواصل به الخدم، ويود لو سعى لأدائه على الرأس إن لم تسعف القدم، أو تقبيلاً لا يروى الكرم إلا عنه، ولا يستفاد المكارم إلا منه، أو تقبيل وارد على ذلك الزلال، رائد في ذلك الروض الممتد الظلال، أو تقبيل مسارع إليها، مزاحم عليها. وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المقام، مثل أن يقول: وينهي بعد وصف خدمه، وتمنيه لو وقف في صف خدمه، وما أشبه ذلك. قلت: وفي بعض الدساتير بعد تقبيل اليد العالية، يقبل يد الجانب الكريم، العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، المؤيدي، النصيري، الزعيمي، الفلاني، وبعد ذلك: يخدم الجانب الكريم بنحو هذه الألقاب. وفي التثقيف: يقبل يد الجانب العالي، ويخدم الجانب العالي، بدون الكريم، ثم يقال بعد ذلك ويبدي لعلمه كيت وكيت، والقصد من محبته كيت وكيت، فيحيط علماً بذلك. وبعض الكتاب يستعمل ذلك إلى الآن، وهو ذهول، إذ سيأتي في أول الدرجة الثالثة أن أعلى المراتب المفتتحة بالدعاء الدعاء للمقر الشريف على المصطلح الأول، وللمقر الكريم على ما استقر عليه الحال الآن، وإذا كان كذلك فكيف يتأتى أن تكون مراتب الجناب الكريم أو الجناب العالي قبل المقر الشريف أو المقر الكريم.

الدرجة الثالثة المكاتبة بالدعاءوقد رتبوا بالدعاء على ثلاث مراتب

المرتبة الأولى: الدعاء للمقر، والرسم فيه أن يترك بعد الملكي الفلاني وقد عرض ثلاثة أصابع بياضاً، ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة.
ويختلف الحال في ذلك، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، العوني، النصيري، الفلاني. ثم يدعى له بما يناسب نحو: ولا زالت جيوشه جائلة، وجنوده بين الأعداء وبين مطالبها حائلة، وأولياؤه على صهوات خيله لديه قائلة، أصدرناها إلى المقر الكريم، تهدي إليه من السلام أطيبه، ومن الثناء أطنبه، وتبدي لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت، والقصد من اهتمامه كيت وكيت، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.
وهذه أدعية تناسب ذلك: دعاء يليق بذلك: يقال بعد تكملة الألقاب: وأيد عزائمه ونصرها، وأعلى أعلامه ونشرها، ودقق في مقاتل الأعداء حيث تزور الأسنة نظرها، وينهي.

آخر: لا برحت الآمال بكرمه تعترف، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف.
آخر: وأعلى قدره، وأنفذ أمره، أصدرناها.
وإن كان من رؤساء الكتاب، كتب: بسط الله ظل المقر، أو أسبغ الله ظلال المقر الكريم، العالي، القضائي، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، السيدي، السندي، المالكي، المخدومي، المحسني، الفلاني، وباقي الكتابة كما في أرباب السيوف.
وهذه أدعية تناسب ذلك: دعاء يليق به: ولا زالت الأمور إليه مفوضة، ومضارب العز إليه عنه مقوضة، وصحائف الحسنات بتسويده على أثناء الدهر مبيضة، وأصدرناها.
آخر: وصرف لسان قلمه، وشرفه مكان قدمه، وعرف من كان يناويه أنه أصبح لا يعد من خدمه.
قلت: وقد ذكر في عرف التعاريف أن القضاة والحكام لا مدخل لهم في المكاتبة بالمقر، وعلى ذلك جرى في المشايخ الصوفية، على أنه قد كوتب بذلك، وقد رأيت

المكاتبة بذلك في بعض الدساتير، وحينئذ فيكتب: أعز الله تعالى أحكام المقر العالي، القضائي الكبيري، العالمي، العلامي، الإمامي، المالكي، المحسني، الحاكمي، الفلاني، ويدعى له بما يناسب، مثل: وجدد له إقبالاً، وبلغه من الدارين آمالاً، ونحو ذلك، والباقي على نحو ما تقدم.

وهذه الأدعية تناسب ذلك: لا برحت الشريعة محوطة بأقلامه، مضبوطة بأحكامه، منوطة بما يشيد كبانيها من أحكامه، مؤرخة أيام سعودها بأيامه.

آخر: حرس الله بأحكامه سرح المدى، ولا برحت فتاويه بها يقتدى، ويظهر على المناوين والمبتدعين من تجريدها مهنداً مهنداً. آخر: لا برحت أنوار فتاويه لامعة، وسيوف أقلامها بها قاطعة، وحدودها إلى موارد أحكام الشريعة المحمدية شارعة.

والعنوان لهذه المكاتبة المقر الكريم بنظير ما في الصدر، والدعاء بأول سجعة في الصدر من الدعاء.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما في الصورة: المقر الكريم، العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، العوني، النصيري، الفلاني، أعز الله تعالى أنصاره فلان الفلاني.

المرتبة الثانية: الدعاء للجناب، وهو على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: أعز الله تعالى نصر الجانب الكريم، والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الناصري عرض ثلاثة أصابع بياضاً كما في المسألة قبلها. ثم إن كان المكتوب إليه أرباب السيوف، كتب: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، العوني، الذخري، العضدي، الفلاني، ويدعى له، نحو: وأعلى قدره، وأنفذ أمره، صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم، تهتدي إليه سلاماً رائقاً، وثناء عابقاً، وتوضح لعلمه الكريم كيت وكيت، والقصد من اهتمامه كيت وكيت، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه.

وهذه الأدعية تناسب ذلك: دعاء منه: ولا زالت عزائمه تعير السيوف المضاء، وتعلم السهام النفوذ في القضاء.

آخر: ولا زال جنابه مرتعاً، وسحابه مربعاً، ورعبه لا يدع من القلوب الأعداء موضعاً.

آخر: ولا زالت عزائمه تباري السيوف، وتشق الصفوف، وتجاري إلى مقاتل الأعداء الحتوف، صدرت.

وإن كان من الكتاب، كتب: أدام الله تعالى جلال الجناب الكريم، العالي، القضائي، الكبيري، الصدري، الرئيسي، العوني، الغياثي، الملاذي، الفلاني، ويدعى له بما يناسبه، والباقي من نسبة أرباب السيوف.

دعاء يناسبه: وحرس سماءه التي تغنى عن المصابيح، ونعماءه التي هي للنعم مفاتيح.

آخر: وبلغه أشرف الرتب، وملأ به القلوب الأعداء غاية الرهب، وشكر ندى قلمه الذي لم يدع للغمام إلا فضل ما وهب، صدرت.

وإن كان قاضياً، كتب: أعز الله تعالى أحكام الجناب الكريم العالي، القضائي، الإمامي، العالمي، العلامي، الأوحدي، الفلاني. ويدعو له: نحو: ونور بعلمه البصائر، وسر بحكمه السرائر، وجعل فيض يمه مما لا تودع درره إلا في الضمائر. والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب: أعاد الله تعالى من بركات الجناب الكريم، العالي، الشيخي، الإمامي، العالمي، العاملي، الورعي، الزاهدي، الفلاني. ويدعى له، نحو: ولا زال يقاتل بسلاحه، ويقابل فساد الدهر بصلاحه، وتجلى دجى الظلماء بصباحه. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم تهدي إليه سلاماً يزدان بعرض بخدمته، ويزداد نضرة بنظرته. والعنوان لكل منهم بألقاب الصدر، والدعاء بأول سجعة من دعائه أو نحو ذلك.

وصورة وضعه أن يكتب في سطرين ألقابه ودعائه وتعريفه كما ورد في هذه الصورة.

الجناب الكريم، العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، النصيري، الفلاني، أعز الله تعالى نصره، فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان بقلم الثلث مقابل السطر الثاني كما في المكاتبة التي قبلها.

الطبقة الثانية، من المرتبة الثانية: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي، والرسم

فيه أن يترك تحت الملكي الفلاني قدر أربعة أصابع بياضاً، ثم يختلف الحال في ذلك، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، العوني، النصيري، الذخري، الفلاني. ثم يدعى له، نحو: ونصره في جلاده، وأيده في مواقف جهاده. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه سلاماً يشوق، وثناء يروق، وتوضح لعلمه كيت وكيت، فالجناب العالي، يتقدم بكيت وكيت، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده ومنه وكرمه.

دعاء آخر يناسب هذه المكاتبة: يقال بعد استيفاء الألقاب: ولا زال عزمه مؤيداً، وعزه مؤبداً، واجتهاده وجهاده، هذا يسر الأولياء وهذا يسوء العدا. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تخصه بالسلام، والثناء الوافر الأقسام، وتوضح لعلمه كيت وكيت.

آخر: ولا زالت آراؤه كواكب يهتدى بلوامعها، وتقرأ سورة النصر في جوامعها، وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتي الأولياء بهوامعها.

وإن كان م الكتاب، كتب: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي، القضائي، الكبيري، الصدري، الرئيسي، القوامي، النظامي، الفلاني. ثم يدعى له نحو: ولا زال يرجى لكل جليل، ويؤمل لكل جميل، ويؤهل لكل منتهى تقصر دونه أصابع النيل. صدرت هذه المكاتبة، والباقي على ما تقدم في أرباب السيوف.

وإن كان من القضاة، كتب: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي، القضائي، العالمي، الفاضلي، الأوحدي، الصدري، الرئيسي، الفلاني. ويدعى له نحو: ودفع عنه الأباطيل، وأرشد بهداه من الأضاليل.

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب: أعاد الله تعالى من بركة الجناب العالي، الشيخي، الإمامي، العالمي، الكاملي، الورعي، الزاهدي. ويدعى له نحو: ولا زال تكشف به اللأواء، وتطب به الأدواء. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه سلاماً، وتفض عن مثل المسك ختاماً، وتوضح لعلمه.

دعاء آخر: نفع الله بدعواته التي لا حاجب لها عن الإجابة، ولا عارض يمنعها عن الإصابة، وأمتع ببركاته التي هي أمن للناس ومثابة. صدرت.

والعنوان: الألقاب التي في صدر المكاتبة. والدعاء: ضاعف الله تعالى نعمته، ثم التعريف.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في السطرين ألقابه ودعاءه وتعريفه كما ورد في هذه الصورة: الجناب العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، العادلي، المؤيدي، العوني، النصيري، الذخيري، الفلاني. ضاعف الله تعالى نعمته، فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكاتبة.

الطبقة الثالثة: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي وما في معنى ذلك. والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الفلاني بحيث يبقى من الوصل الذي فيه البسملة ما يسع سطرين فقط ثم يختلف الحال فيه، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، المجاهدي، المؤيدي، العوني، النصيري، الذخيري، الفلاني. ويدعى له نحو: وأيد عزمه وأظهره، وكبت عدوه وقهره، صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه السلام طيباً، وثناء مطنباً، وتوضح لعلمه كيت وكيت، فالجناب العالي يتقدم بكيت وكيت، فيحيط علمه بذلك، والله يؤيده بمنه وكرمه.

دعاء آخر يناسبه: وموه بجهاده كل سنان، ونبه بجلاده جفن كل سيف وسنان، صدرت هذه المكاتبة تحييه بسلام يطيب، وثناء يهتز غصنه الرطيب، وتوضح لعلمه.

وإن كان من الكتاب، كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي القضائي. والألقاب من نسبة ما تقدم في: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي. والدعاء، نحو: ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحاً، ونجم رفده لأنواء الفضل مانحاً صدرت.

وإن كان من القضاة، كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي، والألقاب من نسبة ما تقدم في ضاعف الله نعمة الجناب العالي. والدعاء، نحو: ولا أخلى الله أفق الفضل من موكبه، ولا مجال الجدال من مركبه. صدرت.

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي الشيخي. وبقية الألقاب من نسبة ما تقدم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجناب. والدعاء، نحو:

نفع الله ببركات خلوته التي كم انجلت عن الرشاد، وبان في مرآتها نور الهدى للعباد، وأنارت إنارة الشمس لا إنارة الزناد.
والعنوان بنظير الألقاب التي في صدر المكاتبة، أدام الله تعالى نعمته.
وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما في الصورة: الجناب العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، المجاهدي، المؤيدي، العوني، النصيري، الذخيري، الفلاني، أدام الله نعمته، فلان الفلاني.
والعلامة المملوك فلان تحت البسملة مختصر الطومار.
المرتبة الثالثة: الدعاء للمجلس، ويختص بالمجلس العالي، والبياض فيه تحت الملكي الفلاني بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدم في الجناب العالي.
ويختلف الحال فيه، فإن كان من أرباب السيوف، كتب: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، المجاهدي، المؤيدي، الذخري، العوني، الفلاني. ويدعى له نحو: وأيد عزمه، ووفر من الخيرات قسمه. صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تهدي إليه سلاماً، وتوفر له من الخير أقساماً، وتوضح لعلمه المبارك كيت زكيت، فالمجلس يتقدم بكيت وكيت، فيحيط بذلك علماً. والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.
وهذه أدعية تليق بهذه المكاتبة: دعاء من ذلك: ولا زال شكور الاهتمام، موصوف المحاسن وصف البدر التمام، معروفاً بجميل الأثر مثل ما تعرف مواقع الغمام. صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تهدي إليه السلام، وتسدد لرأيه الصائب سهاماً، وتوضح لعلمه الكريم.
آخر: ولا زال سيفاً يدفع بحده، ويجري ماء النصر من فرنده، ويتنوع به الظفر فيقتل بتجريده ويخاف وهو في غمده. وإن كان من الكتاب، كتب: أدام الله نعمة المجلس العالي، القضائي، الأجلي، الكبيري، الرئيسي، الماجدي، الأوحدي، الأثيري، الفلاني. ويدعى له، نحو: وسدد رأيه ووفقه، وصدق فيه الظن وحققه، وجمع له شمل السعادة ثم لا فرقه، صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تشكر مساعيه، واهتمامه الذي بان طرف النجم وهو يراعيه، وتوضح لعلمه الكريم.
آخر: ولا نزع عنه ثوب السعادة، ولا غير منه جميل العادة، ولا عرف سوى بابه

الذي لو كان له الحق في جبهة الأسد لاستعده، صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تهدي إليه السلام، والثناء الذي تنطق به ألسنة الأقلام، وتوضح لعلمه.
وإن كان من القضاة، كتب: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي، القضائي، الكبيري، العالمي، الفاضلي، الأوحدي، الفلاني، ويدعى به نحو: ولا برحت طلبته مفيدة المطالب، مورية الهدى في الغياهب، قائمة أقلام هدايتها في ليالي الحيرة مقام الكواكب.
آخر: ولا برحت الدنيا ممطورة بغمامه، محبورة بدخولها تحت ذمامه. وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب: أدام الله تعالى بركة المجلس العالي، الشيخي، الإمامي، العالمي، العاملي، العابدي، الورعي، الزاهدي، الأوحدي، الفلاني. ويدعى له نحو: ولا زال نوره يسعى بين يديه، ويدعى باسمه إليه.
آخر: أعاد الله من بركاته على الراعي والرعية، وجعل خلوته خلوات كل نفس راضية مرضية، والباقي على ما تقدم. والعنوان الألقاب التي في الصدر، والدعاء: أدام الله تعالى نعمته. ثم التعريف.
وصورة وضعه في الورق أن تكتب ألقابه والدعاء والتعريف كما في هذه الصورة: المجلس العالي، الأميري، الكبيري، العالمي، المجاهدي، المؤيدي، الذخيري، العوني، الفلاني، أدام الله تعالى نعمته فلان الفلاني.
والعلامة المملوك فلان بقلم مختصر الطومار تحت الملكي الفلاني، على ما تقدم في المكاتبة قبلها.

واعلم أن ترتيب هذه الدرجة على هذه المراتب: من الدعاء بأعز الله تعالى أنصار المقام الكريم، ثم أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، ثم ضاعف الله تعالى نعمة الجناب الكريم، ثم أدام الله تعالى نصرة الجناب العالي، ثم أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي، هو المستقر عليه الحال بين كتاب الزمان بالديار المصرية، وجعل في عرف التعريف أعلى المراتب في الدعاء: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، ثم أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم، ثم أعز الله تعالى نصر المقام الكريم، ثم أدام الله نصرة الجناب الكريم، ثم أعز الله تعالى المقر الكريم، ثم

ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي، مع اختصار الألقاب وحذف بعضها، ثم أدام الله نعمة المجلس العالي، وعلى كثير من ذلك كان الحال جارياً إلى آخر الدولة الأشرفية، شعبان بن حسين، ثم أخذ الناس في التغيير إلى أن صار الأمر على ما هو عيه الآن.

قلت: وكانوا في الزمن السلف في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون وما والاها لا يأتون مع المقر الشريف، المقر الكريم، المقر العالي، والجناب الشريف، بأصدرنا ولا بصدرت هذه المكاتبة كما هو الآن، بل الدعاء يقولون مع أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف: المملوك يقبل الباسطة، ثم يأتي بالإنهاء بعد ذلك مثل أن يقول: المملوك يقبل الباسطة الكريمة التي هي معدن السماح، وموطن ما يوهن العدا من صدور الصفاح، وينهي. أو يقول يقبل الباسطة الكريمة ، ويرتع منها في كل ديمة، وينهي. أو المملوك يقبل اليد الشريفة ويلجأ إلى ظلالها الوريفة، وينهي. ومع الجناب الشريف لفظ المملوك يخدم. ثم يقول: ويبدي مثل أن يكتب: المملوك يخدم بأثنيته التي تزيد الطيب طيباً، وتسري سرى السحب فلا تدع في الأرض جريباً، ويبدي لعلمه الكريم، وربما أعاض ذلك بقوله: صدرت هذه الخدمة، مثل أن يقول: صدرت هذه الخدمة وسلامها يتضوع، وثناؤها السافر لا يتبرقع.

الدرجة الرابعة: الابتداء بصيغ مخترعة من صدور مكاتبات الأدعية.

اعلم أن صدور المكاتبات المفتتحة بالأدعية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف: ومن أجل أصدرناها أو صدرت هذه المكاتبة، ثم يقال: وتبدي لعلمه أو وتوضح لعلمه. ومن أجل ذلك جعلت هذه الدرجة دون درجة الافتتاح بالدعاء، لأن هذه فرع من فروع تلك، وحينئذ فيكون الصدر مشتملاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء: أحدهما: افتتاح صدور المكاتبة بقوله: أصدرناها أو صدرت.

والثاني: الإشارة إلى المكاتبة بقوله: هذه المكاتبة.

والثالث: الإعلام بما صدرت بسببه المكاتبة، فانتظم من ذلك ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: الافتتاح بصدور المكاتبة، وفيها طبقتان: الطبقة الأولى: صدرت والعالي، وهي أن تفتتح المكاتبة بأن يقال: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي.

ويختلف الحال فيها. فإن كان المكتوب من أرباب السيوف، كتب: صدرت هذه

المكاتبة إلى المجلس العالي، الأميري، الكبيري، المجاهدي، المؤيدي، الذخري، الأوحدي، الفلاني. ويدعى له: أدام الله تعالى نعمته، ووفر من الخير قسمته، تتضمن إعلامه كيت وكيت، فالمجلس العلاي يتقدم بكيت وكيت، فيعلم ذلك ويعتمده والله الموفق.

وإن كان من الكتاب، كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي، القضائي الكبيري، الرئيسي، الماجدي، الأثيري، الأوحدي، الفلاني. ويدعى له نحو: حرس الله مجده، وأنجح قصده، والباقي على ما تقدم.

وإن كان من القضاة، كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي، القضائي، الأجلي، الصدري، الفقهي، الكاملي، الفاضلي، الفلاني، ويدعى له نحو: ايد الله أحكامه، ووفر من الخير أقسامه، والباقي على ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية: كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي، الشيخي، الإمامي، العالمي، العاملي، الزاهدي، العابدي، الورعي، الأوحدي. ويدعى له نحو: أعاد الله من بركته، ونفع المسلمين بصالح أدعيته، والباقي على ما تقدم. والعنوان بالألقاب التي في الصدر وأول من الدعاء فيه. وتكون الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كما في الصورة: المجلس العالي، الأميري، الكبيري، المجاهدي، المؤيدي، الذخري، الأوحدي، الفلاني، أدام الله رفعته، فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان تحت الملكي الفلاني، بقلم مختصر الطومار الثقيل، وربما جعل بعضهم العلامة أخوه.

الطبقة الثانية: صدرت والسامي، وهي أن تفتتح المكاتبة بأن يقال: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، والبياض فيها تحت الملكي الفلاني، كما صدرت في المكاتبة التي قبلها، بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط على ما تقدم.

ثم أن المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، الأميرين المجاهدي، العضدي، الذخيري، الأوحدي، الفلاني، ويدعى له

نحو: أدام الله سعده، وأنجح قصده. ثم يقال: تتضمن إعلامه كيت وكيت، فالمجلس السامي يتقدم بكيت وكيت، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه، والله الموفق.

وإن كان من الكتاب، كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي، الأجلي، الكبيري، الزيني، الماجدي، الأثيري، الأوحدي، الفلاني. ويدعى له نحو: ضاعف الله تعالى إقباله، أو أدام الله سعادته، وبلغه إرادته، والباقي على ما تقدم.

وإن كان من القضاة، كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، القضائي، الصدري، الفقيهي، الإمامي، العالمي، الفاضلي، الكاملي، الأوحدي، فلان الدين. والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، الشيخي، العالمي، الورعي، الزاهدي، الأوحدي، الفلاني، ويدعى له نحو: لا أخلاه الله من أنسه، ولا أبعده من حضرة قدسه. والباقي على نحو ما تقدم. والعنوان الألقاب التي في صدر المكاتبة بالسجعة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين كما في الصورة: المجلس السامي، الأميري، الكبيري، المجاهدي، العضدي، الذخيري، الأوحدي، الفلاني.

أدام الله سعده، فلان الفلاني.

والعلامة أخوه فلان تحت الملكي الفلاني، بقلم مختصر الطومار الثقيل.

المرتبة الثانية: الافتتاح بالإشارة إلى المكاتبة، وهي أن يكتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي بغير ياء في ألقابه، ويعبر عنه السامي بغير ياء، والبياض فيها تحت الملكي الفلاني متسع أيضاً، بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط.

وإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، الأمير، الأجل، الكبير، المجاهد، المؤيد، الأوحد، الذخر، فلان الدين، ويدعى له نحو: أدام الله إقباله وبلغه آماله، أو أنجح الله قصده، وأعذب ورده، تعلمه كيت وكيت، فالمجلس يتقدم بكيت وكيت، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه، والله الموفق.

وإن كان من الكتاب كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، القاضي، الأجل،

الكبير، الصدر، الرئيس، الأوحد، ويدعى له نحو: أدام الله سعادته، وبلغه من الخير إرادته، تعلمه كيت وكيت. والباقي على ما تقدم.

وإن كان من القضاة، كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، القاضي، الأجل، الكبير، العالم، الفاضل، الكامل، الأوحد، فلان الدين، والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الشيخ، الصالح، الورع، الزاهد، فلان الدين، نفع الله تعالى ببركته، ولا أخلى مجالس الذكر من محاسن سمته وسمته. والباقي من نسبة ما تقدم.

والعنوان: الألقاب التي في صدر الكتاب، وأول سجعة من الدعاء الذي فيه وتعريفه، ويكون في سطرين كما في هذه الصورة: المجلس السامي، الأمير، الأجل، الكبير، المجاهد، المؤيد، الأوحد، الذخر، فلان الدين. أدام الله إقباله فلان الفلاني.

المرتبة الثالثة: الافتتاح بالإعلام بالقصد، وهو أن يكتب: يعلم فلان، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليعلم بإثبات لام الأمر في أوله، فحذف كتاب الزمان منها اللام اللازم إثباتها وأجروها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الفلاني بياضاً، بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين كما في المكاتبة قبلها وما قبل ذلك.

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف، كتب: يعلم الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، الذخر، المرتضى، المختار، فلان الدين، ويدعى له نحو: أدام الله عزه، ووفر من الخير كنزه، كيت وكيت، فمجلس الأمير يتقدم بكيت وكيت، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه، والله الموفق بمنه وكرمه.

وإن كان من الكتاب، كتب: يعلم مجلس القاضي، الأجل، الكبير، العالم، الفاضل، الكامل، الأوحد، فلان الدين، كيت وكيت، والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من القضاة، كتب: يعلم مجلس القاضي، الأجل، الكبير، العالم، الفاضل، الكامل، الأوحد، فلان الدين، كيت وكيت، والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من المشايخ الصوفية، كتب: يعلم مجلس الشيخ، الصالح، الورع، الزاهد،

الأوحد، فلان الدين، كيت وكيت، والباقي من نسبة ما تقدم.
والعنوان لهذه المكاتبة الألقاب التي في الصدر والدعاء بأول سجعة مما فيه من الدعاء والتعريف.
وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في الصورة: المجلس الأميري، الأجل، الكبير، المؤيد، الذخر، المرتضى المختار، فلان الدين. أدام الله عزه فلان الفلاني.
والعلامة تحت البسملة الاسم بقلم مختصر الطومار الثقيل. قلت: ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات وعنواناتها ليست موقوفاً عندها، بل لكل واحد فيه اختيار من تقديم وتأخير وتبديل لقب بلقب، وزيادة ونقص، إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة، مثل زيادة لقب ولقبين وثلاثة، ونقصها.
على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون في الإخوانيات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات.
فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمقر الشريف لأرباب السيوف بعد استيفاء الألقاب المفردة، عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين، زعيم الجيوش، مقدم العساكر، عون الأمة، غياث الملة، ممهد الدول، مشيد الممالك، ظهير الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين. ومع الدعاء للمقر الكريم: عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين، نصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش الموحدين، عماد الدولة، عون الأمة، ذخر الملة، ظهير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين، وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها.
وإن كان من رؤساء الكتاب، قيل: جلال الإسلام والمسلمين، سيد الكبراء في العالمي، رئيس الأصحاب، قوام الأمة، نظام الملة، مدبر الدولة، ذخر الممالك، ظهير الملوك والسلاطين، وكذلك إلى آخر المراتب كل مرتبة بحسبها، وكذلك القول في القضاة ومشايخ الصوفية كل أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورتبته. ثم اقتصروا بعد ذلك على استعمال اللقب المضاف إلى الملوك والسلاطين، مثل ظهير الملوك والسلاطين ونحو ذلك، فحذف كتاب الزمان هذه

الألقاب المركبة جملة اختصاراً، وهو مستحسن، لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ولتحالف المكاتبات الصادرة عن السلطان، فتكون مختصة بالألقاب المركبة دون غيرها.

القسم الثاني: من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة، الأجوبة، وهي على ضربين: الضرب الأول: ما يفتتح من ذلك بما تفتتح به الابتداءات المتقدمة الذكر: والرسم فيها أن يكتب صدر الكتاب أن لو كان ابتداء، ثم يذكر ورود الكتاب المجاوب عنه، ويؤتى بالجواب عما تضمنه، وهو على أبع مراتب: المرتبة الأولى: وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد، أن يعبر عنه بالمثال، وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض وينهي كيت وكيت، وصورته أن يقول بعد كمال الصدر: ورود المثال الكريم العالي أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان، ويذكر ما يليق به من المجلس العالي أو المجلس السامي أو غيرهما، ثم يقول: فقبل المملوك لوروده الأرض، وأدى من واجبه الفرض، وتضاعف دعاء المملوك لتأهيله لغلمانه الأبواب الكريمة، وابتهج بوروده، وحمد الله وشكره على ما يدل عليه، من عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره، إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة أو من عافية مولانا قاضي القضاة، إن كان قاضياً، أو من عافية المخدوم وصحة مزاجه المحروس.

وقابل المملوك المراسيم الكريمة بالامتثال، ففهم ما رسم له به من كيت وكيت، والمملوك لم يكن عنده غفلة ولا إهمال فيما رسم له به. وإن كان ثم فصول كثيرة، قال: فأما ما رسم له به من كيت وكيت فقد امتثله المملوك، ويجاوب عنه. ثم يقول: وأما ما رسم له به من كيت وكيت، فالأمر فيه كيت وكيت، حتى يأتي على آخر الفصول، فإذا انتهى إلى آخرها، قال: وسؤاله من الصدقات العميمة، إمداده بمراسيمه الكريمة وخدمه، ليفوز بقضائها، ويبادر إلى امتثالها، والمملوك مملوكه وعبد بابه الشريف.

المرتبة الثانية: أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمثال العالي بدون، الكريم، وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض وينهي بعد ابتهاله إلى الله تعالى، والابتداء

بيقبل الأرض بعد رفع دعائه، ويقبل الأرض، بالمقر الشريف، ويقبل الباسط الشريف. فأما مع يقبل الأرض بعد ابتهاله، فالأمر على ما تقدم في جواب المكاتبة قبلها، إلا أنه يقتصر على المثال العالي دون الكريم كما تقدمت الإشارة إليه، وأما مع تقبل الأرض بعد رفع دعائه، فإنه يقول بعد تكملة الصدر: ورد المثال العالي أعلاه الله تعالى على يد فلان، فقبله حين قابله، ووقف على ما تضمنه من كيت وكيت، وفرح بما يدل عليه من عافية المخدوم، وحمد الله تعالى وشكره على ذلك، فهم ما أشار إليه من كيت وكيت، ويجاوب عنه، ثم ويقول: والمملوك يسأل إحسان المخدوم بتشريف المملوك بمهماته ومراسيمه ليفوز بقضائها، فإن المملوك وقف المالك، طالع بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه، أو نحو ذلك. وأما مع يقبل الأرض بالمقر الشريف، ويقبل الباسط الشريف، فإنه يقال وورود المثال العالي أيضاً، وربما قيل وورود مثاله العالي. وقد يقال المشرف الكريم العالي على ما تقتضيه رتبة المكتوب إليه، ويرتضيه المكتوب عنه، والباقي على نحو ما تقدم.

المرتبة الثالثة: أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة، على التأنيث، وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد. ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب، فيقال: يقبل الباسطة وينهي ورود المشرفة الكريمة، ومع اليد الشرفة الكريمة، والعالية، وفي معنى ذلك يخدم إذا كتب بها، وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، وإن كان المكتوب عنه يكنى عن نفسه بنون الجمع المقضية للتعظيم. ثم يقول في كل منها: فقبلها المملوك حين قابلها، ووقف على ما تضمنته من محبته ومودته، وفهم ما شرحه من أمر كيت وكيت، ويجاوب عنه، ثم يقول: والمستمد من محبته تشريف المملوك بمراسيمه ومشرفاته وخدمه، ليفوز بقضائها، ويبادر إلى امتثالها فإن المملوك ما عنده غفلة فيما يقضيه رأيه العالي، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

المرتبة الرابعة: أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة، وذلك مع الابتداء بالدعاء بلفظ: ضاعف الله نعمة الجناب العالي، وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالي، وصدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي، أو المجلس السامي، أو هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، أو يعلم مجلس، فيقال: وتوضح لعلمه، أو موضحة لعلمه أو تتضمن إعلامه، أو تعليمه، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة، وورود مكاتبته،

فوقفنا عليها، وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت، ويجاوب عنه، ثم يقول: فيتقدم الجناب أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما تقتضيه الحال، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوائجه.

واعلم أن لكتاب السر أجوبة لنواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتباتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتباتهم على الحضرة السلطانية، وتحسن السفارة في ذلك، ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته.

ففي جواب نائب السلطان بالشام المحروس يكتب ما صورته: وينهي بعد رفع أدعيته الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كل داع مخلص، بدوام أيام مولانا ملك الأمراء، أعز الله تعالى أنصاره، وخلود سعادته عليه، وأن المثال الكريم ورد على المملوك على يد فلان، فنهض له المملوك، وأجمل من تلقيه السلوك، وفضه عن صدقات عميمة، وتفضلات جسيمة، وفرح بما دل عليه من سلامة مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وعافيته وصحة مزاجه المحروس، وتضاعف سرور المملوك بذلك، وتزايد ابتهاجه به، وسأل الله تعالى أن يديم حياة مولانا ملك الأمراء، أعز الله أنصاره، ويبقيه، وانتهى إلى ما تضمنته الإشارة في معنى تجهيز المشار إليه إلى خدمة الأبواب الشريفة بما على يده من المكاتبة الكريمة، وما رسم به من القيام في خدمتها وعرضها بين يدي المواقف الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها، وقابل المملوك الإشارة الكريمة بالامتثال بالسمع والطاعة، وبار إلى ما رسم به، وقد عرض المملوك المكاتبة الكريمة على المسامع الشريفة، كتب الجواب الشريف عن ذلك بما سيحيط بع العلوم الكريمة، وعاد بذلك إلى خدمة مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره. والمملوك مولانا ملك الأمراء عز نصره، ومحبه القديم، والمعترف بإحسانه وصدقاته، ويسأل تشريفه بالمهمات والخدم، أنهى ذلك، إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني: من الأجوبة ما يفتتح بورود المكاتبة مصدراً بلفظ: وردت أو وصلت أو وقفت على المكاتبة، وما أشبه ذلك.

مثل أن يكتب: ورد المثال الكريم الفلاني: وذكر سلامته أخلى من ذكر الأوائل،

وقد تطرز منه طرازاً أشرف من طراز الغلائل، وما سكن القلب إلى شيء كسكونه إليه، ولا رأى وارداً أكرم منه عليه، فقابل نعمة قدومه بدوام شكرها، وطوى صحائف الآمال إلا من نشرها، فإن كان وجه الأيام مقطباً استغنى ببشر وجهه الميمون عن بشرها، فإن حسن في رأيه الإجراء على عوائد إحسانه من التشريف بمراسيمه وخدمه والمواصلة بها، نالت النفس من ورودها نهاية أربها.
قلت: أما الأجوبة المطلقة، وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكتاب، وعيون أهل الأدب، ممن له ملكة في الإنشاء، وقوة في النظم والنثر، فإنها لا تتوقف على ابتداء مخصوص، ابتداء لا جواباً، بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات، وقد تكون بغير ذلك من الافتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة، بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها، بل ربما اقتصر فيها على الشعر خاصة دون النثر.

المهيع الثاني: في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم، من أعيان الدولة

بمملكة الديار المصرية، وما تستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما الحال مستقر عليه في زماننا.
اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به، إلى ما فوق رتبته أو مساو له في الرتبة أو دونه فيها، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة: الطبقة الأولى: من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ككافل السلطنة، وهو نائب السلطان بالحضرة، وأتابك العساكر، ونائب السلطنة الشام، والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب المرتبة الأولى: من يكتب له عن هذه الطبقة الفلاني بالمطالعة، وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام في رأيه، أتابك العساكر بالأبواب الشريفة، وكان ما كتب له المخدومي الأتابكي فلان

الفلاني، باللقب المضاف إلى لقب السلطان، أتابك العساكر المنصورة.
المرتبة الثانية: من يكتب إليه الأبواب بمطالعة ومن يكتب إليه بذلك عليه السلام النائب الكافل بالحضرة، والأتابك نائب السلطنة بالشام، فقد قال في التثقيف: إن بهذه المكاتبة يكتب أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أظن، وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام الداودار وأميراخور، ومقدمو الألوف بالديار المصرية، وأكابر الأمراء مقدمي الألوف بالشام، وكافل المملكة الشريفة الحلبية.

المرتبة الثالثة: من يكتب له عن هذه الطبقة الأبواب بغير مطالعة وبذلك يكتب عن كافل السلطنة بالحضرة إلى نائب السلطنة بحلب. وقد ذكر في التثقيف: أنه كان يكتب بذلك عن الأمير يلبغا العمري، يعني الخاصكي، وهو اتابك الديار المصرية، إلى نائب الشام أيضاً. ثم قال: وكذلك كتب بعده إلى نائبي الشام وحلب، الأمير منكلي بغا، والأمير الجاي، ونواب السلطنة بالديار المصرية، وبذلك يكتب عن النائب الشام إلى كل من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية وكذلك الوزير وكاتب السر بها.
المرتبة الرابعة: من يكتب له عن هذه الطبقة الباب الكريم والباب العالي، أما الباب الكريم، فإنه يكتب بذلك عن النائب الكافل والأتابك. وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإستادار الأملاك الشريفة، وناظر الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظر الخواص، وناظر الدولة، وحاجب الحجاب بالشام، وقاضي السلطنة بحماة، ونائب السلطان بصفد، ونائب السلطنة بالكرك.
المرتبة الخامسة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة يقبل الأرض بالمقر الشريف، وبذلك يكتب النائب الكافل والأتابك، إلى نائب طرابلس، ونائب حماة، ونائب صفد، ونائب الإسكندرية، وأمراء الألوف بالديار المصرية، وبه يكتب عن نائب الشام.
المرتبة السادسة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة الباسط الشريف وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى مقدم العسكر بغزة، ومقدم العسكر بسيس، ونائب السلطنة بالكرك، وحاجب الحجاب بالشام، وحاجب الحجاب بحلب.

المرتبة السابعة: من يكتب له عن هذه الطبقة الباسطة الشريفة وممن يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضي القضاة الشافعي بحلب.

المرتبة الثامنة: من يكتب له عن هذه الطبقة اليد الشريفة أو اليد الكريمة، أو اليد العالية، وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى نائبي الوجه القبلي والوجه البحري بالديار المصرية، ونائب القدس، ونائب حمص، ونائب الرحبة، ونائب البيرة، ونائب قلعة المسلمين، ونائب ملطية ونائب دبركي، ونائب الأبلستين، ونائب طرسوس، ونائب أذنة، ونائب بهسنا، وأمراء الألوف بالشام وحلب. وبذلك يكتب أيضاً، عن نائب الشام إلى أمراء العشرات بالديار المصرية، وقضاة العسكر بها، وحاجب الحجاب بحلب، والقضاة الثلاثة: الحنفي، المالكي، والحنبلي، بها.

المرتبة التاسعة: من يكتب له عن هذه الطبقة أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم. وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصفقة القبلية، وغلى الأمراء مقدمي اللوف بالشام، وناظر الجيش به، وأمير آل الفضل، ونائب حمص، وكاتب السر بحلب، ونائب المملكة بها، ونائب دوركي، ونائب درندة.

المرتبة العاشرة: من يكتب له عن هذه الطبقة أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم، وبذلك يكتب إلى نائب الشام إلى نائب قلعة الشام، والحاجب الثاني بها، ووكيل بيت المال بها، ومقدمي الألوف بحلب، ونائب الجيش بها، ونائب الرحبة، ونائب الأبلستين، ونائب ملطية، ونائب قلعة المسلمين، ونائب بهسنا، ونائب البيرة، ونائب جعبر، ونائب الرها، ونائب حسبان.

المرتبة الحادية عشرة: من يكتب له عن هذه الطبقة أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالشام، ونائب القدس، ونائب بعلبك، ومتولي صيدا، والطبلخاناه بحلب، ووكيل بيت المال بها، والمحتسب بها، وناظر خاص البريد بها، وأمير حاجب بصفد.

المرتبة الثانية عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي. وبذلك يكتب عن نائب الشام، إلى والي قطيا، وربما زيد فيه الكريم.

المرتبة الثالثة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: أدام الله تعالى نعمة الجناب

العالي. وبذلك يكتب إلى نائب الشام إلى أمراء العشرات بمصر، وأمراء العشرينات بالشام، والمحتسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بني عقبة، وأكابر عرب آل فضل، وأمير عرب آل علي، وأمير آل موسى، ونائب مصياف، ومتولي بيروت.

المرتبة الرابعة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: المجلس العالي مع الدعاء. وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالي المدينة، ووالي البر فيها، والحاجب الثاني بغزة، وأمير آل مرا، ومقدم عرب جرم، ومقدم بني مهدي، وأمراء العشرينات بحلب.

المرتبة الخامسة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: صدرت والعالي. وبذلك يكتب عن نائب الكافل والأتابك، إلى كاشف الوجه البحري من الديار المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالي أسوان، وكاشف الجسور من أمراء الطبلخاناه بالوجهين، القبلي والبحري بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب بحماة، وحاجب الحجاب بصفد. وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى أجناد الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بحمص، وأمراء العشرات بحلب.

المرتبة السادسة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: صدرت والسامي. وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والي قوص، ووالي منفلوط، ووالي الأشمونين، ووالي البهنسا، ووالي منوف، ووالي الغربية، ووالي الشرقية، ووالي قطيا، ونائب مصياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عينتاب، والحاجب الكبير بغزة. وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام، وأعيان الجند بها، ومقدم بني مهدي، ومتولي الصلت وعجلون، ومتولي صرخد، والحاجب الصغير بحمص، ووالي تدمر، ومقدم إقليم الخروب بصيدا، ومقدم إقليم النعاج، ووالي البقاعين، ووالي بلنياس.

المرتبة السابعة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: هذه المكاتبة وبذلك يكتب عن نائب الكافل والأتابك، إلى والي الجيزية، ووالي أطفيح، ووالي قليوب، ووالي

أشموم الرمان بالديار المصرية، وبذلك يكتب أيضاً إلى نائب الكختا، ونائب كركر، ونائب حجر شعلان، ونائب سرفندكار، ونائب القصير، ونائب بغراس، ونائب الراوندن، ونائب الشغر وبكاس، ونائب الرها، ونائب الدربساك، ونائب شيزر بالمملكة الحلبية، وإلى نائب اللاذقية، ونائب صهيون، ونائب حصن الأكراد، ونائب حمص، ونائب المرقب، ونائب بلاطنس، ونائب الكهف، ونائب القدموس، ونائب الخوابي، ونائب العليقة، ونائب المينقة من أعمال طرابلس، ونائب شقيف تيرون من معاملة صفد. وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بمصر، وإلى كاشف الرملة، ومتولي حسبان، وحامي الخربة.
واعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات عن نائب الشام مكاتبات أخرى إلى من هو خارج عن المملكة، وهم على مراتب: المرتبة الأولى: من يكتب له عنه: يقبل الأرض: صاحب بغداد، كما كان يكتب للقان أحمد بن أويس، كان يكتب إليه في ورق قطع نصف الحموي بقلم الثلث الصغير: يقبل الأرض لدى الحضرة الشريفة، العالية، المولوية، السلطانية، العالمية، العادلية، المؤيدية، المالكية، القانية، ولا زالت عزماتها مؤيدة، وآراؤها مسددة، وينهي إلى العلم الكريم. صاحب السراي: ودشت القبجاق مثله بأبسط ألقاب.
المرتبة الثانية: من يكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف ابن السلطان أحمد بن أويس المذكور. وورقه نظير ورق والده، وقلمه نظير قلمه، صاحب هراة: مثله.

المرتبة الثالثة: من يكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، صاحب ماردين: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالي، المولوي، الكبيري، العادلي، السلطاني، الملكي، الفلاني، ورفع مقداره، وأجزل مباره. المملوك يجدد الخدمة العالية، ويصف أشواقه المتوالية، وينهي لعلمه الكريم. صاحب برصا: من بلاد الروم، وهو ابن عثمان. والرسم فيه على ما كان يكتب لأبي يزيد بن مراد بك بن عثمان: أعز الله تعالى أنصار المقر الكرين، العالي، المولوي، الكبيري، العالمي، العادلي، العوني، الغياثي، الممهدي، المشيدي، الزعيمي، الغازي، المجاهدي،

المثاغري، المرابطي، العابدي، الناسكي، الزاهدي، المقدمي، الأتابكي، المحسني، الظهيري، الملكي، الفلاني، معز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، مبيد المشركين، قامع أعداء الدين، مقتلع الحصون من الكافرين، عون الأمة، عماد الملة، ذخر الدولة، ظهير الملوك والسلاطين، حاكم البلاد الرومية، صاحب برصا وقيسرية، سيف أمير المؤمنين، قهر الله أعداء الدين الحنيفي بعزائمه وسطوته، وجعله مؤيداً في حركاته وسكناته، وأيده في جهاده واجتهاده بالنصر الذي لا يفارق ألوية أعلامه ورواياته، ولا زالت رعاياه محبورة، وعساكره منصورة، هؤلاء بجوده وهباته، وهؤلاء بوجوده وحياته، المملوك يقبل اليد التي لا زال القصد بها يزيد، وبحر البر من أناملها مديد، ونوالها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد، ويصف صفاء محبة يتضاعف نماؤها كل يوم جديد، وتترادف تحيات أشواقها بالمولاة والتحميد، ويتؤامر بهادي رسائلها بصدق المودة الدائمة على التأبيد، ويبدي إلى العلم الكريم.

قلت: كذا رأيته في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الكيب، كاتب سر الشام كان. وفيه اضطراب وتخليط من نعته في ألقابه بقوله الملكي الفلاني، وقوله سيد الأمراء في العالمين، حيث وصفه أولاً بأوصاف الملوك، ثم وصفه بأوصاف الأمراء، إلى غير ذلك من الخبط الذي لا يخفى على متأمل.

المرتبة الرابعة: أعز الله تعالى أنصار المقر العالي، وزير صاحب بغداد، وورقه قي قطع الحموي بقلم الثلث الخفيف. قاضي بغداد: مثله بسوء. صاحب لارندا، من بلاد الروم بمملكة بني قرمان. ويقال في ألقابه: الأصيلي نوين التوامين، مجهز المقانب، ذخر القانات. صاحب سيواس، من البلاد الرومية أيضاً. صاحب آياس لوق، من البلاد الرومية. صاحب جولموك، من بلاد الأكراد.

المرتبة الخامسة: الجناب الكريم صاحب حصن كيفا، من بلاد الجزيرة، ويقال فيه: الملكي الفلاني، مقدم التركمان البياضية.

المرتبة السادسة: الجناب العالي، صاحب أرزنجان. صاحب جزيرة ابن عمر من بلاد الجزيرة. صاحب أنطاليا من بلاد الروم. ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الجبال.

المرتبة السابعة: المجلس العالي، صاحب ميافارقين من بلاد الجزيرة صاحب أكل، من جزيرة أيضاً صاحب قلعة الجوز صاحب جرموك صاحب أماسيا، من بلاد الروم نائب ماردين خادم صاحب ماردين صاحب بطنان صاحب سنجار، من بلاد الجزيرة صاحب حاسك، صاحب أزبك صاحب الموصل صاحب سنوب صاحب بوشاط صاحب الدربند صاحب عين دارا صاحب الحمة صاحب خلاط صاحب طلان صاحب تاخ صاحب جمشكزاك نائب كربزاك صاحب القنطرة نائب خرت برت صاحب البارعية صاحب حران صاحب العمادية صاحب حاني نائب خرت مازكرد نائب صالحية ماردين أمير التركمان الشهرية صاحب أشنة.

الطبقة الثانية: ممن يكتب عنهم أعيان الدولة بالديار المصرية، من يكتب له عن السلطان: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، وهو نائب السلطنة بحلب.

والمكاتبة عنه على مراتب: المرتبة الأولى: الفلاني بمطالعة وهو نائب الكافل بالحضرة السلطانية، وأتابك العساكر بالمنصورة.

المرتبة الثانية: الأبواب بمطالعة وهو نائب السلطنة بالشام، والأمير الدوادار بالأبواب السلطانية، وأستاد الديار بها، وأكابر الأمراء المتقدمين الخاصكية.

المرتبة الثالثة: الأبواب بغير مطالعة. وبذلك يكتب إلى نائب الشام.

المرتبة الرابعة: الباب الكريم. وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرابلس، ونائب السلطنة بصفد، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المتقدمين بالحضرة ممن دون الخاصكية، وفي معنى ذلك الوزير، وكاتب السر، وناظر الخاص، وناظر الجيش، ومن في معناهم.

المرتبة الخامسة: يقبل الأرض بالمقر الشريف. وبذلك يكتب إلى حاجب الحجاب بالشام.

المرتبة السادسة: يقبل الباسطة وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام، وحاجب الحجاب بحلب، وحاجب الحجاب بحماة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وقاضي القضاة الشافعي بحلب، وكاتب السر بها.

المرتبة السابعة: يقبل اليد الشريفة. وبذلك يكتب إلى نائب البيرة، ونائب ملطية،

ونائب قلعة المسلمين، ونائب جعبر ونائب الرها، ونائب الأبلستين، ونائب حمص، وأمراء الطبلخاناه بدمشق.

المرتبة الثامنة: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، وبذلك يكتب إلى نائب طرسوس، ونائب الرحبة، والحاجب الثاني بطرابلس، ومقدمي الألوف بها، والقضاة الثلاثة: المالكي، والحنفي، والحنبلي بحلب. إلا أنه يقال: أعز الله تعالى أحكام المقر.

المرتبة التاسعة: أعو الله تعالى أنصار المقر الكريم العالي، وبذلك يكتب إلى نائب بهنسى، ونائب الرحبة، وأكابر الطبلخاناه بالشام، ومن تولى الإمرة من عرب آل فضل ثم عزل، وقضاة العساكر المنصورة بحلب، وناظر المملكة بها، وأمير آل علي.

المرتبة العاشرة: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، وبذلك يكتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بحلب، والحاجب الثالث والرابع بها، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فضل.

المرتبة الحادية عشرة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي وما في مهناه مما يكتب به إلى أرباب الأقلام وغيرهم، وبذلك يكتب إلى نائب شيزر، وأمراء الطبلخاناه بحلب، غير الأعيان، وناظر الأملاك الشريفة بحلب، وناظر خاص البريد وموقعي الدست بها.

المرتبة الثانية عشرة: صدرت والعالي. وبذلك يكتب إلى نائب عينتاب ونائب الراوندن، ونائب الكختا، ونائب كركر، ونائب بغراس، ونائب الدربساك، ونائب الشغر وبكاس، ونائب القصير، وأمراء العشرينات بحلب، وأعيان العشرات بها.

المرتبة الثالثة عشرة: صدرت والسامي. وبذلك يكتب إلى مقدمي الحلقة بحلب، ومقدمي البريدية بها، وأعيانهم.

المرتبة الرابعة عشرة: السامي بغير الياء. وبذلك يكتب إلى والي سرمين، ووالي الباب، ووالي غزاز، ووالي أنطاكية، ووالي حارم، ووالي كفر طال، ووالي الجبول، ووالي منبج، ووالي تل باشر، وأجناد الحلقة بحلب، وصغار البريدية بها، وعداد التركمان وعداد الأكراد.

واعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات الصادرة عن نائب حلب مكاتبات أخرى إلى من هو خارج عن المملكة، كما تقدم في المكاتبات الصادرة عن نائب الشام، وهي على مراتب: المرتبة الأولى: المكاتبة بيقبل الأرض: القان صاحب بغداد كما كان يكتب إلى القان أويس وابنه أحمد: يقبل الأرض بالمقام الشريف العالي، المولوي، السلطاني، الأعظمي، الأوحدي، الملاذي، العطوفي، المحسني، القاني، الملكي الفلاني، الجلالي، أعلى الله تعالى شانه، وأعز سلطانه، وأمكن من رقاب الأعداء مكانهن ولا زال لواؤه يتأزر بالنصر ويرتدي، وفناؤه يروح إليه العز ويغتدي، وعزمه يثقف صرف الزمان فلا يعتاد أن يعتدي، ولا برح محموداً في موقف النصر موقفه، ماضياً في هامات أعدائه مرهفه. وينهي بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة، " فتقبلها ربها بقبول حين " وموالاة شفعها فلذات بها الأسماع لذاذة الأعين الساهرة بالوسن، أن الأمر كيت وكيت.

المرتبة الثانية: من يكتب له أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف: صاحب ماردين. والرسم أن يكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف، العالي، المولوي، الكبيري، العالمي، العادلي، السلطاني، الملكي، الفلاني، ويدعى له نحو: لا زالت أيامه مسعودة، وأبوابه مقصودة، وألوية النصر بنواصي خيله معقودة، المملوك يقبل اليد الشريفة، ويقوم من الخدمة بأكمل وظيفة، وينهي لعلمه الكريم بعد السلام الزكي، والثناء المسكي، كيت وكيت، فيحيط بذلك علمه الكريم، ويتحف بالمشرفات على عادة فضله العميم.

المرتبة الثالثة: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم. وبذلك يكتب إلى ابن قرمان نائب السلطنة بالبلاد القرمانية، حاكم جولموك، صاحب برصا وهو ابن عثمان صاحب آياس لوق.

المرتبة الرابعة: المقر العالي وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا والوزير بالممالك القانية وقاضيها.

المرتبة الخامسة: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، وبذلك يكتب إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم.

المرتبة السادسة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي. وبذلك يكتب إلى نائب كربزاك، وحاكم أماسيا، وحاكم سنوب، والحاكم بخرت برت.

المرتبة السابعة: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي. وبذلك يكتب إلى نائب ماردين، ونائب الصالحية، وبعض خدام صاحب ماردين.

المرتبة الثامنة: صدرت والعالي، وبذلك يكتب إلى حاكم حران، ونائب مازكرد، وحاكم قلعة الجوز.

الطبقة الثالثة: ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية. ومن يكتب إليه عن السلطان ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي. كوزير المملكة بالديار المصرية، وناظر الخاص، على ما استقر عليه الحال آخراً. وأرباب الوظائف من الأمراء المتقدمين بها، كأمير سلاح، وأمير مجلس، وأميرخور، والداوادار، وإستادار، وحاجب الحجاب، ونائب الإسكندرية، وكذلك نواب السلطنة بطرابلس، وحماة، وصفد، من الممالك الشامية.

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على تسع مراتب: المرتبة الأولى: الفلاني بمطالعة وهم: النائب الكافل، وأتابك العساكر، ونائب الشام.

المرتبة الثانية: الأبواب بمطالعة. وبذلك يكتب على نائب حلب.

المرتبة الثالثة: الأبواب بغير مطالعة وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس، ونائب حماة، ونائب صفد، ونائب الكرك، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه الطبقة.

المرتبة الرابعة: الباب الكريم. وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين البلي والبحري بالديار المصرية، ومقدمي العسكر بغزة وسيس، لأمراء المقدمين المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال.

المرتبة الخامسة: يقبل الأرض بالمقر الشريف إن قصد تعظيمه، أو الباسط الشريف إن لم يقصد، وبذلك يكتب إلى المرتبة السادسة: يقبل اليد العالية. وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض. وربما انحطت رتبة أحد هؤلاء فيكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، أو نصرة الجناب الكريم، أو ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي.

المرتبة السابعة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي، وبذلك يكتب إلى كاشف الوجه البحري وكاشف الفيوم والبهنساوية.
المرتبة الثامنة: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي. وبذلك يكتب إلى الولاة الطلبخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية، كقوص والمحلة، وغيرهما، وربما كتب صدرت والعالي لأحدهم.
المرتبة التاسعة: صدرت والسامي. وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية.
الطبقة الرابعة: ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية، من يكتب إليه عن السلطان أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي، ككاتب السر وناظر الجيش، وكذلك الحجاب الطبلخاناه بالديار المصرية. وعلى ذلك كان ناظر الخاص في الزمن المتقدم، فلما جمع للصاحب شمس الدين المقسي بين الوزارة ونظر الخاص، كما يكتب عنه بما يكتب عن الوزراء كما تقدم. فلما انفصل الخاص عن الوزارة روعي في الخاص ذلك القدر، فكتب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير، والأمر على ذلك إلى الآن.
والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقات على مراتب: المرتبة الأولى: الفلاني بمطالعة. وذلك يكتب إلى النائب الكافل، والأتابك، ونائب الشام، وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب، فكتبوا إليه الفلاني.
المرتبة الثانية: الأبواب بمطالعة. وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرابلس، وحماة، وصفد، وثغر الإسكندرية.
المرتبة الثالثة: الأبواب بغير مطالعة، وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية، ومقدمي العسكر وسيس، وربما كتب إلى أحدهم الباب الكريم.
المرتبة الرابعة: الباسط الشريف. وبذلك يكتب إلى نائب الكرك.
المرتبة الخامسة: يقبل الباسطة، وبذلك يكتب إلى نائب القدس الشريف، ونائب الرحبة، وكاشف الوجه البحري، وكاشف الفيوم بالديار المصرية.

المرتبة السادسة: يقبل اليد العالية. وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري، بالديار المصرية.

المرتبة السابعة: يخدم الجناب العالي. وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحري أيضاً.

قلت: وعلى هذه الطبقات الأربع يقاس من دونهم ممن يكتب إليه عن السلطان، صدرت والعالي، كنائبي القدس والرحبة، ومن يكتب له: هذه المكاتبة، كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري، ومن يكتب له: يعلم كالولاة العشرات بالوجهين أيضاً. على أن الغالب في مثل هؤلاء أن تكون الكتابة عنهم لأعيان الدولة، الفلاني بمطالعة وفيمن هم مثلهم أو دونهم يقاس على ما تقدم.

والعم أن هذه المراتب المضمنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم في الوقوف عند حدها، بحيث لا يجوز تجاوزها بزيادة ولا التأخر عنها بنقص، بل هي على سبيل التقريب، والأمر في زيادة رتبة المكتوب إليه زيادة لا تخرجه عن حده في المقدار موكول إلى اختيار الكاتب، يزيد في ذلك وينقص، بحسب ما تقتضيه الحال من رفعة قدر المكتوب إليه، لمزيد رفعته عن نوعه، أو محاباته لاستمالته إلى القصد المطلوب منه، أو الغض منه بحطيطة رتبته أو نحو ذلك.

الفصل السابع من الباب الثاني من المقالة الرابعة في مقاصد المكاتبات

وهي الأمور التي تكتب المكاتبات بسببها وهي الجزء الأعظم من صناعة الترسل وعليها مدار الكتابة إذ الولايات من مقاصد المكاتبات وهي أهم ما تضع به الكاتب وألزم ما مهر فيه وهي قسمان:

القسم الأول مقاصد المكاتبات السلطانيات وهي على نوعين

النوع الأول ما يكتب عن الخلفاء والملوك وهو على ثلاثة أضراب

الضرب الأول ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم

مما هو مستعمل الآن مما كان عليه الحال في الزمن القديم مما يقل ويكثر تداولها، ويتكرر تداوله في الكتابة وسائر المكاتبات في الحوادث المألوفة التي يكثر تداولها وتتكرر الكتابة فيها بتكرر وقائعها وما رسم الكتابة به باق إلى زماننا وإن تغير مصطلح الأبتداء والخطاب وغيرهما من رسوم المكاتبات. وهو على أصناف:

الصنف الأول الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة

قال في مواد البيان: جرت العادة أن تنفذ الكتب إلى ولاة الأعمال في مثل هذه الحالة، متضمنة ما جرى عليه الأمر بالحضرة، من انقياد الأولياء والرعايا إلى الطاعة، ودخولهم في البيعة بصدور منشرحة، وحض من الأعمال من رجال السلطان ورعيته على الدخول فيما دخل فيه أمثالهم، وإعطاء الرعايا على لك صفقة أيمانهم.

وقد كان الرسم فيها أن يصدر بحمد الله تعالى على عوارفه التي لم تزل تكشف الخطب، وترأب الشعب، وتدفع المهم، وترفع الملم، وتجير الوهن، وتسبغ الأمن، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر خصائصه ومناقبه، وتشريف الله تعالى له بإقرار الإقامة في أقاربه، وتخصصها ببني عمه الذين هم أحق الناس به، وما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من طلب مودته من

الأمة بقوله جل من قائل: " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا مودة في القربى " ، وما أشار إليه صلى الله عليه وسلم من بقاء الخلافة فيهم بقوله لعمه العباس: " ألا أبشركم يا عم، بي ختمت النبوة وبولدك تختم الخلافة: وما يجري مجرى ذلك. ثم يتلو ذلك بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها، والإبانة عن رفيع مكانها ومحلها، وأنها ظل الله الممدود، وحبله المشدود، ومساك الدين ونظامه، وملاك الحق وقوامه، وامتنان الله تعالى على العباد بأن جعل فيهم أئمة يقسطون العدل عليهم، ويقيمون الحدود فيهم، ويقيمون أديانهم، ويهذبون إيمانهم، ويرهفون بصائرهم، ويهدون حائرهم، ويكفون ظلومهم، وينصفون مظلومهم، ويجمعون كلمتهم، ويحمون ذمارهم، ويحيطون ديارهم، وما يجري مجرى ذلك. ثم يذكر ما أوجبه الله تعالى على أهل الإسلام للإمام من الطاعة محسن التباعة أيام حياته، والانقياد لأمره في طاعة من ينص عليه في القيام مقامه بعد وفاته، ليتصل حبل الإمامة بينهم، ويمتد ظل الخلافة عليهم، فإن كان قد تلقى الخلافة بعهده عن خليفة قد مات، من أب أو غيره، أتى بمقدمة ذكر الموت، وأن الله تعالى سوى فيه بين بريته وجعل في طريقه إلى رسوله أسوة لخليقته، وتفرد بالبقاء، وامتنع عن الفناء، ثم يقال: وإن الله تعالى لما اختار لعبده ووليه فلان النقلة إلى دار كرامته، والحلول بفناء طاعته، وأعانه على سياسة بريته، وأنهضه بما حمله، وأيده فيما كفله، من الذب عن المسلمين، والمراعاة في الدين، والعمل بكتابه وسنته في القول والفعل، واستشعار خيفته ومراقبته في السر والجهر، وما يليق بهذا استخلص عبده ووليه فلاناً الإمام الفلاني لخلافته، وأهمى سماء الرحمة بغمامته، وأحل عزيز النصر بولايته، وألقى في تنفيس رأيه النص عليه، والتفويض إليه، لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد، وعموم الأمنة للبلاد، فأمضى، قدس الله روحه وما ألهمه، وكمله قبل خروجه من ديار الدنيا وتممه، عالماً بفصل اختياره، وإنه يمل به الهوى في إثارة، فقام أمير المؤمنين الإمام الفلاني مقامه، وحفظ نظامه، وسد ثلمته، وعفى رزيته، وأقر الله تعالى الإمامة به في نصابها ومقرها، وزاد باستخلافه في صيت الخلافة وقدرها.

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وليه السعيد بقربه بأفضل صلواته،

وأشرف تحياته، ويحسن جزاءه في سعيه في صلاح العباد، وسداد البلاد، وأن يلهم أمير المؤمنين الصبر على تجرع الرزية فيه ويجزيه أفضل ما جزى به صابراً محتسباً، وأن يجبر كسره في فقده، ويوفقه لجميل العزاء من بعده، ويسدده في مصادره وموارده، ويهديه لما يرضيه في جميع مقاصده، ويعينه على تأليف الأهواء، وجمع الآراء، ونظم الشمل، وكف القتال، وإرخاء الظل.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد اجتمع من بحضرته، من ذوي جهته وأمراء دولته، وكافة جنده وجماعة حوزته على بيعته، وإعطائه صفقة أيمانهم على طاعته ومشايعته، عن صدور مخلصة نقية، وسرائر صافية سليمة، وعقائد مشتملة على الوفاء بما عقدوا عليه، وانقادوا مختارين إليه، وشملتهم بذلك الرحمة، وضفت عليهم النعمة، فما برحوا الرزية، حتى فرحوا بالعطية، ولا وجموا للمصيبة، حتى بسموا للرغيبة، ولا اظلموا لفقد الماضي، حتى أضاء الوجود بالآتي.

فلله الحمد على هذه النعمة التي جبرت الوهن، وحققت في فضله المن، حمداً يستدر اختلاف فضله، ويستدعي سابغ طوله، وصلى الله على محمد وآله، وأمير المؤمنين يراك من أهل مخالصته، والمتحققين بطاعته، وهو يأمرك أن تأخذ البيعة له على نفسك، وعلى جميع أوليائه المقيمين قبلك، وكافة رعاياه الذين هم في عملك، وتشعرهم بما عنده للمسارعين لطاعته، المبادرين إلى اتباعه، من تيسير الإنصاف والعدل، وإضافة الإحسان والفضل، وما لمن نكب عن الطريقة المثلى، وحاد عن الأولى، من الكف الرادع، والأدب الوازع، ويتوسع في هذا المعنى توسعاً يشرح صدور أهل السلامة، المستمرين على نهج الاستقامة، ويردع أهل الفساد، ويغض من نواظر ذوي العناد، ويحلي الكتاب بآيات من القرآن الكريم تحسن استعارتها في باب العزاء، ويليق ذكرها في باب الإشادة بالخلافة والخلفاء. فإن كان الكتاب مما يقرأ بالحضرة، قال في موضع وكتاب أمير المؤمنين إليك: وأنتم معاشر أقارب أمير المؤمنين، من إخوته وبني عمه وخواص الدولة وأمرائها وأجنادها وكتابها وقضائها وكافة رعيتها، ومن اشتمل عليه ظل مملكتها، أحق من حافظ على عوارف أمير المؤمنين واعتد بلطائفه، وقام بشكر نعمته، وسارع إلى

اتباعه واعتصم بحبل دعوته، فاجتمعوا على متابعته، وإعطائه صفقة أيمانكم على مبايعته، ليجمع الله على التأليف كلمتكم، ويحمي بالتأزر بيضتكم، وينبع ذلك من وعد أهل الطاعة بما يضاعف جدودهم، ومن وعيد أهل المعصية بما يصفر خدودهم، على نسف ما سبق في الترتيب.

وهذه نسخة كتاب في المعنى، كتب به عن الآمر بأحكام الله تعالى عند استقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله، والدولة مشتملة على وزير، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي: الحمد لله المتوحد بالبقاء، القاضي على عباده بالفناء، الذي تمجد بالأزلة والقدم، وتفرد بالوجود وتنزه عن العدم، وجعل الموت حتماً مقضياً على جميع الأمم.

يحمده أمير المؤمنين على ما خصه به من الإقامة التي قمصه سربالها، وورثه فخرها وجمالها، حمد شاكر على جزيل العطية، صابر على جليل الرزية، مسلم إليه في الحكم والقضية، ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي ثبتت حجته، ووضحت محجته، وعلت كلمته، وأنافت على درج الأنبياء درجته، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جعل الله الإمامة كلمة في عقبه باقية، وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقية، وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين، صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه وصلى عليه، كان من أوليائه الذين اصطفاهم لخلافته في الأرض، وجعل إليهم أزمة البسط والقبض، وقام من أوق الإمامة، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. رضاً بقضائه، وصبراً على بلائه، وإجزال حظه عليه من الأجر والثواب، وإمداده في خلافته بمواد الإرشاد والصواب، بكرمه.

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا، بعد أم جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء، عمومته وأوليائه وخدم دولته، وسائر أجناده، وعبيد مملكته وعامة شيعته، وأصناف رعيته، وأنوار الخلافة عليه مشرقة، وأغصان الإمامة مثمرة مورقة، والسيد الأجل الأفضل الذي أمده الله في نصرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فوضحت أنوارها

للبصائر والأبصار، وشهر له من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار، يتولى الأمر بحضرته تولي الكافل الزعيم، ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم، والناس داخلون في البيعة بانشراح صدور، وإظهار ابتهاج وسرور، يعطون صفقة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الحظ في طاعة إمام زمانهم، قد تحققوا شمول السعد وعموم الرشاد، وتيقنوا الخيرة لهم في العاجلة والمعاد، وأمير المؤمنين يعزيك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته، عن المعصية في الإمام المستعلي بالله صلى الله عليه التي قطعت من النفوس أملها، وأسكنت الألباب جزعاً وولهاً، ويهنيك وإياهم دولته التي تهلل لها وجه الزمان، واستهلت بها سحائب الفضل والإحسان. وأمير المؤمنين يحمد الله الذي أقر الحق في منصبه، وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرد به.

فاعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسيم، والنبأ العظيم، واشكر الله على ما جدده لك ولكافة المسلمين، من نعمة بإمامة أمير المؤمنين، التي أوفت بإساءة الزمان وجنايته وشفت من داء كلمه ونكايته، وتقدم إلى الدعاء قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، واستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والاجتهاد في مناصحته، والتمسك بعصم مشايعه، لتنالوا في العاجلة حظاً جسيماً، وتحرزاً في الآجلة أجراً كريماً: : ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً " .
وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين على الحاضرين قبلك، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين عملك، ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد، وصلاح البلاد، وكتب في اليوم المذكور.
وهذه نسخة كتاب من الآمر بأحكام الله المقدم ذكره، كتب إلى الولاة الأطراف بعد قراءة عهده، مهنئاً بخلافته، وتجيد ولايته، من إنشاء ابن الصيرفي، أيضاً، وهي:
أما بعد فالحمد لله مولي المنائح من نعمه، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه، ومعود الصنع الجميل من لطفه وكرمه، الذي له الحكم الظاهر عدله، ولديه الطول

الفائض فضله، وعنده مفاتح الغيب وإليه يرجع الأمر كله.
يحمده أمير المؤمنين على ما أفرده به من سني المواهب، ونظمه له من عقود المناقب، ونقله إليه من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب، وتزينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة الكواكب، ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي نشر الله به الرحمة، وكشف الغمة وأنقذ الأمة، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، والمذكور في زبر الأولين، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين، صلاة باقية إلى يوم الدين.
وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها، ومن ألطفها مكاناً، وأشرفها محلاً وشاناً، وأولاها بأن تستنطق به الأقلام، وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاص والعام، ما خص الله به أمير المؤمنين من المنن الظاهرة، وتولاه من المنح المتظاهرة، وأصاره إليه من الخلافة في أرضه، واستخلفه عليه من القيام بسنن دينه وفرضه، واسترعاه إياه من حياطة بلاده، وأوجبه من طاعته على كافة خلقه وعباده، وذخره لدولته من كفيله وخليله، ومقيم أدلة حقه وموضح سبيله، السيد الأجل الأفضل الذي ارتضاه الله للذب عن الإسلام، وانتضاه لنصرة إمام بعد إمام، وشهر مناقبه في كل موقف ومقام، وخصه بفضائل لم تر مجتمعة لملك من ملوك الإسلام، لا جرم أن أمير المؤمنين قد أحله منه محل الروح من الجسد، والوالد من الولد، وفوض الأمور إليه تفويض معول على يمن نقيبته معتمد، مبالغ في حسن الاختيار للأمة مجتهد، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسن ما جرى به مخلصاً جمع في الإيمان بين القول والعمل، بكرمه.

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجل الأفضل عند مثوله بحضرته وإنهائه الأمر دولته وأحوال مملكته، على أمرك الذي استحمده في الخدمة، واستحقت به إضافة الإحسان وإسباغ النعمة، وأن لك في الدولتين المستنصرية والمستعلية من الخدمة المشكورة، والمساعي المبرورة، ما يدل على مناصحتك وإخلاصك، ويبعث على اصطناعك واستخلاصك، أمر بكتب هذا السجل لك مؤكداً لأواخيك ومعرباً عن رأيه الجميل فيك، مجدداً من ولايتك،

ومجرباً لك فيها على مستمر رسمك ومستقر عادتك. فقابل نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يربطها، ووفها من حق الاجتهاد ما يقرها عندك ويثبطها، واجعل تقوى الله تعالى عمادك، واطو عليها طويتك واعتقادك، وكمن في نفوس الأولياء جميل رأي أمير المؤمنين فيهم، وإحماده لمواقفهم في الخدمة ومساعيهم، وحقق عند كافة المستقرين لديك، والواردين عليك، ما يكنفون بع من الأمر الشامل، ويغمرون به من حسن النظر المتواصل، واجر على العادة المألوفة في إفاضة العدل والإنصاف وتنكب سبيل الجور والإجحاف، ومهد السبيل قبلك، واحم من أسباب الفساد ولايتك وعملك، واخصص متولي الحكم والدعوة الهادية – ثبتها الله تعالى – بالإعزاز والرعاية، ووفر حظهم من الملاحظة والعناية، وخذ المستخدم في الخطبة العلوية بإقامتها في أوقاتها، على أفضل قوانينها وواجباتها، معلناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذي يتوج فروق المنابر، ويشنف أسماع البوادي والحواضر، وتوفر على ما ثمر الأموال وأنمائها، وغزرها ورخاها، وقضى بوفورها ومواصلة حمولها، وانظر في أمر الرجال المستخدمين معك نظراً يؤدي إلى مصلحتهم، فاعلم هذا من أمير المؤمنين، واغتبط بما أصاره الله إليه اغتباط أمثالك من المخلصين، واعتقد طاعته اعتقاد من يجاريه من أهل اليقين، واعمل بوصاياه ومراشده تحظ في الدنيا والدين، وطالع بالكائن منك بعد قراءة هذا السجل على كافة الناس أجمعين، وكتب كذا وكذا.

والعم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن خليفة بانتقال الخلافة إليه، يكتب ملطف عن وزير، يلف كتاب الخليفة ضمنه، ويوجه به إلى حيث المقصد. وهذه نسخة ملطف في هذا المعنى، كتب به عن وزير في الدولة الفاطمية، ليلف كتاب الخليفة طيه وهو: ينطوي هذا الأمر الوارد على الأمير على كتاب مولانا الإمام الفلاني لدين الله، أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، أو: أبنائه المنتظرين، إن كان لا ولد له، بما اصاره إليه من شرف الإمامة، وبوأه إياه من مقام العظمة والكرامة، إثر انتقال الإمام فلان أمير المؤمنين، – قدس الله روحه – إلى جوار ربه. فاعتمد العمل بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك وتلاوته إلى رؤوس الأشهاد، وإذاعة مكنونه في

الحاضر والباد، على رسم المعتاد، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.
قلت: وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جار في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان، ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك، والأمر على ما تقدم في الخلافة من العتزية بالماضي، والتهنئة بالمستقر، ونحو ذلك مما يجري مجراه.

وهذه النسخة مكاتبة بالبشارة بجلوس الملك صالح ابن الملك الناصر محمد قلاوون تحت التخت، في شهر رجب الفرد سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وبعد خلع الملك الناصر حسن، وصورتها بعد الصدر والألقاب: وأورد عليه من البشائر أسنى البشر، وأسمعه من التهاني ما انتشى حديثه بين البرايا وانتشر، وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل مليكهم صالح البشر.

صدرت هذه المكاتبة إلى فلان وبصريها مقدماً بالظفر، وذكرها قد ملأ الأقطار فجمع عليه كل قلب كان قد نفر، تهتدي إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر، وثناء يحصل منه على النصيب الأوفر، وتوضح لعلمه أن الجنايات العالية الأمراء الأكابر، أمراء الدولة الشريفة، ضاعف الله نعمتهم، كانوا قد عظموا أخانا الناصر، وحكموه، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن، وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وامتثال الأمر في كل جليل وحقير، فلم يرع لهم ذلك، ولا ألتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة، واتفق مع الصبيان، وأراد القبض على الأمراء، وإمساك الجنايات العالية الأمراء الأكابر والإيقاع بهم. فلما تحققوا من ذلك اجتمعت الأمراء، واتفقت الكلمة على خلعه من الملك الشريف وإقامتنا، فخلع المشار إليه، وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسي السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله، ومبايعته لنا، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة، أعز الله تعالى أحكامهم، وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جاري العادة في ذلك، وضربت عند ذلك البشائر، وشهد هذا الهناء كل باد وحاضر،

وتشنفت الأسماع وقرت الأعين واستقرت الخواطر، وابتهجت بذلك الأمم، وتباشرت بهذا السعد الذي كتب لنا من القدم، وأصبح كل من أنصاره دولتنا الشريفة مبتهلاً بالدعاء مبتهجاً.
فليأخذ المقر حظه من هذه التهنئة، وليذع خبرها لتكون المسار معيدة ومبدية، ويتحقق ما له عندنا من المكانة، والمحل الذي زان بالإقبال الشريف زمانه ويتقدم أمره الكريم بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالمملكة الفلانية، ويتقدم أيضاً بضرب البشائر بالزينة على العادة.
وقد تجهز إلى الجناب العالي نسخة يمين شريفة يحلف عليها، ويكتب خطه، ويجهزها إلينا صحبة المجلس السامي، الأمير، الأجل، الكبير، العضد، الذخري، النصيري، الأوحدي، عضد الملوك والسلاطين، يلبغا الحموي الصالحي، أدام الله علوه، المتوجه بهذا المثال الشريف، وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بطرابلس ويكتبوا خطوطهم ويجهزها إلينا على العادة صحبة المشار إليه. وقد جهزنا للجناب العالي صحبة المشار إليه تشريفاً شريفاً كاملاً، فيتقدم الجناب العالي بتسلمه منه ولبسه، ويتحقق ما له عندنا من المكانة والمنزلة، ويعيد الأمير سيف الدين يلبغا المشار إليه إلى الباب الشريف، ويحيط علمه بذلك.

الصنف الثاني من الكتب السلطانية الكتب في الدعاء إلى الدين

وهو من أهم المهمات

قال في مواد البيان: أشرفه ما ينشئه الكاتب الدعاء إلى دين الإسلام الذي أظهره الله تعالى عىل كل دين، وأعزه على كره المشركين، واستجرار مخالفيه إليه، واجتذاب الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه، عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، لأنه قوام الملك ونظام السلطان اللذان لا يصحان إلا به.
قال: والكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكتب إلى علم التوحيد وبراهينه، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه، ومعجزاته، وآيات نبوته، ليتوسع في

الإبانة من ظهور حجته، ووضوح محجته.

ثم قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله الذي اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره، وقدسه وطهره، وجعله سبيلاً إلى رضاه وكرامته، وطريقاً إلى الزلفى في جنته، وشفيعاً لا يقبل عمل عامل إلا به، وباباً لا يصل واصل إلا منه فلا يغفر السيئات إلا لمن اعتصم بحبله، ولا تتقبل الحسنات إلا من أهله، وشكره تعالى على الهداية إليه، والتوفيق عليه، وذيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه، ونوره من تبيانه، وتمجيده من تعظيم آياته، وباهر معجزاته، وحكيم صنعته وبديع فطرته، وتنزيهه عما لا يليق بسلطانه، ولا يجوز إضافته إلى عظيم شانه، وتسبيحه عما يصفه به الملحدون، ويختلقه الجاحدون، والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والإفصاح عن دلائل نبوته، وبراهين رسالته، وما خصه الله تعالى به من إعلاء وإمداده بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

ثم يتبع ذلك بالدعاء إلى الدين والحض عليه، وإيضاح ما في التمسك به من الرشاد في داري المبدأ والمعاد، والتبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه، ومن تمحيض السيئات، ومضاعفة الحسنات، وعز الدنيا وفوز الآخرة، والإنذار بما وعد الله به الناكبين عم سبيله، العادلين عن دليله، من الإذلال في هذه الدار، والتخليد بعد العرض عليه في النار، وتصريف المخالفين بين الرغبة والرهبة، في العاجل والمغبة.

قال: وينبغي أن يتأنى الكاتب فيما يورده من هذه الأغراض، ليقع في المواقع اللائقة به، ويجلو الحجج في أحسن المعاريض، ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس، فإنه إذا وفق لذلك، ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد، وأقر السيوف في الأغماد، ثم قال: ومن صدقت في هذا الفن رغبته، أيد الله تعالى غريزته، وعضد بديهته ورويته.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قد بطل في زماننا، فلم يعهد أم ملكاً من الملوك كتب إلى بلاد الكفر بالدعاية إلى الدين، إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغلبة والقوة والقهر، كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم والكفر مقهور معهم،

مذلول لديهم. أما الآن فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله: " ونصرت بالرعب مسيرة شهر " وفي رواية: " ونصرت أمتي " لاجتاح أهل الكفر الإسلام، ولكن الله وعد دينه أن لا يخذل.

الصنف الثالث من الكتب السلطانية الكتب بالحث على الجهاد

قال في مواد البيان: كما أن الدين ينتظم بالدعاء إليه والترغيب فيه، كذلك ينتظم بصيانة جوزته، وما دخل في مملكته، وكف أعدائه عن تنقص أطرافه، والتغلب على بلاده. ولهذا الغرض فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه، وأكد الأمر فيه وشدده، والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرق المخالفين إلى بعض الثغور، أو شن الغارة على أهل الإسلام، أن يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء، وصون حريم الملة، وحفظ نظام الدولة.

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه، على إعزاز الكلمة، وإسباغ التعنة باظهار هذه الملة، وما وعد الله به من نصر أوليائه، وخذلان أعدائه، وإدالة الموحدين، وإذالة الملحدين، والصلاة على سوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وذكر طرف من مواقفه في الجهاد، ومقارعته لشيع الإلحاد، وتأييد الله تعالى على أهل العناد، ثم يذكر الحادثة بنصها، ويشرح القصة على فصها، ويندب من جاوره ودناه من أهل الملة أجمعين، ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم في نصرة الدين وكافة المسلمين، واتباع سبيل السلف الصالحين، الذين خصهم الله تعالى بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر، وصحة الدين، ووثاقة اليقين، فم يكونوا ليرموا مراماً إلا سهل لهم ما توعر، ويسر عليهم ما تعسر وسما بهم ما هو أقصى منه مرمى وأبعد مدى، وأن يحضهم على التمسك بعزائم الدين والعمل على بصائر المخلصين، وافتراض ما فرض الله عليهم أعدائه، وتنجيز ما وعدهم به من الإظفار بهم والإظهار عليهم، وأن يجاهدوا مستنصرين، ويؤدوا الحق محتسبين، ويقدموا رسلاً لا ناكصين ولا شاكرين ولا مرتابين، متبعين الحق حيث يمم

وقصد، ومضاربين دونه من صد عنه وعند، ويبالغ في تنخية أهل البسالة والنجدة، والبأس والشدة، ويبعثهم على نصر حقهم وطاعة خالقهم، والفوز بدرك الثواب والرضوان، وتنور البصائر في الإيمان، وفضيله الأنف من الضيم، والبعد من الذيم، إلى غير هذا مما يعدل الأرواح والمهج، والإقدام على مصارع التلف. فإن الملوك الماضين لعلمهم بأن الناس إنما يجودون بذلك للفوائد التي توجبه، كانوا يبذلون لمن يدعونه إلى المكافحة، ويعرضونه للمذابحة، الرغائب التي تهون عليهم إلقاء نفوسهم في المهالك تارة، ويذكرونهم الأحقاد والضغائن. ويخوفونهم من الوقوع من الوقوع في المذلة أخرى.

ثم قال: وينبغي للكاتب أن يقدم في هذه الكتب مقدمات، يرتبها على ترتيب يهز الأريحات، ويشحذ العزائم، ليجمع بين خدمة سلطانه والفوز بنصيب من الأجر.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الحكم إلى زماننا. فما زالت الملوك يكتبون إلى ما يليهم بالحث على الجهاد، والقيام بأوامره، والحض على ملاقاة العدو، والأخذ بنصرة الدين. وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات في أول هذه المقالة، أن الشيخ شهاب الدين محموداً الحلبي ذكر في حسن التوسل أنه إذا كتب الملك في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور، يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم، أنه يبسط القول في وصف العزائم، وقوة المهم، وشدة الحمية للدين، وكثرة العساكر والجيوش، والوثوق بعوائد الله في الظفر، وتقوية القلوب منهم، وبسط آمالهم، وحثهم على التيقظ، وحضهم على حفظ ما بأيديهم من ذلك وما أشبه. وأنه يبرز ذلك في أبين كلام وأجله، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة، وأبعد من اللين والرقة، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى واستنزال نصره وتأييد الرجوع إليه في تثبيت الأقدام، والاعتصام به في الصبر، والاستعانة به على العدو، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم، ورجاء تأخيرهم، وانتظار العرضيات في تخلفهم، لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم، واستشعار الوهن والخوف منهم، وأن زيادة البسط ونقصها في ذلك بحسب المكتوب إليه.

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك السلطان إلى بعض نواب الثغور، من إنشاء الشيخ

شهاب الدين محمود الحلبي، أوردها في حسن التوسل وهي: أصدرناها ومنادي النصر قد أعلن بياخيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا وفود الظفر والتأييد اقربي، والعزائم قد ركضت على سوابق الركض إلى العدا، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من قربها، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوفت إلى الارتواء من قلبها، والكماة قد زأرت كالليوث إذا دنت فرائسها، والجياد قد مرحت لما عودتها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها، والجيوش قد كاثرت النجوم أعدادها، وسار بها للهجوم للدين نار غضبها، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنبها، والنصر قد أشرقت الوجود دلائله، والتأييد قد ظهرت على الوجوه مخايله، وحسن اليقين بالله إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المآل أوائله، والألسن باستنزال نصر الله لهجة، والأرجاء بأرواح القبول أرجة، والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبتهجة، والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه، والنيات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعة، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها وكان مع الله كان الله معه، وما بقي إلا طي المراحل، والنزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البد الماحل، والإحاطة بعدو الله من كل جانب، وإنزال نفوسهم على حكم الأمرين الآخرين، من عذاب واصب وهم ناصب، وإحالة وجودهم إلى العدم، وإجالة الشيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قدم، واصطلامهم على ما بأيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها، وابتلاؤهم من حملاتها بريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها، فليكن مترقباً طلوع طلائعها عليه، متيقناً من كرم الله استئصال عدوه الذي إن فر أدركه من ورائه وإن ثبت أخذته من بين يديه، وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وضمها، وجمع سوائم الرعايا من الأماكن المخوفة ولمهان وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها، فإن الاحتياط على كل حال من آكد المصالح الإسلامية وأهمها، فكأنه بالعدو وقد زال طعمه، وزاد ظلمه، وذم عقبى مسيره، وتحقق سوء منقلبه ومصيره، وتبرأ منه الشيطان الذي دلاه

بغروره، وأصبح لحمه موزعاً بين ذئاب الفلا وضباعها، وبين عقبان الجو ونسوره، ثقة من وعد الله وتمسكاً منه باليقين، وتحققاً أن الله ينصر من ينصره والعاقبة للمتقين.

وهذه نسخة مرسوم كريم في المعنى، بل هو أصرح في ذلك ما قبله، كتب به عند ظهور الفرنج اللوسارية والشوال بالبحر، من إنشاء الشيخ بدر الدين بن حبيب الحلبي، وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه، ولقيام النائب بالمملكة قيام السلطان الذي استنابه، وهو: المرسوم بالأمر العالي أعلاه الله تعالى، ولا زالت مراسمه النافذة تبلغ أهل العصابة المحمدية غاية الآمال، وأوامره المطاعة تفضي بكسر اللوسارية وشين الشوال، أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطرابلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة، وأذل بسيوفهم الطائفة الكافرة، بارتداء ملابس الجهاد، والتحلي بمرارة الصبر على اجتلاء الجلاد، وأن يجيبوا داعي الدين، ويكفوا أيدي المعتدين، ويفرقوا سهامهم، ويجعلوا التقوى أمامهم، ويشرعوا رماحهم، ويحملوا سلاحهم، ويومضوا بروق السيوف، ويرسلوا نبال الحتوف، ويهدموا بنيان الكفار، ويطلعوا أهلة القسي بمد الأوتار، ويهضموا جانب أهل العناد، ويقابلوا البحر بملء بحر من الجياد، ويناظروا أمواجه بأمواج النصال، ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال، ولا يهملوهم بالنهار ولا بالليل، ويعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، فإذا استنفروا فلينفروا، ويبالغوا في الغدو والرواح ليبلغوا الرعية من الأمن أمانيها. فقد قال صلى الله عليه وسلم: " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها " . ويعتمدوا على القريب المجيب، ويجتهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب، وينافسوا في أمر الآخرة ويدعوا الدنيا، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، ويشهدوا المواقف، ويبذلوا التالد والطارف، وليبرز الفارس والراجل، ويظهر الرماح والنابل، فإن الجهاد، سطوة الله تعالى على ذوي الفساد، ونقمته القائمة على أهل الشرك والعناد، وهو من الفروض الواجبة، التي لم تزل سهام أصحابه صائبة، فواظبوا على فعله، ولا تذهبوا عن مذهبه وسبله، واطلبوا أعداء الله براً وبحراً، وقسموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً،

وفاجئوهم بمكروه الحرب، وناجوهم برسائل الطعن والضرب، وخذوا من الكفار باليمين، وجدوا في تحصيل الربح الثمين، ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطغاة والمشركين، " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين " ، وسابقوا الأعنة، وهزوا أعطاف الأسنة، وشمروا عن سياق العزائم، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، واتخذوا الخيام مساكن، واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن، وانصبوا الألوية والأعلام، وأطفئوا جمرة الشرذمة الغائظة للإسلام، ولا تخشوا من جميعهم الآئل إلى التفريق، وحشدهم الذي هو عما قليل إن شاء الله تعالى غريق، ولا تعبأوا بسفنهم البحرية فإن سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح، ولا تنظروا إلى مجاذيفهم الخشبية، فإن مجاذيفكم السيوف والرماح، فاقلعوا قلوعهم، وشتتوا جموعهم، وأذهبوا الجنف والحيف، وخاطبوا بألسنة السيف، وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز ناراً، وادعوا الله أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً، ونكسوا صليبهم المنصوب، وبادروا إلى حرب حزبهم المغلوب، وارفعوا باليقين شك هذه المحنة، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، واهجروا في ذات الله طيب المنام، وانقلوا الأقدام إلى الأقدام، واكشفوا عنكم أستار الملال والملام، واهتموا بما يعلي كلمة الإسلام، فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتمييز، "ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز".

الصنف الرابع من الكتب السلطانية الكتب في الحث على لزوم الطاعة وذم الخلاف

قال في مواد البيان: طاعة السلطان والانقياد إليه، والرجوع إلى رأيه والاعتماد عليه، أبدى الأسباب، في استمرار الاتساق والاستتباب، وهي فرض أوجبه الله تعالى. فقال: " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " ، ولا تصح مملكة ولا تدوم دولة إلا بأمرين، أحدهما عدل السلطان، والآخر طاعة الرعية له، فمتى

ارتفع أحدهما، فسد السائس والمسوس، ولم تزل ملوك الأزمنة يقدمون إلى الرعايا لزوم الطاعة، والاعتصام بحبل الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعة.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بالحمد لله على النعم، في تأليف قلوب أهل الدين، وجمع كلمة الموحدين، ورعاية أهوائهم إلى الاتفاق، وصيانة عصاهم عن الانشقاق، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتنبيه على فضائل الطاعة، فإنها العروة الوثقى، والمعقل الذي لا يرقى، والحصن الحصين، والكنف الأمين، والحمى الأمنع، والمرقب الأرفع، وأن من حافظ هعليها فاز وسلم، وربح وغنم، ومن فارقها خسر وخاب، ونكب عن سبيل الصواب، وإيضاح ما في سبيل الطاعة من اتفاق الكلمة، وانتظام شمل الأمة، وشمول الخيرات، وعموم البركات، وعمارة البلاد، وصلاح العباد، وما في المشاققة من الفساد العام، العائد بانتثار النظام، وانبتات الحبل، وتفرق الشمل، واجتثاث الأصل، وطموس الديار، وصيال الأشرار، وانقماع الأخيار، وتوالي الفتن التي لا يصيب الظالم خاصة دون العادل، ولا المشاقق دون الموافق، وحلول النوائب المزيلة للنعم، وإتباع ذلك بما يجب من إعذار وإنذار، وترهيب وترغيب، وتذكير وتبصير، ووعظ وتخويف، وبعث العلماء الحصفاء، على ردع الجهلاء السخفاء وتنبيه أهل السلامة والصلاح، على كف ذوي العيث والطلاح، إلى نحو هذا مما يجاريه. وأن يبالغ فيما يورده من هذه المعاني، فإن هذه الكتب إذا كانت بليغة مستوفاة جيدة العبارة، أخذت بمجامع القلوب، وأغنت عن الكتائب في إدراك المطلوب.

وهذه المكاتبات في المعنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسله، وهي: أما بعد، فإن الله أفترض الطاعة وأوجبها، وأمر بها ورغب فيها، وجعلها عصمة في كل فتنة، وضياء من كل شبهة، وسلامة من كل هلكة، وسبباً لظفر بخير الدنيا والآخرة، من أراد الله به خيراً وفقه لها، وألزمه المحافظة عليها والاعتصام بحبلها، فتعجل عزها وشرفها، وسعتها وأمنها، واستحق السعادة في الدار الآخرة بها، والمثوبة عليها.

آخر: وقد علمتم ما جعل الله في الطاعة ولزومها، والمحافظة عليها، من العز

والمنعة والأيد والفوز بخير الدنيا والآخرة وما في خلافها من صنوف، وأنواع المتالف.
آخر: وقد كانت الطاعة أنافت بك على كل ظليل، وأفضت بك إلى لين مهاد عند إقضاض المضاجع، وصفاء المشارب عند تكدر المناهل، واتصال أمنة عند حدوث المخاوف، حتى فعلت كذا وكذا.
آخر: فلم يمرق من طاعته مارق، ولا فارقها مفارق، إلا صرع الله خده، وأتعس جده، وخضد شوكته، وأكذب ظنه وأمنيته، وجعله لسيوف الله غرضاً، ولأوليائه غنيمة.
آخر: والطاعة في العروة الوثقى، والطريقة المثلى، والغنيمة لأهلها في الأخرى والأولى.
عبد الحميد: فإن الفتنة تتشوف لأهلها بآنق منظر، وأزين ملبس، تجر لهم أذيالها، وتعدهم تتابع لذاتها، حتى ترمي بهم في حومات أمواجها، مسلمة لهم، تعدهم الكذب وتمنهم الخدع، فإذا لزمهم عضاضها، ونفر بهم شماسها، وتخلت عنهم خاذلة لهم، وتبرأت منهم معرضة، قد لبسوا أجمل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم، من الغناء البهي منظره، الجميل أثره، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم، والإيجاف في التعب، وسوء المنقلب، فمن آثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولاته، وتحرز بالدخول في الجماعة تاركاً لأثقل الأمرين، وأوبل الحالين.

ابن عبدكان في ذم الخلاف: وإن كان فلاناً عبداً من عبيدنا، اعتوره إنعامنا، ونوه به إكرامنا، وشرفه ولاؤنا، وحسن عنده بلاؤنا، وابتنينا له الأموال، وأسنينا له الأعمال، وأوطأنا عقبه الرجال، فلم تقع النعم منع عند شاكر، ولا الصنيعة عند محتمل، فلما رفع الله بمكاننا حسيسته، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وانبساط يده ما كانت ما كانت همته تعجز عنه، وآماله تقصر دونه، أضراه ذلك وأبطره، وأطغاه وأكفره، فاختال زاهياً، واستكبر عالياً، وغدر باغياً، وشاق عاصياً، وأوضع في الفتنة لنا حرباً، ولأعدائنا حزباً، ولمن انحرف عنا يداً، ولمن

مال إلينا ضداً، من غير سبب أوجبه، ولا أمر دعاه إليه، فكان كما قال الله عز وجل في كتابه: " كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " ، وكقوله: " ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض " ، فلما ورده الخبر بما هيأ الله لنا من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السارة لأوليائنا، الغائظة لأعدائنا، سقط في يده، وفكر في غليظ جرمه وخيانته، فأداه الخوف الذي استشعره، والإشفاق الذي خامره، إلى أن ركب عظيماً في الأمور، وكاشف بالمعصية والغرور، مكاتفاً أعداء، وموالياً ذوي العداوة والنشارة، ونرجو بحلول الله وقوته، وإرادته ومشيئته، وما لم يزل الله – تقدس اسمه – يجزيه عندنا من جميل عاداته فيمن سفه الحق، وزاغ عن القصد، أن يبسل هذه الخائن بخبائث أعماله، ويسلمه لقبائح أفعاله، وأن يصرعه بأسوأ مصارع أمثاله، فإن أحداً لم يحمد النعمة، إلا استدعى النقمة، ولم يذع الشكر، ويستعمل الكفر، إلا كانت العثرة منه قريبة، والبلايا محيطة، قولاً لا يبدل رسمه ولا يحول.

من كتاب موسى بن عيسى: أما بعد، فإن امرأ لو خلص من فلتات الخطأ وخطوات الملأ، بفضيلة رأي ولطافة بصر بالأمور، كنت أحجى بذلك دون أهل زمانك، للذي جرت لك عليه تصاريف التبع وتعرضت لك به وجوه العبر، ولما استقبلت من موارد أمور نفسك، وتعقبت من مصادر أمور غيرك، ولكن الله إذا أراد أمراً جعل له من قضائه سبباً، ومن مقاديره عللاً، فمن مقادير علل البلاء تضييع المعرفة، وإلغاء ما تفيده التجربة، ومن أسباب السلامة الانتباه بالعبر، والاستدلال بما كان على ما يكون. وأنت امرؤ جرت لك وعليك أنحاء من النعم، وأنحاء من الحجج، عرفت بها ما لك وما عليك، فإن تأخذ بها، عرفت كيف تسلك كسالكه، وإن تدع الأخذ بذلك، تدعه على علم. وقد رأيت الذي انقادت لك به النعمة، ووهبت لك به العافية، فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك، والصبر لها على مواطن الحق التي رفع الله بها ذكرك، وأحسن عليها عقباك وذخرك، فلم تمض بك في طاعتهم رتبة، إلا قربك الله بها من الخير عقبة، ولا تبذل من نفسك نصحاً، إلا أوجب لك به نحجاً، ولم تفتأ تواتر ذلك، من مناصحتك وحسن طاعتك، حتى طلت بها على من طاولك، وفضلت بها على فاضلك، وجريت ممدوداً عنانك

إلى قصوى غايات أملك، فأصبحت قريع المسلمين، بعد خليفة أمير المؤمنين، وخيرته من خلفه، بعد ذوي الفضل من أهل بيته، حتى تمالك من رجالات العرب نظير في منزلة، ولا نديد في حال ولا رتبة، بل هم فيك رجلان: إما راهب منك، وإما راغب فيك.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الكتابة إلى زماننا. فلما زالت الملوك يكتبون إلى من يتخيلون منه خلع الطاعة من النواب ومن في معناهم، ويحثونهم على لزوم الطاعة، ويحذرونهم المخالفة والخروج عن الجماعة.

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى متملك سيس عند كسرة التتار، بعد قيامه معهم في المصاف، ومساعدته إياهم، وهو: بصره الله برشده، وأراه مواقع غيه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده، وأسلاه بسلامة نفسه عمن روعته السيوف الإسلامية بفقده.

صدرت تعرفه أنه قد تحقق ما كان من أمر العدو الذي دلاه بغروره، وحمله التمسك بخدعه على مجتنبة الصواب في أموره، وأنهم استنجدوا في كل طائفة، وأقدموا على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة، وذلك بعد أن أقاموا على البلاد مدة يشترون المخادعة بالموادعة، ويسرون المصارمة في المسالمة، ويظهرون في الظاهر أموراً، ويدبرون في الباطن أموراً، ويعدون كل طائفة من أعداء الدين ويمنونهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، وكنا بمكرهم عالمين، وعلى معاجلتهم عاملين، وحين تبين مرادهم، وتكمل احتشادهم، استدرجناهم إلى مصارعهم، واستجررناهم ليقربوا في القتل من مضاجعهم، ويعبدوا في الهرب عن مواضعهم، وصدمناهم بقوة الله صدمة لم يكن لهم من قبل، وحملنا عليهم حملة ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل، وهل يعصم من أمر الله جبل، فحصرناهم في ذلك الفضاء المتسع، وضايقناهم كما رؤي ومزقناهم كما قد سمع، أنزلناهم على حكم السيف الذي نهل من دمائهم حتى روي وأكل من لحومهم حتى شبع، وتبعتهم جيوشنا المنصورة تتخطفهم رماحها، وتتلقفهم صفاحها، ويبددهم في الفوت رعبها، ويفرقهم في القفار طعنها المتدارك وضربها، ويقتل من فات

السيوف منهم العطش والجوع، ويخيل للحي منهم أن موضعه كالدنيا التي ليس للميت إليها الرجوع، ولعله قد رأى من ذلك فوق ما وصف عياناً، وتحقق من كل ما جرى ما لا يحتاج أن نزيده به علماً ولا نقيم عليه برهاناً.

وقد علم أن أمر هذا العدو المخذول ما زال معنا على هذه الوتيرة، وأنهم ما أقدموا إلا نصرنا الله عليهم في مواطن كثيرة، وما ساقتهم الأطماع في وقت ما إلا إلى حتوفهم، ولا عاد منهم قط في وقعة آحاد تخبر عن مصرع ألوفهم، ولقد أضاع الحزم من حيث لم يستدم نعمة الله عليه بطاعتنا التي كان في مهاد أمنها، ووهاد يمنها، وحماية عفوها، وبرد رأفتها التي كدرها بالمخالفة بعد صفوها، يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويحمي أهل ملته بالحذر عن الحركات التي ما نهضوا إليها إلا وجروا ذيول الخسار، ولقد عرض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطوتها في أمان، ووثق بما ضمن له التتار عناء كان عنه في عنى، وأوقع روحه بمظافرة المغل في حومة السيوف التي تخطفت أولياءه من هنا ومن هنا، واقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه، واغتر هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره " فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه " وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسرة؟ وأنى لضعاف النقاد قدرة على الثبات لوثوب الأسود الضارية والليوث الأكاسرة؟ لقد اعترض بين السهم والهدف بنجره، وتعرض للوقوف بين ناب الأسد وظفره، وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصل إليها، ونجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين لا نؤيسهم من عفونا ما استقاموا، ونسلك فيهم حكم من أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قبضتنا، نزحوا أو أقاموا، ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسى ملازمة ربقة الحتف خناقه، ولا يرجع إلى الموت من ذاقه؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبتذل السيوف الإسلامية مصونه، ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا يقبل، ويستملك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تسبل، ويعجل بحمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في الجملة ما يحمل منها إلينا، ويسلم مفاتح ما عدا عليه من فتوحنا وإلا غهو يعلم أنها وجميع ما تأخر

من بلاده بين يدينا، ويكون هو السبب في تمزق شمله، وتفرق أهله، وقلع بيته من أصله، وهدم كنائسه، وابتذال نفسه ونفائسه، واستراق حرمه، واستخدام أولاده قبل خدمه، واستقلاع قلاعه، وإحراق ربوعه ورباعه، وتعجيل رؤية ما وعد به قبل سماعه، ومن لغازان أن يحاب إلى مثل ذلك، أو يسمح له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك، لينفع بما أبقت جيوشنا المؤيدة في يده من الخيل والخول، ويعيش في الأمن ببعض ما نسمح له به ومن للعور بالحول، والسيوف الآن مصغية إلى جوابه لتكف إن أبصر سبيل الرشاد، أو تتعوض برؤوس حماته وكماته عن الإغماد إن أصر على العناد، والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الصنف الخامس من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكث العهد من المخالفين

قال في مواد البيان: إذا نقض معاهد عهده، أو نفض من شروط الهدنة يده، فالرسم أن يصدر ما يكتب به بالحمد لله تعالى موهبته في إظهار الدين، وإعزاز المسلمين، وما تكفله من النصر على الباغين، ووعد به أهل العدل من الإدالة والتمكين، والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين، وإيراد طرف من معجزاته وفضائله، وآياته ومناقبه التي تنخرط في هذا النظام، وتليق بهذا النمط من الكلام، ثم يتبع ذلك بمقدمة تدل على متانة البصائر في الدين، ووثاقه العقائد في إذالة المحادين، ومضاء العزائم في مجاهدة المعتدين، والاستطالة على المعاندين، مع ما تضمنه الله تعالى من نصره وإظفاره، ووعد من تأييده وإقراره، وسهله من إهواء الأهوية إليه، وجمع الكلمة عليه، بما خوله من بأس وشدة، وعديد وعدة، وما يليق بذلك مما يعرب به عن علو السلطان، ووفور الإخوان، واتساع القوة والأيد، وصدق العزم والجد. ثم يذكر الحال التي انعقدت الهدنة عليها، وأن الإجابة إليها لم تقع قصوراً عن غزوهم في عقر دارهم، وتشريدهم بالغارات المبثوثة براً وبحراً عن قرارهم، وإنما قبولاً لمساءلتهم،

وامتثالاً لأمر الله تعالى فيها عليهم، والمعاقل المنتزعة من أيديهم، وأن تلك العزائم مضطرمة متوقدة، وتلك السيوف مشحذة مهندة، وأن الله تعالى قد أباح حرم من نقض عهده، ونفض من الذمام يده، وأن كتائب الله موجفة وراء هذا الكتاب، في جيش يلحق الخبت بالهضاب، ما لم يكن منهم مبادرة إلى الإقلاع والإنابة، ومكاتبة في الصفح والاستتابة، وأنه قد قدم الأعذار، وبدأ قل الإقدام بالإنذار، وما تقتضيه الحال من هذا ومثله.

وقال: فإن كان الكتاب جواباً عن ورد، أجيب بما ينقضه، وبني الأمر فيه على ما يبسط الهيبة، ويدعو إلى النزول على أحكام الطاعة. ويختلف الحال في ذلك باختلاف الأمور الحادثة، والأسباب العارضة، فينبغي للكاتب أن يحتاط فيما يطلق به قلمه من هذه المعاني الخطيرة، لأنها مزاحمة بالدول والملك، وحجج تحصل من كل دولة عند الآخرين، ودرك ما يقع فيها عائد عليه، ومنسوب إليه.

وهذه النسخة كتاب كتب به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي بالديار المصرية، إلى النصراني الأرمني الذي كان استوزره، ثم خرج عليه رضوان بن ولخشي، ارتغاماً للدين، لتحكم نصراني في أهل الملة، وولي الوزارة مكانه، ففر هارباً على الشام ناقضاً للعهد، كتب إلى الحافظ يطلب أهله وجماعته من الأرمن الذين كانوا معه في جملة جند الديار المصرية، مظهراً للطاعة والرغبة إلى التخلي عن الدنيا، والانقطاع في بعض الديرة للتعبد مكراً وخديعة، فكتب له بذلك جواباً عن كتابه الوارد منه، ونص ما كتب إليه: عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الوارد منك أيها الأمير، المقدم، المؤيد، المنصور، عز الخلافة وشميها، تاج المملكة ونظامها، فخر الأمراء، شيخ الدولة وعمادها، ذو المجدين، مصطفى أمير المؤمنين. ووقف على جميعه، واستولى بحكمه على مضمونه.

فأما ما وسعت القول فيه وبسطته، وتفسحت فيما أوردته منه ذكرته، مما فحواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعة، والولاء والمشايعة، والاعتراف بنعم الدولة عليك، والإقرار بإحسانها إليك، فلعمر أمير المؤمنين إن هذا الذي يليق بك ويحسن منك، ويحسن أن يرد عنك، ويجب أن يعرف لك، وقد كانت الدولة أسلفتك من حسن الظن قديماً، ونقلتك في درجة التنويه حديثاً، حتى رفعك إلى أعلى المراتب،

وبلغك ما لم تسم إليه همة طالب، وأوطأت الرجال عقبك، وجعلت أهل الدولة تبعك، مما أغنى اعترافك به عن الإطالة بشرحه، والإطناب في ذكره.

وأما ما ذكرته مما كان أمير المؤمنين أعطاك التوثقة عليه، فأجابك منه إلى ما رغبت فيه، فاستقر بينه وبينك في معناه ما اطمأننت إليه، فلم يزل أمير المؤمنين على الوفاء باطناً وظاهراً، ونية وعلانية، واعتقاده أن لا يرجع عنه، ولا تغير ما أحكمه منه، وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كافة المسلمين في البعد والقرب غضبوا لملتهم، وامتعضوا مما لم يجربه عادة في شريعتهم، ونفرت نفوسهم مما يعتقدون أن الصبر عليه قادح في دينهم، ومضاعف لآلامهم، وانه ذنب لا يغفر، ووزر لا يتجاوز ولا صفح عنه حتى إن أهل المشرق أخذوا في ذلك وأعطوا، وعزموا على ما اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مؤونته والاشتغال به.

وأما ما التمسته من تسيير من الباب من طائفتك إليك، فهذا أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله، ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه. والآن فلن يخلو حالك من أحد القسمين، إما أن تكون متعلقاً بأمور الدنيا وغير منفصل عنها، فأمير المؤمنين يخيرك في ولاية أحد ثلاثة مواضع، إما قوص، أو خميم، أو أسيوط، فأيها اخترت ولاك إياه، ورد أمره والنظر فيه إليك، على أن تقتصر من الذين معك على خمسين أو ستين فارساً، وتسير الباقين إلى الباب ليجروا على عادتهم، ورسومهم في واجباتهم وإقطاعاتهم، إذ كانوا عبيد الدولة ومتقلبين في فضلها، وأكثرهم متولدون في ظلها. وإما أن تكون على القضية التي ما زالت تذكر رغبتك فيها وإيثار لها، من التخلي عن الدنيا ولزوم أحد الديرة، والانقطاع إلى العبادة فإن كنت مقيماً على نحو ذلك فتخير ضيعة من أي الضياع شئت يكون فيها دير تقيم فيه وتنقطع إليه، فتعين الضيعة ليجعلها أمير المؤمنين تسويغاً لك مؤبداً، وإقطاعاً دائماً مخلداً، وتجري مجرى الملك، ويكتب لك بذلك ما جرت العادة بمثله، مما يطمئن إليه وتستحكم ثقتك به. وإن أبيت القسمين المذكورين ولم يرضك الأول منها، ولا رغبت في الثاني، فتحقق أن المسلمين بأجمعهم، وكافتهم وأسرهم، وكل من يقول بالشهادتين، من قاص ودان، وقريب وبعيد، وكبير

وصغير، ينفرون إليك، ويتفقون على القصد لك، ولا يختلفون في التوجه نحوك، وهو عمل ديني، لا يرثيه أمر دنيوي، فتأمل ما تضمنته هذه الإجابة من الأقسام، وطالع بما عندك في ذلك.
قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا وجود له في زماننا لعدم وقوع الهدن المترتب عليها هذا الصنف من المكاتبات، فإن احتيج إلى ذلك مشاه الكاتب على القاعدة القديمة المتقدمة.

الصنف السادس من الكتب السلطانية، الكتب على من خلع الطاعة

قال في مواد البيان: وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة. قال: وجمع أوضاعها كلها في قانون كلي عسير المرام، إلا أننا نرسم فيها مرسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها، ثم قال: والعادة أن تنفذ هذه الكتب إلى من ترجى إنابته، وتؤمل مراجعته. فأما من وقع الإياس من استصلاحه، ودعت الضرورة إلى كفاحه، فلا حاجة على معاتبته، ولا وجه لمكاتبته.

قال: والرسم فيها أن تفتتح المكاتبة بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، بما يدعو إلى إيناسه، ويزيل أسباب استيحاشه، ويعود بثبات جاشه، ويبعثه على مراجعة فكره، ومعاودة النظر في أمره، ويذكره ما أسدي من العوارف إليه، وأفيض من النعم عليه وأنه لا ينفر سربها بجحدها وكفرها 0ويوحش ربعها بإهمال حمدها وشكرها ويربطها بحسن الطاعة ويسترهنها بالتأدب في التباعة ولا يجر الوبال إلى نفسه بالخروج عن العصمة في عاجل ذميم الوصمة وفي آجل أليم النقمة ويبصره بعاقبته ومن يليه من ذوي الجند بما يقتضي رب الإنعام لديهم، وإقرار الفضل عليهم، وأن يسلبهم ملبس الظل الظليل، وأن يعطلهم من خلي الرأي الجميل، ويتدرع في أثناء ذلك

بشعار النفاق، ويتسم بميسم الشقاق، ويتعجل من داره، وبعده من قراره، وهدم ما شيده الإخلاص م نذكره، وتقويض ما رفعته الطاعة من قدره، ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً بمحتدها، وبعد أن كان مرامياً عن السدة مرمياً بيدها، ويضيع ما أسدى إليه، وأفيض من الإحسان عليه، وما ذهب من اليقين في تدريجه إلى مراقي السيادة، ومن الرغائب في إلحاقه بأهل السعادة، ويغتر بمن يزين له عاجل الآجل، ويتقرب إليه بخدع الباطل، ويجعل أقوالهم دبر سمعه، ويبعد أشخاصهم عن نظره، ناظراً في عاقبته، وحارساً مهجته، وراغباً في حقن دمه، وصيانة حرمه، وليرجع إلى الفناء الذي لم يزل يحرزه، والكنف الذي لم يزل يعزه، ولا يجعل مسالمه بالعنود منازعاً، ومواصله بالجحود مقاطعاً، وواهبه بالكفر سالباً، ومطلع النعمة بضياعه حقها مغرباً، وقد بقي في الحبل ممسك، وفي الأمر مستدرك، لأن يهب من رقدته، ويستبدل من لقاء أمير المؤمنين بلقاء حضرته. ثم يقول: فإن كان ما جناه قد هد سربه، وكدر شربه، وأحس في نفسه سوء الظن، وأخافه بعد الأمن، فليبعث رسوله يستوثق ويعاقد، ويتوكد ويعاهد، فإذا عاد إليه بما يملأ فؤاده أمناً، ويكون عليه حصناً، سارع إلى الامتثال المراسم، وجرى في الطاعة على سننه المتقادم، ولا يستمر على المدافعة والمطاولة ويقتصر على المغايظة والمماطلة.

ثم يقال بعد ذلك: وقد قدم أمير المؤمنين كتابه هذا إليك نائباً عنه في استصلاحك، وقائداً يقودك إلى طريق نجاحك، قبل تجريد مواضيه، وإلحاق مستأنفه في الحرب بماضيه، وخيوله تجاذب الأعنة، وذوابله مشرعة الأسنة، ولم يبق إلا قصدك في عقر دارك التي بوأكها، وانتزاع نعمته التي أعطاكها، لتذوق مرارة المخالفة، وتزنها بحلاوة الموافقة، فكن على نفسك لنفسك حاكماً، ولا تكن لها ظالماً، ونحو ذلك مما يليق به.

وإن كانت المكاتبة إلى رجل قد سبقت له سابقة بخلع الطاعة، ثم سأل الإقالة فأقيل بعد الإحاطة به والنكاية فيه، ثم راجع العصيان فالرسم أن تفتتح بحمد الله عاجل العافية للمتقين، والعدوان على الظالمين، والعزة لحزبه، والذلة لحربه، والإظهار لأهل طاعته، والخسار لأهل معصيته، ودائرة السوء على الخالعين طاعة خلفائه،

القائمين بحجته. ثم يقال: أمير المؤمنين على ما يراك تتخوله به من تصديق آماله، وتوفيق أفعاله، وتسديد مراميه، وهداية مساعيه، وإجابة دعوته، وتحقيق رغبته، بإدالة مواليه، وإذالة معاديه، وعونته على ما ولاه، وتمكينه ممن ناواه، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم يؤتى بمقدمة تدل على جميل عاقبة الطاعة، وذميم مغبة المعصية، يبسط القول عليها، ويتوسع فيها، لتكون فراشاً لما يتلوها. ثم يقال بعدها: وإنما يحمل ذلك أهل الغرارة الذين لم يوكلوا شكائم التجارب، ولم يمارسوا ضرائب النوائب، وأنت فقد تذوقت من كراهة المعصية ومرارتها، وعذوبة الطاعة وحلاوتها، ما يرجو أمير المؤمنين أن يكون قد وعظك بأدبك، وقومك وهذبك، وكشف لك عن عاقبتهما، وعرفك بغايتهما، فدعتك الطاعة إليها بما أسبغه عليك من لباس شرفها ومجدها، واستخدمته لك من أنصار إقبالها وسعدها، ونهتك المعصية عنها بما بلوته من نوائبها وصنائعها، وجربته من مرمض مراميها ومواقعها، لأنها أقلت عددك ومزقت مطرفك ومتلدك، حتى تداركك من عطف أمير المؤمنين ما أنبتك بعد الحصد، وراشك بعد الحص، وانتهى إلى أمير المؤمنين أنك حنيت إلى أتباع الضلالة الذين غروك، وملت إلى أشياع الفتنة الذين استهووك، فأصغيت إلى أقوالهم التي ظاهرها نصح وباطنها غش، وآرائهم التي موردها صلاح ومصادرها فساد، وملت إلى معاودة الشقاق والارتكاس في العصيان، ومقابلة النعمى بالكفران، فقدم كتابه إليك مذكراً، ومنحك خطابه معذراً منذراً، ليعرفك حظك، ويهديك من مراجعة ما قارفته، وأن تنزل عن المنزلة التي رقاك إليها، وتجدب رباعك من النعمة التي أرتعك فيها، وتتخلى عن مرابع الدعة التي أوردك عليها، فانظر لنفسك حسناً، وكن إليها محسناً، وانتفع بمراشد أمير المؤمنين، ولا تفسدن بخلافك عن أمره نصيبك من الدنيا والدين، فارجع إليه مسترغماً فإنه يقتدي بالله في الرحمة للمحسنين، ما دام مؤثراً لرب النعمة لديك، وإقرارها عليك، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

قال: وإن كانت المكاتبة على رعية قد خرجت عن الطاعة كتب إليها بما مثاله: أما

بعد، وفقكم الله تعالى لطاعته، وعصمكم من معصيته، فإن الشيطان يدلي الإنسان بغروره، ويقيم له الضلال في صورة الهدى ببهتانه وزوره، مستخفاً لطائشي الألباب، ومستزلاً للأقدام عن موقف الصواب، ومحسناً بكيده لاعتقاده الأباطيل، مزيناً بغيه اتباع الأضاليل، صارفاً بمكره عن سواء السبيل، مصوراً للحق في صورة المين، مغطياً على القلوب بشغاف الرين، والحازم اليقظ من تحرز من أشراكه وحبائله، وتحفظ من مخايله وغوائله، واتهم هواجس فكره، واستراب بوساوس صدره، وعرض ما يعرضه له على عقله، وكرر فيه النظر متحرزاً من مكر الشيطان وختله، فإن ألفاه عادلاً عن الهوى، مائلاً إلى التقوى، بريئاً من خدع الشيطان، آمناً من عوادي الافتتان، أمضاه واثقاً بسلامة مغبته وعاقبته، وشمول الأمن في أولاه وأخراه.

وانتهى إلى أمير المؤمنين أن الشيطان المريد استخف أحلام جماعة من جهالكم، واستولى على أفهام عدة من أراذلكم، وحسن لهم شق عصا الإسلام، ومعصية الإمام، ومفارقة الجماعة، والانسلاخ عن الطاعة التي فرضها الله تعالى على الجمهور، وجعلها نظام الأمور، فقال جل قائلاً: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " واختار الفرقة التي نهى الله عنها. فقال: " ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات " ومجانية الألفة التي عدها في جلائل نعمه، فقال ممتناً بها على عباده: " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً " وسول لهم التعري من آداب الدين، والمجاهرة بالخلاف على أمير المؤمنين، فنبذوا ما بأيديهم من بيعته، وسلبوا من ظل دعوته، وركبوا من ذلك أوعر المراكب، وسلكوا أخشن المسارب، وسعوا في البلاد بالفساد، وقاموا في وجه الحق بالعناد، واستخفوا بجمل الآثام، وبسطوا أيديهم إلى الدماء الحرام، وشنوا الغارات على الإسلام.

وقد علمتم أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثار، فقد استنزل في هذه الدار سخط الجبار، وتبوأ في الآخرة مقعده من النار، وجرى على غير الواجب في إقامة الفروض والصلوات، وتأدية العبادات والزكوات، وعقد العقود والمناكحات، لأن هذه الأحوال إنما ترضى وترفع، وتجاب وتسمع، إذا تولاها أمير المؤمنين، أو من

يستخلفه من صلحاء المسلمين، فأما إذا استبددتم فيها بأنفسكم، واقتديتم في تأديبها بناكب عن سبيله، مجانب لدليله، فقد تسكعتم في الضلالة، وتطابقتم على الجهالة، وكل راض منكم بذلك، عاص لله ورسوله وللإمام.

ولما اطلع أمير المؤمنين على ما ذهبتم إليه بسوء الاختيار، وركبتموه من مراكب الاغترار، لم ير أن يلغيكم ويهجركم، ويغفلكم ولا يبصركم، فقدم مكاتبتكم معذراً ومنذراً، ومخوفاً ومحذراً، وبدأكم بوعظه مشفقاً عليكم من زلة القدم، وموقف الندم، وجاذباً لكم من مضال الغواية، إلى مراشد الهداية، وافتتحكم باللفظ الأحسن، والقول الألين، وهداكم إلى السبيل الأوضح، والمتجر الأربح، واختار أن يهديكم الله تعالى إلى طريق الرشاد، ويدلكم على مقاصد السداد، ويعيدكم إلى الأولى، ويبعثكم على الطريقة المثلى، وأن تعرفوا الحق فتعتصموا في أيديكم من بيعته، وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته، وترجعوا إلى إجماع المسلمين، وما اتفقت عليه كلمة إخوانكم في الدين، وتتبعوا مذاهب أهل السلامة، وأولي الاستقامة، فإن وقع ما ألقاه إليكم الموقع الذي قدره فيكم، وسألتم الإقالة، فالتوبة تنفعكم، والعفو يسعكم، وإن تماديتم في غيكم وباطلكم، وغروركم وجهلكم، تقدمت إليكم جيوش أمير المؤمنين مقومة، ومن عصاتكم منتقمة، وذلك مقام لا يتميز فيه البريء من السقيم، ولا الجاهل من العليم، ألا تسمعون الله تعالى يقول: " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " ؟ وأي فتنة أشد من طاعة الشيطان، ومعصية السلطان، وشق العصا، وإراقة الدما، وإثارة الدهما؟ فاتقوا الله وارجعوا، وتأملوا وراجعوا، وتبصروا واستبصروا، وقد أوضح لكم أمير المؤمنين المحجة، وبدأكم بالحجة، فأوجدوه السبيل إلى ما ينويه لكم ولكافة أهل الإسلام، من حقن الدماء، وصيانة الحريم، وتحصين الأموال، وشمول الأمن والأمان، وأجيبوا عن كتابه هذا بما يوفقكم الله تعالى إليه، من إجابة دعائه والعمل برأيه، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خرج عن الطاعة، وهو: أما بعد: بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله

المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك من ذلك حزبه مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجربال، وهو رجال هم الرجال، بين رامح وناشب، ليس معهم إلا كلب محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب، قد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام، ليسوا بذوي هينة ولا لإحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، وليس فيهم إلا شاك محتبك، في الحروب مجرب، قد شرب على ناجذ الحرب وأكل، ذو شقشقة وكلكل، كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء، قد رئم الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها ويأنس بقربها، فهو بطلبها أرب، وعلى أهلها حرب، ولا يروعه ما يروع، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان، حين يشتد الوغى، ويخطر القنا، وتقلص الشفاه، وتسفر الكماه، فعند ذلك تسلمك المرد، وتكشف عن الجرد. فتأهب لذلك أهبتك، واخطب له خطبتك، من المساكين والحولة، ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون، فما أسرنا إكثارك الجموع، وحشدك الخيول، فإنك لا تكثف جميعاً، ولا تسرب خيلاً، إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نصره، بما قد جرت به سنته، وسلفت به عادته، نحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة، فرأيتم ذلك في المنازل، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل، فأبشر منا بما ساءك ضجراً، ومشاك تقاد كما يقلد الجمل المخشوش.

ومن أحسن الكتب في المكاتبة في هذا الباب ما كتب به قوام الدين، يحيى بن زيادة، وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة ببغداد إلى طغرل مقطع البصرة بأمر الخليفة له في ذلك، وقد بلغه أنه نزح عنها، قاصداً بعض الأطراف، مفارقاً لطاعة الخليفة، عندما طلب من ديوانه شيء من المال، فأوجب ذلك انثناءه عن عزمه وتوجهه إلى بغداد داخلاً تحت الطاعة، ومقابلته بالصفح وتلقيه بالقبول. وهذه نسخته:

أصدرت هذه الخدمة إلى الجناب الكريم، الأميري، الاسفهسلاري، الأجلي، الكبيري، العمادي، الركني، الظهيري، المحترمي، العزي، الجمالي، أمير الجيوش، أطال الله بقاءه، وأدام علوه ونعمته، وأنا أوقع الأقوال المتواترة، والأموال المتناصرة، مستغرباً لها، متعجباً منها، كأني أسمعها في المنام، وتخاطبني بها أضغاث أحلام، فلولا أن الأيام صحائف العجائب، ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنكته التجارب، ولم أصدق هذه الحركة المباركة التي وقعت منه بسعادته، فإني ما أراها إلا عثرة من جواد، وعورة من كماله، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأي السديد، والعقل الراجح، والفكر الصائب، الذي يعلم الآراء كيف تنير، ويعرف النجوم كيف تسير، ويهدي غيره في المشكلات إلى صواب التدبير.

والفائت لا كلام فيه، غير أن العقل يقضي باستدراك الممكن وتلافيه، بالانحراف عن الهوى إلى الرأي الصادق، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج، فالعود إلى الحق أولى من التمادي على الباطل، وأحب أن تسمع ما أقول بإذن واعية وقلب حاضر، وحوشي أن تستدفعه الكواذب عن تدبر الحقائق، وعرفان النصائح، فإن من القول ما برهانه لا يحتاج إلى شاهد من غيره.

قبل كل شيء، ما الذي أحوج إلى هذه الحال القبيحة السمعة، وركوب الخطر في هذه الحركة، واحتمال هذه المشاق، والانزعاج من غير أن تدعو إليه حاجة؟ هل هو إلا شيء جرت العادة بمثله، وبمطالبة ديوانه بما كان يندفع الأمر ببعضه كما جرت عادة الدواوين، وخدم السلاطين، ثم إنه عمد - أدام الله نعمته - بأول خاطره، وبادأ رأيه في هذه العجلة، من غير تثبت ولا روية، لم لا راجع فكره الكريم، ويقول لنفسه: إلى أين أمضي؟ ولمن أخدم؟ وعلى أي باب أقف؟ وتحت أي لواء أسير؟ وبأي غبار أكتحل؟ وفضل من أطلب؟ وعلى حكم من أنزل؟ بعد أن ربيت في عرصة الخلافة، ودار النبوة، وحضن المملكة، أنشأني نعيمها صغيراً، وقدمني كبيراً، وكنت مأموراً فجعلني أميراً، وطار صيتي في الدنيا ولم أكن شيئاً مذكوراً، فأنا خير من ملك أقصده، وأمثل من كل أرجوه وأستنجده، أفأنزل من السماء إلى الحضيض، وأهدم ما بنى الإنعام عندي في الزمن الطويل العريض؟ هذا هو المكروه الأعظم، الذي تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه

وسلم، حين قال: " اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور " ومن يكون حضين الخلافة كيف يرضى أن يكون تابع إمارة؟ ولو لم يكن ما هجم إلا عليه إلا هذا لكفى. ثم لم لا يلتفت في هذه الحال التي هو عليها، التي صحبته بوفائها، ويسمع خطابها بلسان حال ثم؟ تقول له يا عماد الدين، أما هذه خيام الإنعام عليك؟ أما هذه الخيول المسومة تحتك؟ أما هذه الملابس الفاخرة مفاضة عليك؟ أما هذه مماليكه حافة بك؟ أليس الاصطناع رفع قدرك إلى المنزلة التي تقل عليك بعض الانحطاط عنها، ووهب لك الهمة التي أبيت الضيم بها؟ فحوشيت أن تكون ممن تواترت عليه النعم فملها، وتكاثرت عليه فضعف عن حملها، فياليت شعري! ماذا يكون جوابها؟ والله إنني أقول له بسعادته ولا أعقب، ولو أنه قد تحقق – والعياذ بالله – وقوع كل محذور، وحلول كل مكروه، لك يكن في هذه الحالة معذوراً، فكيف بظن مرجم، وقول مسوف متوهم، ورأي فطير غير مختمر. ولقد كان استسلامه لمالك الرق – صلوات الله عليه وسلامه – أحسن في الدنيا وأعقب في العقبى، واقعاً ذلك من أحواله حيث وقع. والآن فالوقت ضاق في إصدار هذه المكاتبة، عن استقصاء العتاب والمحاققة، وإيراد كل ما تلزم به الحجة، لكنني أقول على سبيل الجملة: إنني أخاف على سديد ذلك الرأي إجابة داعي الهوى، فإن اللجاج من أوسع مداخل الشيطان على الإنسان، وحوشي كماله من هذا القسم.

والثاني استشعاره بسعادته من بادرته، واستيحاشه من عجلته، وهذا أيضاً من أدق مكايد النفس الأمارة بالسوء، فإنها تؤمن من الخوف، وتخوف المأمون، وتسحر العقل بالتحير والشك، فلا تصح له عزيمة، ولا تصفو له فكرة، وهذا النوع إذا عرض في الصدر يجب دفعه بالنظر إلى الحق وشجاعة القلب، والإخلاد إلى مناظرة النفس، فإن الإنسان ليس بمعصوم، والزلل في الرأي ليس من أوصاف الجماد، بل من الأوصاف اللازمة للبشرية، وليس الكمال لأحد إلا الواحد الصمد. فإذا عرض له بسعادته هذا الاستشعار، دفعه عن نفسه، فليس سلطان الوسواس الخناس، وإلا في صدور الناس، فلهذا لا ينبغي لمذنب أن يقنط، ولا لمسيء أن يستوحش، لا سيما إذا أتبع الذنب بالاستقالة والاستغفار، والاعتذار

والإقلاع، وعلى الخصوص إذا كانت الخيانة عند من لا يتعاظمه عفوها، ولا يضيق حلمه عنها، فإن كل كبيرة توجب المخالفة، وتغرق في بحر عفو الخلافة، فيجب أن يقرر بسعادته ذلك في نفسه، ويخرج سوء الظن والاستشعار من خياله، فإن مثله من خلصان المماليك لا يسمح به، ولا يشغب عليه عند هفوة بادرة.
والثالث الاهباض والحياء. فإنه ربما يقول في نفسه: بأي وجه ألقى مولاي؟ وبأي أعين أبصر الدار العزيزة، رباني وأنشأني، وهذا أيضاً لا يصلح خطوره بباله في هذا المقام، فإنه في ضعف النحيزة، والميل من خوادع الطبع، عن نصائح العقل والشرع، فإن الحياء إتباع زلة القدم بالندم والاعتذار، لا التهوك في اللجاج والإضرار. فقد قال بعض الملوك لخصيص من خواصه، عصاه في شيء من أمره: بأي عين تلقاني وقد عصيت أمري؟ فقال: بالعين التي ألقى بها ربي في الصلوات الخمسة، وهو سبحانه يراني على فواضح المعاصي. وقد أثنى الله سبحانه على ما يقتضي فرط الاستشعار. هل هو إلا عبد خاف بادرة مولاه، فتنحى من مكانه إلى من يعطف عليه برحمته؟ وليس هذا ببديع، ولا من الصفح ببعيد، على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غصنه، وكبر شأنه، وجميع ضمان البصرة عشر معشار ذلك.
والرابع إصغاؤه – والعياذ بالله – إلى قول من لا ينصحه، ويغويه لا يرشده، ويتقرب إليه بمتابعة هواه، وهذا ما لا يخفى عنه لمحة الناقث، ولا يحتاج الإعراض عنه إلى الباعث، فقديماً قيل: صديقك من نهاك، وعدوك من أغراك.
والله تعالى، يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الربعة، التي أحذرها عليه، وأحذره منها، وييسره لليسرى.
وبع ذلك فأنا أنصفه من نفسي، وأقول الحق: إن نفساً رباها خليفة الله في أرضه – صلوات الله عليه وسلامه – بإنعامه، وأعلى همتها باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته، لا يحتمل الهوان، ولا يقر على الابتذال، فغالب ظني أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عبدان، ولكنني أنفرد عنه بالسن والتجريب، وطريقتي هو بسعادته يعرفها، وإنني لا أدخر عن أحد

نصحاً. فالصواب أن يقبل قولي، ويتحقق صحة مقصدي في نصيحته ومقصده، فإني أوجب ذلك له على نفسي، وأراه من واجبات خدم مالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أيضاً.

وقد علم الله تعالى أني قد أوضحت من عذره، وأحسنت المناب بسعادته، ما لو حضره وتولاه بنفسه لما زاد عليه، ورأيت الإنعام يستغني عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولامع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يكون من الاحترام واجبه، فإن أمر أن أتولى وساطته فأنا أعتمد ذلك في مراضيه، وتمشية أمره أكثر مما في نفسه. وإن اختار بسعادته أن يكون غيري وسيطه وسفيره، فيعين من يختاره، ليكون حديثه معه. وقد أسلفت من وظائف إحسان المناب أنني تنجزت له بسعادته أماناً متوجاً بالقلم الأشرف المقدس، على نفسه الكريمة وماله وأولاده - والأمان المذكور طي كتابي هذا - مقروناً بخاتم أمان ثان، فيجب أن يكون هو بسعادته جواب ذلك. إذ لا يجوز أن يكون الجواب إلا هو بنفسه الكريمة، فلا يشعر به أحد إلا وهو مقابل التاج الشريف، ملقياً نفسه بين يدي مالكها الذي هو أرحم لها، وألطف بها، وأشفق عليها منها، تالياً ما حكاه القرآن المجيد عن يونس عليه السلام، إذ نادى وهو مكظوم: " سبحانك إني كنت من الظالمين " فإنه يرى - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - كل ما يجب، ويأمن كل ما يحذر. وأنا أستسرع وصوله عن استعراض مهماته، ولرأيه كرمه، إن شاء الله تعالى.
قلت: فإن اتفقت المكاتبة في معنى ذلك في زماننا، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وجرى في ذلك على ما يلائم حاله، ويناسب ما هو فيه، مع النظر في كلام من سبقه إلى شيء من لك، والنسخ على منوال المجيد، والاقتداء بالمحسن في إيراده وإصداره.

الصنف السابع الكتب في الفتوحات والظفر

بأعداء الدولة وأعداء الملة، واسترجاع المعاقل والحصون والاستيلاء على المدن.

وأصلها في فتح الأقفال ودخول الأبواب، كأن المدينة أو الحصن كان مقفلاً ممتنعاً بالإغلاق على مقاصده حتى يفتح له فيدخل. قال في مواد البيان: وهو من أعظم المكاتبات خطراً، وأجلها قدراً، لاستمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظهم من التأييد والتمكين، وما يمر فيها من الأساليب المختلفة التي تشتمل هذا القانون عليها.

قال: والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها، وتهذيب معانيها، لأنها تتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين، وتجعل نصب عيون المتصفحين.

ثم قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله العفو الحليم الغفور الرحيم، العليم الحكيم، ذي البرهان المبين والفضل الجسيم، والقوة المتين والعقاب الأليم، مبيد الظالمين، ومبير القاسطين، ومؤيد العادلين، وجاعل العاقبة للمتقين، والمملي إمهالاً وإنذاراً، والمعاقب تنبيهاً وإذكاراً، الذي لا ينجي منه مهرب، ولا يبعد عليه مطلب، وكيف يعتصم منه وهو أقرب من حبل الوريد، وله على كل لافظ رقيب عتيد؟. والصلاة والسلام على رسوله الأمين، الذي ختم به النبيين، وفضله على المرسلين، وأيده بأوليائه التائبين، الذين قاموا في نصرته، وإعزاز رايته، المقام الذي فازوا فيه بالخصل، فاستولوا على قصبات الفضل، فشركهم معه الوصف والثناء، فقال جل قائلاً: " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " .

ثم تؤتى بمقدمة تشتمل على التحدث بنعمة الله في شحذ العزائم لنصرته، وتثبيت الأقدام لقاء عدوه ومجاهدته، وإنجاز وعده في الإعزاز والإظهار، والظفر والإظفار، والاستبشار بموقع النعمة في الفتح الجليل، والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجميل. ثم يفيض بما جرت العادة به في مقاربة العدو ومداناته، وبث الطلائع لتنفيذ السرايا في مبادي ملاقاته، وما أفضى إليه الأمر في التقابل والمواثبة، والتواشح في المطاعنة والمضاربة، وذكر مواقف الشجعان في الكفاح والمجاهدة، والذب والمجالدة، وثبوت الأقدام، والجود بالنفوس، واشتداد الأيدي، وقوة الشكائم،

واستصحاب العزائم، وتفخيم أمر العدو، بوصفه بكثرة الرجال والأجناد، والقوة والاستعداد، لأن توقع الظفر بمن هذه صفته أعظم خطراً، وأوقع في النفوس أثراً.

ثم يذكر ما جال بين الفريقين من قراع ومصاع، ومصاولة ومناضلة، ومناهدة ومكافحة، وحماية ومنافحة، وثبات ومصافقة، ومقاومة وموافقة، ومخادعة ومطامعة، وينعت المواكب والكتائب، والخيول والأسلحة، والجرحى والمجادلين، والأسرى والمقتلين. واستعمال التشبيهات الفائقة، والاستعارات الرائقة، وإرداف المعاني في الإبانة عن لمعان أسنة الذوابل، وبريق صفحات المناصل، وإعمال المقاصل في القمم، وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياجي الظلم، وينعت الدماء المنبعثة من الجراح، على متون الرماح والصفاح.

ويذكر ما أظهره الله تعالى من تكامل النصر ودلائل الظفر، ما انجلت عنه الحرب من قتل من قتل وأسر من أسر، وهزيمة من هزم، وما فاز به الرجال من الأسلاب والأموال، والدواب والرجال، وما جرت عليه الحال من انفلال العدو عند المقاتلة، أو أسر العدو إن أسر، أو اعتصامه بمعقل لا يحصنه، أو امتناعه بحث يحتاج إلى منازلته باستنزاله قسراً، أو حيازة المعقل الذي كان بيده، وما اعتمد فيه من حسن السيرة، وتخفيف الوطأة عن الرعية وحسم أسباب الفتنة، أو رغبته في المسالمة، وسؤاله في المهانة، لخوف أظله، وهلع احتله، وما تردد من رسائل، وتقرر من شروط وعقود، وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم، واقتضاه صواب الرأي.

وإن كان السلم قد وقع، والتنازع قد ارتفع، ذكر اتفاق الحزبين، واتحاد الكلمة، وشمول النعمة.

وإن كان لم يجبه من المهانة، حذراً من المكر والمخادعة، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتدبير، وتسديد وتقرير.

وإن كان طلب المهانة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده، ويجم عدده، وتتم حيلته، فاطلع منه على ذلك، فبادره مفللاً لكيده ومكره، مذيقاً له وبال أمره، شرح الحال على نصها وما انتهى إليه آخرها.

قال: وقد وقع في هذه الأمور ما لا يحتسب، وسبيل جمعه هذا السبيل.
ثم قال: ويختم الكتاب بحمد الله القاضي لأوليائه بالإدالة، ولأعدائه بالإذالة، الذي يستدرج بحلمه إمهالاً، ولا يلقى العادل عن حكمه إهمالاً، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله.
وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات في أوائل المقالة الرابعة من الكتب، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها، وأن ما وقع في كتاب المهلب بن أبي صفرة، من كتابه إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج، على نظم الفتح وبعد صيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه: أما بعد، فالحمد لله الذي لا تنقطع مواد نعمه عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر. وإنا وعدونا كنا على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم، ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويمحصنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتاب أجله. " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " فإنما سلك في سبيل الإيجاز، لكونه من التابع إلى المتبوع، إذ الحجاج كان هو القائم بأمر العراق وما والاه لعبد الملك بن مروان، على شدة سطوته، وما كان عليه من قوة الشكيمة وشدة البأس، مع كون الأدب في المكاتبة المرؤوس الرئيس الإتيان بقليل اللفظ الدال على المقصد، حتى لا يكون فيه شغل للرئيس بطول وبسط القول، على ما تقدم بيانه في موضعه.
واعلم أن الكتابة في فتوحات بلاد الكفر ومعاقلهم والاستيلاء على بلاد البغاة تكاد أن تكون في الكتابة على نسق واحد، إلا أن مجال الكاتب في الفتوحات بلاد الكفر أوسع، من حيث عزة الإسلام على الكفر، وظهور دينه على سائر الأديان.
وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه، وهي: الحمد لله مديل الحق ومنيره، ومذل الباطل ومبيره، مؤيد الإسلام بباهر الإعجاز، ومتمم وعده في الإظهار بوشيك الإنجاز، وأخمد كل دين وأعلاه، ورفض كل شرع واجتباه، وجعله نوره اللامع، وظله الماتع، وانتعث به السراج المنير، والبشير النذير، فأوضح مناهجه، وبين مدارجه، وأناب أعلامه، وفصل أحكامه، وسن حلاله وحرامه، وبين خاصه وعامه، ودعا إلى الله بإذنه، وحض على التمسك بعصم

دينه، وشمر في نصره مجاهداً من ند عن سبيله، وعند عن دليله، حتى قصد الأنصاب والأصنام، وأبطل الميسر والأزلام، وكشف غيابات الإظلام، وانتعلت خيل الله بقبائل الهام.

يحمده أمير المؤمنين أن جعله من ولاة أمره، ووفقه لاتباع سنة رسوله واقتفاء أثره، وأعانه على تمكين الدين، وتوهين المشركين، وشفاء صدور المؤمنين، وأنهضه بالمراماة عن الملة، والمحاماة عن الحوزة، وإعزاز أهل الإيمان، وإذلال حزب الكفران. ويسأله الصلاة على خيرته المجتبى، وصفوته المنتصى، محمد أفضل من ذب وكافح، وجاهد ونافح، وحمى الذمار وغزا الكفار، صلى الله عليه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع، ومجنه المدافع، وسهمه الصادر، وناصره المعاضد، فارس الوقائع، ومفرق الجمائع، ومبيد الأقران، ومبدد الشجعان، وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجان.

وإن أولي النعم بأن يرفل في لباسها، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها، ويتهادى طيب خبرها، ويتفاوض بحسن أثرها، نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو أولي الباطل والإفك، والهجوم عليهم في عقر دارهم، واجتثاث أصلهم والجد في دمارهم، واستنزالهم من معاقلهم، وتشريدهم عن منازلهم، وتغميض نواظرهم الشوس وإلباسهم لباس البوس، لما في ذلك من ظهور التوحيد وعزه، وخمود الإلحاد وعره، وعلو ملة المسلمين، وانخفاض دولة المشركين، ووضوح محجة الحق وحجته، وصدوع برهانه وآيته.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد انكفأ عن ديار الفلانيين المشركين إلى دست خلافته، ومقر إقامته، بعد أن غزاهم براً وبحراً، وشردهم سهلاً ووعراً، وجرعهم من عواقب كفراً مراً، وفرق جمائعهم التي تطبق سهوب الفضاء خيلاً ورجالاً، وتضيق بها المهامه حزناً وسهلاً، ومزق كتائبهم التي تلحق الوهاد بالنجاد، وتختطف الأبصار ببوارق الأغماد، وتجعل رعود سنابكها في السماء، وسبى الذراري والأطفال، وأسر البطاريق والأقيال، وافتتح المعاقل والأعمال، وحاز

الأسلاب والموال، واستولى من الحصون على حصن كذا وحصن كذا ومحا منها رسوم الشرك وعفاها، وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها، وغنم أولياء أمير المؤمنين ومتطوعة المسلمين من الغنائم ما أقر العيون، وحقق الظنون، وانفصلوا وقد زادت بصائرهم نفاذاً في الدين، وسرائرهم إخلاصاً في طاعة أمير المؤمنين، بما أولاهم الله من النصر والإظفار، والإعزاز والإظهار، ووضح للمشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان، وأنالهم إياه من الهوان، أنهم على مضلة من الغي والعمى، ومنحاة من الرشد والهدى، فضرعوا إلى أمير المؤمنين في السم والموادعة، وتحملوا بذلاً بذلوه تفادياً من الكفاح والمقارعة، فأجابهم إلى ذلك متوكلاً إلى الله تعالى، وامتثالاً لقوله إذ يقول: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم " وعاقد طاغيتهم على كتاب هدنة كتبه له، وأقره في أعين يده، حجة بمضمونه.

أشعرك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من المخلصين، وتعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين فيحسن ظنك وتقر عينك، وتشكر الله تعالى شكر المستمد من فضله، المعتد بطوله، وتتلو كتاب أمير المؤمنين على كافة من قبلك من المسلمين، ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه، وإذلال عدوهم وتوهينه، فاعلم ذلك وأعمل به إن شاء الله تعالى .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكفر، وإما فتح لما استولى عليه البغاة من المسلمين.

فأما فتح بلاد الكفار فكان سبيلهم فيه أن يصدر الكتاب بحمد الله تعالى على علو دين الإسلام ورفعته، وإظهاره على كل دين، ثم على بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم، والصراط المستقيم، ويذكر ما كان أمره صلى الله عليه وسلم من جهاد الكفار. ثم على إقامة الخلفاء في الأرض حفظاً للرعية، وحياطة للبرية، وصوناً للبيضة، ويخص خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه، ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره، وكثرة عدده، ووفور مدده، ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد، والاشتداد في الله تعالى، والقيام في نصرة دينه، ثم يذكر الملحمة وما كان من الوقيعة والتحام القاتل، وما

انجلت عنه الملحمة من النصرة على عدو الدين وخذلانه، والإمكان منه، وقتل من قتل منهم، وأسر من أسر، وتفريق شملهم، وانتظام كلمة الإسلام، وطماعيتهم بهلاك عدوهم، وما في ذلك معنى ذلك.

وهذه نسخة كتاب كتب به إلى الديوان العزيز، أيام الناصر لدين الله، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بفتح القدس الشريف، وإنقاذه من يد الكفر، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، من إنشاء القاضي الفاضل، وهو:
أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال الجد بكل جاحد، وغني التوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع، وأنواراً إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد.
كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، ولله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه: هذا مضى. وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، واستتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط حصل المشروط، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً

على النأي طارقاً، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخففت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم.

ولما كتب الذين عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكافر بحربه. وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء لهذه النعمى، ولا يناجز من يستمطله في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتمادى في عتبه، إلا لتكون الكلمة مجموعة، والدعوة إلى مسامعها مرفوعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهرة الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر ومن رام صفقة رابحة تجاسر ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها، ويضعف بأيديها مهز القوائم فتقضها، هذا إلى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد، ولا يرعى به حق الله في العباد، ولا يوفى به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وخلفاء الله كانوا مثل هذه اليوم لله يسألون، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطلعتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ومنه مقبولاً، وخلص إليهم على المضاجع ما اطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً، والنهار به بصيراً، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأن وراه، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف، وذكر لا تواريه أوراق الصحف.

وكتاب الخدم هذا، وقد ظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقاً، وطارت فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصا،

وكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العيان بالعنان، عقوبة من الله تعالى ليس لصاحب يد بها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها خليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأوضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الكامث، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث، فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة لبذل المطامع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا فناء الأفنية لهم نصرة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكرهم كسرة ما بعدها جير، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح والأكسار، فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهل سيوف تقارض الضراب حتى صارت كالعراجين، ثم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد مسافة فافترسه، وكان اليوم مشهوداً وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً. وأسر الملك بيده أوثق وثاقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، وما دهموا قط بأمر إلا قام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه ظل ظلامه خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه.

وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وذهبت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا

القومص، وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، وملياً يوم الخذلان بالاحتيال، فنجا وكان كيف؟ وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف، ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذالك، وانتقل من ملك الموت على مالك.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً، والبيضاء صنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي وعزائم أوليائها المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن، وكل هذه ذوات معاقيل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً، ويحط من منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً، ويبدل امذابح منابر والكنائس مساجد، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القآن للذب عن دين الله مقاعد، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور، ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم، فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته، فزوال البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولجج وعرة غريقة، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها معرج، وللخيل فيها متولج، فنزل عليها، وأحاط بها وقرب منها، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكنافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها، وحاجزها ثم ناجزها، فضمها ضمة ارتقاب بعدها الفتح، وصدعأهلها فإذا هم لا يبصرون على عبودية الخد عن عتق الصفح، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة،

وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة، فعرفهم الخادم في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها، ولا يفارق سهامها نصالها، فصافحت السور بأكنافه فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك، فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفع مثار عجاجها فأخلى السور من السيارة، والحرب من النظارة، فأمكن النقاب، أن يسفر للحرب النقاب، أن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض، وفتح في السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر: " يا ليتني كنت تراباً " فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور.

وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذل الملكة بعد عز المملكة، وطرح جبينه في التراب وكان جبيناً لا يتعاطاه طارح، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليه طرق آمل طامح، وقال: هاهنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار، بدئ بهم فعجلوا، وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا، ثم استقلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولم يسل سيف من يد إلا بعد أن تنقطع أو ينقصف، وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور، فإنه إن أخذ حرباً فلا بد أن تقتحم الرجال الأنجاد، وتبذل أنفسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد. وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، واعتاق الحركات، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون، وانصف أهل الحرب

عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفاح، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية، منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه، ولا يطرد لألاؤه، وقد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وأعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا للوجوم، والكواكب منها ينثرن للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وخفق علماه في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه.

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب في الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفذت مواردها وأيام الشقاء قد دمرت مواردها والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها، في بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفذ، وينفق عليها، ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرابط لبرها، ويدأب في عمارة أسوارها، ومرمات معاقلها، وكل شقة فهي بالإضافة إلى نعمة الله الفتح محتملة، وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة، فلن يدعو دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع.

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص. فلذلك نفذنا لساناً شارحاً، ومبشراً صادحاً، ينشر الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته.

قلت: وقد وقفت على نسخة كتاب كتب به عن المكتفي بالله، عندما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية، فانتزعها من يد بني طولون واستولى عليها الخليفة، في نحو كراسة، تاريخها سنة اثنتين وتسعين ومائتين، أولها: أما بعد فالحمد لله العلي الكبير، العزيز القدير، وأضربت عن ذكرها لطولها.

الصنف الثامن المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة

قال في مواد البيان: من أخلاق العامة تقبيح سيرة السلطان إذا زل في بعض آرائه، والإزراء على تدبيره في جيش يجهزه فيكسر، ونحو ذلك، مما لا يسلم من مثله، والإضافة فيه والتشنيع به، فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلاقى الوهن ويقيم العذر، كما يكاتبهم بتفخيم المنح، وتعظيم الفتوحات، والتحدث بمواقع المواهب، وشكر الله تعالى على إسباغ النعم، والإظفار بأعداء الدين والدولة ليقوي بذلك منتهم، ويرهف بصائرهم ويستخلص طاعتهم، ويملأ صدورهم رهبة. قال: وليست لهذه الكتب رسوم ينتظم كل ما وقع فيها، لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر.

ثم قال: ونحن نرسم في أصوله قولاً وجيزاً، وهو أن يقتضب الكاتب له المعاذير التي تحسن أحدوثته، وتستر زلته، والحجج التي تعيد اللائم عاذراً، والذام شاكراً، وتوجب التقريظ من حيث يجب التأنيب، والإحماد من حيث يستحق التذنيب. مثل أن يعتذر عن هزيمة جيش، فيقول: وقد علمتم أم الحرب سجال، والدنيا دول تدال، وقد تهب ريح النصر للقاسطين على المقسطين امتحاناً من الله وبلوى، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، من غير أن يصرح بباطل، ولا يطلق كذباً محضاً، ولا يختلق زوراً يعلم الناس خلافه، فتتضاعف الهجنة، وتتكاثف المحنة، فإنه لا شيء أقبح على السلطان وأقدح من جلالة الشان، من أن يعثر في كتبه على إفك قد يعلمه بعض من يقف عليه، بل ينبغي أن يعتمد في ذلك حسن التخلص والتورية عن الغرض، واستعمال الألفاظ

التي تدل على أطراف الحال ولا تفصح بحقائقها.

وهذه نسخة لله الذي ساس الأمور بحكمته، وأبان فيها مواقع قدرته، وسلك فيها طريق مشيئته، وصرفها على ما رآه عدلاً بين العباد في أقسام نعمته ومحنته، وأحوال بلواه وعافيته، وجعل الأيام فيهم نوباً، والأحوال بينهم عقباً، فخص أولياءه وأهل طاعته بالنصر في المحاكمة، والصلح عند المخاصمة، والظهور على من شاقهم وعاداهم، والقهر لمن ضادهم وناواهم، وإنجازاً لما وعد به الصابرين المحتسبين، وإعزازاً للدين وأنصاره من المؤمنين، ولم يخبل أعداءه من دولة أدالها لهم، وجولة على الحق زادها في طغيانهم، ووصل الإملاء لهم فيها بخذلانهم، ليجب الثواب للمحسنين، ويحق العذاب على الكافرين. فقال في محكم كتابه – وقد ظهر المشركون على المسلمين – " إن يمسسكم قرح فقد مس قوم قرح مثله وتلك الأيام ناداولها بين الناس " . وقال: " ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين " ، وناب بين الفرقين في المصائب والمواهب، والمسار والمضار، ليشفي الله صدور المؤمنين، وليمحص ما في قلوبهم، ويوجب لهم إخلاص السرائر في طاعته، والجهاد في سبيله، والنصرة لرسوله، والمراماة عن دينه، والمدافعة عن حريمه، ضعف الثواب وحسن المآب، ويحل بالمشركين ما أعد لهم في دار الجزاء من أليم العذاب.

وإذا كان الحال بين الفريقين المتلاقيين، والفئتين المتجاورتين، والحزبين المتحاكمين، في تعاور الغلبة وتعاقب الدولة، جارياً على تقدير الله ومتصرفاً على حكمه، ومستوسقاً على ما سبق في علمه، فليس يغني في ذلك زيادة عدد، ولا اتصال مدد، ولا قوة أيد، ولا لطف كيد، ولا اختيار وقت محمود للقتال، ولا الانتخاب لأهل البسالة والنجدة من الرجال، ولا يجب أن يستريث النصر من أبطأ عنه، ويستشعر الجزع من نال خصمه منه، بعد تحصيله السلامة في نفسه، وقيام العذر له بعنايته وجده، وقد جمع الله للأمير من المناقب، التي ورثها عن آبائه ، وحازها في صدره، والحيازة فيما بان من فضل بأسه، وثبات جأشه، وأصالة رأيه، وصحة تدبيره، وإيفائه الحرب شروطها، والهيجاء حقوقها، من الحزم والتؤدة، والإقدام عند الفرصة، والإصابة في التقدير والتعبير، والاحتياط في سد

موقع الخلل والعورة، وإعمال النظر والروية، لولا اعتراض القضاء الذي هو مالك نواصي العباد، وغير مدفوع بمحال ولا جلاد، ولا قوة ولا عدة ولا عتاد ما أوفى حسنه على مزية الظفر، وزاد عظمه في السناء والخطر، إلى ما شمل عسكره في منقلبه بمراعاته لهم، ومدافعته من ورائهم، حتى توافى الجمع موفورين، وآبوا سالمين غانمين، وبالله الحول والقوة وعليه ضمان الإدالة على ما جرى به وعده الصادق وأخبر عنه كتابه الناطق، وهو حسب أمير المؤمنين وكافيه، وناصره وواليه، ونعم الوكيل والظهير، والمولى والنصير، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وآله الطيبين أجمعين، وسلم تسليما.

وفي مثله من إنشاء أحمد بن سعيد : أحكام الله جل جلاله جارية على سبل جامعة لوجوده الحكمة ، منتظمة لأسباب الصلاح والمعدلة. فمنها ما عرف الله أولياءه والمندوبين بطاعته، والمجموعين بهدايته، طريق المراد منه وسبب الداعي إليه، والعلة فيما قضي من ذلك لحينه، والصورة المقتضية له. ومنها ما استأثر بعلمه، وطوى عن الخلق معرفة حاله، فهو وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه، وموقع العائدة به، ورؤي بهم اضطراباً في ظاهرة

عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم، ومبالغ أفهامهم فبني على أوثق أساس الحكمة، وأثبت أركان الصواب على الجملة وكيف لا يكون كذلك؟ والله خالق الأشياء كلها، وعالم بها قبل كونها، في أحوال تكوينه إياها وبعده في منزع غاياتها ومقضي عواقبها، فليس تخفى عليه خافية، ولا تعزب عنه دانية ولا قاضية، ولا يسقط عن معرفته فصل ما بين الخاطرين والوهمين في الخير والشر وما بين الجبلين والدربين في الوفور والغمور، فكيف بما يبرزه الظهور، ويخبر فيه عن موضع التدبير، المحتاج فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير؟ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج الصواب، ويخالف طريق الصلاح، فقد ضل من حيث ضلل، وغلط من حيث غلط، واتصل سوء ظنه، وفساد فكره، بالزراية على فعل ربه، تعالى عن قول المبطلين، ورجم الشياطين.

ثم إن لله جل جلاله عادة في الجيشين المتحاربين، والحزبين المتحاكمين، من عباده المؤمنين، وأضدادهم المفسدين الملحدين، في المداولة بينهما، والمعاقبة بين الفئتين منهما، في العجز والظهور، والوفاء والقصور، والمعافاة والامتحان، والنصر والخذلان، والإعلاء لراية الحق في حال، والإملاء للباطل في أخرى، بتضمين الخيرة لأوليائه، والدائرة على أعدائه، عاجلاً بالتمحيص لهؤلاء، وبالمحق لأولئك، بما يصل إليهم من مصيبته، وينوبهم في حاضر الدنيا من رغبته، ويحل العادين من المشركين دار الفاسقين، ويجعل العاقبة للمتقين، ومن سعد بقسم من التوفيق، وحظ من فائدة الإرشاد، فليس في هذه الحالة بزيادة أنصار وعدة، وفضل عتاد وعدة، وبسالة ونجدة وأيد وقوة وسعة وبسطة ، ولا يعدو أن يسلم لله تعالى قاضياً له وعليه ويوفى بإحدى الحسنيين من علوه، أو غلبه عدوه أو يتوكل عليه، وهو حسبه منعماً، وممتحناً ومعافياً ومسلماً، ونعم الوكيل .

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل بين الكتاب، دائر في مصطلحاتهم إلى الآن. وللشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في ذلك تفننات كثيرة ، أورد بعضها في كتابة حسن التوسل . فمن ذلك. ما شاء أنشأه فيمن هزم هو وجيشه، يتضمن إقامة عذره، ووصف اجتهاده، ويحث على معاودة عدوه، والطلب بثاره، وهو: هذه المكاتبة إلى فلان: لازال مأمون الغرة، مأمول الكرة، مجتنياً حلو الظفر من أكمام تلك المرة المرة ، راجياً من عواقب الصبر أن يسفر له مساء تلك المساءة عن صبح المسرة، واثقاً من عوائد نصر الله بإعادته ومن معه في القوة والاستظهار كما بدأهم أول مرة.

أصدرناها وقد أتصل بنا نبأ ذلك المقام الذي أوضحت فيه السيوف عذرها، وأبدت به الكماة صبرها، وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها، وبذلت فيه الأبطال من الجلاد جهدها ولكن لم يكن الظفر إليها، وكان عليهم الإقدام على غمرات المنون، والاصطلاء بجمرات الحرب الزبون، ولم يكن عليهم إتمام ما قدر أنه لا يكون، فكابرت رقاب الأعداء في ذلك الموقف السيوف، وكاثرت أعدادهم الحتوف، وتدفقت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت

تلك الآحاد من تلك الألوف، فضاق بازدحام الصفوف على رجاله المجال ، وزاد العدد على الجلد فلم يفد له الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال، وأملي للكافرين بما قدر لهم من الإنظار ، وحصل لهم من الاستظهار، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام عما ألفوه من الفرار. " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " ، وقد ورد أنهم ينصرون كما ننصر، وإذا كانت الحروب سجالاً فلا ينسب إلى من كانت عليه وبالا إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر، مع أنه قد أشتهر بما فعله في مجاله، من الذب عن رجاله، وما أبداه في قتاله، من الضرب الذي ما تروى فيه خصمه إلا بدره بارتجاله، وأن الرماح التي امتدت إليه أخرس سيفه ألسنة أسنتها، والجياد التي أقدمت عليه جعل طعنة أكفالها مكان أعنتها، فأثبت في مستنقع الموت رجله، ووقف وما في الموت شك لواقف ليحمي خيله ورجله، حتى تحيز أصحابه إلى مأمنهم، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم أو ظهر من مكمنهم، وهذا هو الموقف الذي قام له مقام النصر، إذ فاته النصراء وفاته النصر ، والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد وفقد فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوف لا يدركهم الحصر، وكذا فليكن قلب الجيش كالقلب يقوى بقوته الجسد، وإذا حق اللقاء فلا يفر عن كناسه إلا الظبي ولا يحمي عرينه إلا الأسد ، وما بقى إلا أن تعفو الكلوم، وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح، وتبرأ من فلول المضارب صدور الصفاح، وتنهض لاقتضاء دين الدين، من غرمائه المعتدين، وتبادر إلى استنجاز وعد الله بأن الله يمحص المؤمنين، ويمحق الكافرين، والليث إذا جرح كان أشد لثباته، وأمد لوثباته، والموتور لا يصطلى بناره، والثائر لا يرهب الإقدام على المنون في طلب ثاره، والدهر ذو دول، والزمان متلون إن دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدة فقد أشرقت لكم منه بالنصر ليال أول، فالمولى لا يلفت إلى ما فات، ويقبل بفكره على تدبير ما هو آت، ويعد للحرب عدته، ويعجل أمد الاستظهار ومدته، ولا يؤخر فرصة الإمكان، ولا يعيد ذكر ما مضى فإنه دخل في خبر كان، ولا يظهر بما العاجز من ظن أنه يصيب ولا يصاب، ولا يتخذ غير ظهر حصانه حصاناً فلا حرز أمنع من صهوة الجواد ولا سلم أسلم من الركاب ، وليعلم أن العاقبة للمتقين، ويدرع جنة الصبر ليكون

من النصر على ثقة ومن الظفر على يقين، فإن الله مع الصابرين، ومن كان الله معه كانت يده الطولى، وإذا لقي عدو الله وعدوة فليصبر لحملته فإن الصبر عند الصدمة الأولى والله تعالى يكلؤه بعينه، ويمده بعونه، ويجعل الظفر بعدوه موقوفاً على مطالبته له بدينه.

ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار، ويصف الاحتفال بأخذ الثار:

هذه المكاتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سره، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وأن سرار القمر لا يضره. توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها اللقاء، وصدمنا العدو صدمة من لا يحب البقاء، وأريناه حرباً لو أعانها التأييد فللت جموعه، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه. وحين شرعت رياح النصر تهب، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب وتصب، وكرعت الصفاح في موارد نحورهم، وكشف الرماح خبايا صدورهم ، وما بقي إلا أن تستكمل سيوفنا الري من دمائهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم، وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه، وتكف بالقبض يد من ألبسته الجراح حلة عندمه أظهروا الخرع في عزائمهم، وحكموا الطمع في غنائمهم، فحصل لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنائهم. وطمع منع جيوشنا أن تكف عن النهب إلى تصير من ورائهم، فاغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان، العجب والطمع ، وانتهز فرصة الإمكان، التي أعانه عليها المطمعان إبداء الهلع، وتخلية ما جمع فانتثر من جمعنا بعض ذلك العقد المنظم وانتقض من حزبنا ركن ذلك الصف الذي أخذ فيه الزحام بالكظم، وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم، وأرباب البصائر في دينهم، فكسرنا جفون السيوف، وحطمنا صدور الرماح في صدور الصفوف، وأرينا تلك الألوف كيف تعد الآحاد بالألوف، وحلنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطماعهم،

ويرد سراعهم، ويعمي ويصم عن الآثار والأخبار أبصارهم وأسماعهم، إلى أن نفسنا للمنهزم عن خناقه وآيسنا طالبه عن لحاقه، وردَدناه عنه خائباً بعد أن كادت يده تعتلق بأطواقه، وأحجم العدو مع ما يرى من قلتنا عن الإقدام علينا، ورأى منا جداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا، وعادوا ولنا في قلوبهم رعب يثنيهم وهم الغالبون، ويدركهم وهم الطالبون ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون، وقد لم الخادم شعث رجاله وضم فرقهم بذخائر ماله، وأمدهم بنفقات أصلحت أحوالهم وأطلقت في طلب عدو الله أقوالهم، وسلاح جدد استطاعتهم وأعان شجاعتهم، وخيول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم وتحضهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهمهم في أجر رواحهم وغدوهم، وقد نضوا رداء الإعجاب عن أكتافهم، واعتصموا بعون الله وتأييده لا بقوة جلدهم ولا بحد أسيافهم وسيعجلون العدو إن شاء الله تعالى عن اندمال جراحه ويتعجلون إليه بجيوش تسوء طلائعها في مسائه وتصبحه كتائبها في صباحه، والله تعالى لا يكلنا إلى جلدنا، ولا ينزع أعنة نصره من يدنا.

الصنف التاسع المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهكم به

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرض إليه في مواد البيان.
والذي ينبغي أن تبنى المكاتبة فيه عليه ذكر هزيمة المهزوم وما استولى عليه من الغلبة والقهر، وصورة الحال في النصرة عليه، والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر ذات يده، وأسر رجاله، واسترقاق ذراريهم ونسائهم، وما يجري مجرى ذلك، مما في إيلام خاطره، وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله، ونحو ذلك مما يدعو المكتوب إليه إلى الطاعة، ويوجب الانقياد.
وهذه نسخة كتاب من هذه النمط، كتب به القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، إلى البولس سمند ملك الفرنج، المستولي على طرابلس من الشام، وأنطاكية من بلاد العواصم حين غزاه الملك في طرابلس، ثم قصد أنطاكية فأخذها في عانيه، وهي:

قد علم المقوص الجليل المنتقلة مخاطبته – بأخذ أنطاكية منه – من البولسية إلى القومصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الأرض ودارت الدوائر على كل دائر، وكيف جعلت تلك الجوائز من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قطرت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحائر، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق – إن شاء الله تعالى – والستائر، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والحواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الحريم وركب الماشي، هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً: علي هذا الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل من لا يعود، وأخرناك إلى ما كان تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية، إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية، إلا وهي في ملكنا جارية، ولا سارية، إلا وهي في أيدي المعاون سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود إلا وهو أنك مفقود، وما منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي في الختوم مخترقة وللعقول خارقة، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك وإن بعدنا فسنعود على الأثر، وها نحن نعلمك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عم.

كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء، ونزولنا أنطاكية في شهر رمضان، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كيد اسطيل فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، وخرج وهو وجماعتك من رهبانك، وإن رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا: نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا الأول في الإنذار والآخر، فرجعوا به متشبهين بفعلك، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مرشان المرشان، وداخل الرهب والرهبان، ولان للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان، وفتحنا

بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وإماؤك كل أربع منها تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونثرت، وصحائفها من الأناجيل المزورة قد نشرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس، والمذابح وقد ذبح فيها الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء المملكة وقد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بونصر وكنيسة القسيان وقد زلت كل منها وزالت، لكنت قلت: يا ليتني كنت تراباً، ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك، لصارت شوانيك من شوانيك، ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك النطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ومن الأرض اقتلعها، ولتعلم أنا قد أخذنا – بحمد الله – منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش، وشقيف تل منس، وشقيف كفردبين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلاً، وإما أسيراً، وإما جريحاً وإما كسيراً، وسرلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات، ولعل الله إنما أخرك لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات، ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحد أن يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواك باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك، لتتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعيد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل عما جرى.

وهذه نسخة في هذا المعنى، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي: هذه المكاتبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلته، وأقامه من حفرة ذلته، وتجاوز له عن كبير فراره من جمع عدوه على قلته. بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها العدو بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه، كثيف في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه ونفعه، أسرع في مفارقة المجال، من الظل في الانتقال، وأشبه في مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال يمشون إليه بقلب واحد، ويهتدون من تخرصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب، ويأتمون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كألف، ويتسرعون منه وراء مقدام يمشي إلى الزحف ولكن إلى خلف، جناح جيشه مهيض، وطرف سنانه غضيض، وساقة عسكره طالعة، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعة، تأسف السيوف بيمينه على ضارب، وتأسى الجنائب حوله إذ تعد لمحارب فتعد لهارب، وأنه حين وقعت العين على العين، وأيقن عدوه لما رأى من عدده وعدده معاجلة الحين، أعجل نصول العدا عن وصولها، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها، تناديه ألسنة أسنته: الكرة الكرة فلا يلوي إلى ندائها، وتشكو إليه سيوف الظمأ وقد رأت مورد الوريد فيردها إلى الغمود بدائها، فمنح عدوه مقاتل رجاله، وأباحهم كرائم مال جنده وماله، وخلى لهم خزائن سلاحه التي أعدها لقتالهم فأصبحت معدة لقتاله، فنجا منجى الحارث ابن هشام، وآب بسلامة أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام، واتسم بين أوليائه وأعدائه بسمة الفرار، وكان يقول: النار لا العار، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار، وعاد بجمع موفور من الجراح، موقر من الإثم والاجتراح لا علم بما جرى عند أسيافهم ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الظبا في أكتافهم، فبأي جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه، وهؤلاء حزبه، وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربه.

وبعد، فإن كانت له حمية فستظهر آثارها، أو أريحية نارها، أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية، وتبعثه على طلب غايتين: إما الشهادة مريحة أو حياة هنيئة، والله تعالى يوقظ عزمه من سنته، ويعجل له الانصاف من عدوه قبل إكمال سنته.

الصنف العاشر في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم

قال في مواد البيان: لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة عندما كان ينتهي إليه من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم، واستباحة المحارم، واقتراف المآثم، كالزنا واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرق، والغصب والتظالم، وما يجري هذا المجرى بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته، الممتن بفضله قبل إيجاب شكره، خالق الخلائق جوداً وكرماً، وموسعهم مناً ونعماً، الذي اختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس، ونزهه عن الأدناس، واختص به صفوته من الناس، وابتعث به محمداً سيد المرسلين: " لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين " .

ويحده أمير المؤمنين أن فوض إليه إيالة خلفه، وأقدره على القيام بخدمته، ونصبه لإعزاز دينه، والمحافظة على مفروضه ومسنونه، وذيادة العباد عن محارمه التي نهى عن التعدي إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها، ويسأله الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يقال: إن أمير المؤمنين يرى أن من أعظم نعم الله تعالى عليه توفيق لحفظ ما استحفظه من شريعته، ورعاية ما استرعاه من بريته، وتوفير القيام على من قلده النظر فيهم، واعتماد ما يعود بالصلاح في الدين والدنيا عليهم، ومساواته بين قريبهم وبعيدهم في تفقده، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده، فلا ينال القريب فقط نصيباً من رعايته ويعلم جاهلهم، ويهدي حائرهم، ويشحذ بصائرهم، ويثقف مائدهم، ويصلح فاسدهم، ويتخولهم من مواعظه بما يبرد الغلل ويشفي العلل، وينسخ الشك باليقين، ويقبس مقابس النور المبين، فمن أصغى إلى إرشاده سعد جده، وورى زنده، وأحمد يومه وغده، ومن خالف عن أمره ضل مسعاه، وخسر

آخرته ودنياه، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه، والكف بإقامة الحدود عليه من جماحه.

وانتهى إلى أمير المؤمنين ما أقدم عليه الأحداث وأهل الدعارة قبلكم من احتقاب الآثام، واستدماث مراكب الحرام، واستهتار بمحظور اللذات، والإكباب على دنيء الشهوات التي تسلخ من الدين، وتخرج عن دائرة المسلمين، وتدفع عن تأدية العبادات، وإقامة الصلوات، وتنظيم في سلك البهائم المرسلة، والسوائم المهملة، وتقصير مشايخهم وعلمائهم عن كفهم، والأخذ على أكفهم، وتعريفهم وجوه مراشدهم وتقويم أودهم، فامتعض من ذلك، وأشفق من نزول القوارع والمثلات، وحلول البليات والآيات، وارتجاع ما أودعكم الله تعالى من نعمته، وانتزاع ما ألبسكم من رحمته، وبادر بكتابه موقظاً لغافلكم، ومبصراً لذاهلكم، وباعثاً لكم على مراضيه الأولى، ومعاودة الطريقة المثلى، ومبادرة آجالكم بأعمالكم، والأخذ لأخراكم من أولاكم، ولسقمكم من صحتكم، ولنومكم من يقظتكم، عالمين بأن الدنيا لعب ولهو، وأن الآخرة هي دار القرار، وأنكم فيها كسفر شافوا المنزل، فاجهدوا عباد الله واحتشدوا، وأقلعوا وارجعوا، واسمعوا وعوا، فأنكم والله قد توضحت خدعها، وتصرم متاعها، وجل متوقعها، والسعيد من وثق بما قدم لنفسه بعد نفاذ أيامه، وورود حمامه، والشقي من أفرط وفرط، وندم حيث لا مندم، وأوعز إلى والي الحرب فلان بقراءة ما نص فيه عليكم، واختبار سيركم بعد مروره على أسماعكم، فمن رغب في التقوى، وآثر الآخرة على الدنيا، عرف ذلك وتوخاه بتكريمه وتخويله، ومن أبى إلا غواية وضلالة، وبطالة ومحالاً، أقام حد الله تعالى عليه غير مراقب فيه، فرحم الله عبداً صان نفسه في هذه الدار عن العار، وحماها في الآخرة من عذاب النار، وأمير المؤمنين يرجو أن ينفعكم الله بهدايته، ويشفي صدوركم بموعظته، ويرشدكم إلى ما يفضي بكم إلى الكفاية والحماية. فليعلم فلان بن فلان ذلك من أمير المؤمنين ورسمه، وليعمل عليه بجملته، إن شاء الله تعالى.

الصنف الحادي عشر الكتب في النهي عن التنازع في الدين

قال في مواد البيان: من أهم ما صرف إليه السلطان تفقده، ووقف عليه تعهده أمر الرعايا في أعماله، وتنفيذ الكتب إليهم بالنهي عن التنازع في الدين، وحسم أسباب المجادلة والمراء، والتحذير من اتباع البدع والأهواء، والإخلاد إلى مضل النحل والآراء، لأنه متى فسح لهم في هذا الباب صاروا شيعاً متباينين، وفرقاً متحاربين، وانشقت عصاهم، وانقضت حليهم، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان. ولهذا صرف إليه الساسة الحزمة من الملوك الاهتمام، ولم يبخلوا بحسم مادته على تغاير الأيام.
ثم قال: والرسم فيها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمه في تأليف كلمة أهل الإسلام، وما من به عليهم من الاتفاق والالتئام، وشكره على موهبته في نزع الغل من صدورهم، والتأليف بين قلوبهم، وتصيير إخواناً متصافين، وخلاناً متوافين، وعونهم بما وفقهم له من إظهار على من شق عصاهم، وإقدارهم بما منحهم من الألفة على مراماة من رماهم، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكنه الله تعالى من مراضيه، ووفقه له من القيام بفرضه، والنهوض بحقوق طاعته، والعمل بكتابه وسنته، ورغبته في الخير العام وشمول الصلاح لكافة الأنام، لا يزال يحص رعيته على ما يقضي بسداد دنياهم، وحسن المنقلب في أخراهم، ويرى أن أنفع ذلك عائدة، وأجزله فائدة، ما رفع عنهم أسباب التنافر، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر، وحال بينهم وبين الخوض في محدث النحل والآراء، والإصغاء إلى مضل البدع والأهواء التي تصد عن سنن الهدى، وتلقي في مهاوي الردى، وتدعو إلى شق العصا، وتقضي بانتثار النظام، واختلاف الأنام، وانفصام عرى الإسلام، وكفهم عن المماراة في الدين، والإصغاء إلى سنة المضلين، المعطلة للسنن، القادحة للفتن، الداعية إلى احتقاب الآثام، وإراقة الدماء الحرام، ونحو ذلك مما يضاهيه.

ثم يقول: وانتهى إلى أمير المؤمنين التفاتكم عن معايشكم التي جعلها الله لدنياكم قواماً، وعبادتكم التي صيرها لآخرتكم نظاماً، وإقبالكم على المماراة والمنازعة، والمناظرة والمجادلة، إلى شكوك يقيمها من يرغي في الرياسة والتقدم، ليفوز بخبيث المطعم الذي يعمي البصائر، ويفسد السرائر، ويقدح زند الضلال، ويشب نار المحال والانتحال، فامتعض أمير المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليم عاجله، وذميم آجلته، وبادركم بكتابه هذا منبهاً لغافلكم، ومرشداً لجاهلكم، وباعثاً لكم على التشاغل بما أطاب أخباركم، وحسن آثاركم، من تلاوة كتاب الله الذي آثركم بتلاوته، وزيارة بيوت عبادته، والتأدب بأدب نبيه وعترته، وأوعز إلى النائب في الحرب بتقويم من خرج عن أمره، وتثقيف من أصر على غيه، وأن يحسم الداء قبل استشرائه، ويستدركه دوين استفحاله، فأصغوا إلى زواجر أمير المؤمنين ومواعظه، واقتدوا بهديه ومراشده، لتفوزوا بطاعته، وتسعدوا برضاه، وتسلموا في الحاضر، من مهانة أنتم بغيرها أولى، إن سلكتم الطريقة المثلى، وفي الغابر مما أعده الله لمن أمره من العقاب في الدار الأخرى، فاعلموا هذا واعملوا به إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني عشر المكاتبة بالأوامر والنواهي

قال في مواد البيان: على هذه الكتب مدار أشغال السلطان في أعماله، لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولاية وعمالة. قال: وليس لهذه أمثلة فنوردها، لكنه ينبغي للكاتب أن يؤكد القول بها، فإن الأمر فيها والنهي – وإن اختلف نظمها – نوع واحد، لأن كل مأمور به منهي عن ضده، وكل منهي عن ضده مأمور بضده، فينبغي له أن يؤكد القول في امتثال ما أمر، والعمل عليه والانقياد له، والانتهاء عما نهى عنه، والحذر من الإمام به. ويجزم المر في العبارة عنهما جزماً تاماً لا يتمكن معه من الإخلال ببعضهما والنقص فيهما لهوى، ويأتي من المبالغة بما يضيق العذر، ومتى وقع تقصير أو تثاقل عما حدد فيهما، فإنما يمثل

مثل ذلك جامعة من تفنن المعاني التي يأمر بها وينهى عنها. ثم قال: والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في ذهين الغرضين على طريق الإجمال، أمكنه أن يبسطه إذا احتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى.

واعلم أن كان للخلفاء والملوك وولاة الأمور في قديم الزمان عناية بالكتابة إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يجري مجرى ذلك، وغلى العمال بالوصية بالرعايا، والاجتهاد فيما لديهم م جباية الخراج، والاهتمام بأمر الدواوين، وما أشبه ذلك.

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين، فقد تقدم في الكلام على مصطلح أهل الغرب في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازازي ما أغنى ذكره هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره.

وأما الأوامر والنواهي المتعلقة بأمور السلطنة، فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله بن الجنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هود أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرفق بالرعية، وهو: أما بعد الحمد لله تعالى معلي منار الحق ورافعه، وموالي متوالي الإنعام ومتتابعه، والصلاة على سيدنا محمد رسوله مشفع الحشر وشافعه، المبعوث ببدائع الحكم وجوامعه، وعلى آله وصحبه المبادرين إلى مقاصده العلية ومنازعه، والذابين عن حوزة الإسلام بمواضي الاعتزام وقواطعه، والرضا عن الخليفة الإمام العباسي أمير المؤمنين ذي المجد الذي لا ينال سمو مطالعه.

فإنا كتبنا إليكم، كتب الله لكم عزة قدحها بالثبوت فائز، وسعادة قسطها للنماء حائز، من فلانة: وكلمة الحق منصورة اللواء، منشورة الأضواء، والتوكل على الله وشكره وصلتنا إلى نيل مزيد النعماء والآلاء، ومكانتكم لدينا مكانة السني المناصب، المنتمي إلى كرام المنتميات والمناسب، والمتحلي بالغناء والاكتفاء، والخلوص والصفاء، بأكرم السجيات والمناقب، المعلوم ما لديه من المناصحة السالكة بأكرم السجيات في المناجي الحسان على المهيع الأوضح والسنن الأرحب.

وقد وقفنا على كتابكم معلماً بخبر فلانة وربما رأيتموه من المصلحة في تحصينها، والاجتهاد في سبب تأمينها، ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح،

وتتوخون ما تتوسمون فيه النجاح، لكن أهم الأمور عندنا، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا، الرفق بالرعية، وحملها على قوانين الإحسان المرعية، وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب أهل فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم، ويتظلمون من متحيفيهم ومتعسفيهم، وفي هذا ما لا يخفى عليكم، ولا ترضون به لو انتهى إليكم، ولا يعلم طريق الرفق الحاوية لرفق الخاصة والجمهور، أعاد التسكين تنفيراً، والتيسير تعسيراً، وتعلمون أنا لا نقدم على إيثار العدل في عباد الله المسلمين عملاً، ولا نبغي لهم باطنة بغير التخفيف عنهم والإحسان إليهم بدلاً، وأنتم أول وأولى من يعتقد فيه أنه يكمل هذا المقصد، ويتحرى في مصالح الرعايا هذا السنن الأرشد، وقد خاطبنا أهل فلانة بما يذهب وجلهم، ويبسط أملهم، وعرفناهم بأنكم لو علمتم ما هو جار عليهم من بعض الخدمة لأخذتم على يده، وجازيتموه بسوء معتمده، وأشعرناهم بأنا قد أوصيناكم بهم خيراً، ونبهناكم على ما يدفع عنهم ضيماً ويرفع ضيراً، وأنتم – إن شاء الله – تستأنفون نظراً جميلاً، وتؤخرون عنهم الخدمة الذين لا يسلكون من السياسة سبيلاً، وتقدمون عليهم من تحسن فيهم سيرته، وتكرم في تمشية الرفق علانيته وسريرته، ومثلكم لا يؤكد عليه في مذهب تحسن عواقبه، وغرض يوافقه القصد الاحتياطي ويصاحبه، إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث عشر المكاتبة عند حدوث الآيات السماوية

قال في مواد البيان: جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا عند حدوث الآيات المهولة التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده: إلى الإقلاع عن معصيته، والإقبال على طاعته، كالرياح الواصف، والزلازل والصواعق، واحتباس القطر وخروجه في التسكاب عما جرت به العادة كتباً يضمنها من الوعظ الشافي الرقيق ما يأخذ بمجامع القلوب ، ويشعرها التقوى والرهبة ، ويبعث على المراقبة والنظر في العاقبة .

قال: وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة، ويبالغ في الذكرى التي تخطر الخواطر وتقدحا الأنفس، وتحرك العزائم نحو الإخلاص، فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورة تشعر الخيفة من غضب الله تعالى وعقبه، وترغب في عفوه وثوابه، نفع الله بذلك؟ من رغب عن الهوى ورغب في التقوى بكتابه.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على آلائه التي يفضيها ابتلاء واختبار، وآياته التي يرسلها يخويفاص وإنذاراً، وموهبته في التوقف بسابغ نعمته على طاعته، والتحذير بدافع نقمته من معصيته، والصلاة على رسوله الذي أنقذ بشفاعته، وعصم من نزول القوارع بنبوته. ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعذار أمام سخطه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه، فمن استيقظ من سنته، ونظر لعاقبته ونهض إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف الرين عن قلبه، وضاعف أجره، ومن أضرب من موعظته، وتعامى عن تبصيره وتذكيره، أخذه على غرته، وسلبه سربال نعمته.

ثم يأخذ في حث الأمة على الفزع إلى الصلوات، والمسارعة إلى بيوت العبادات، والإكثار من التضرع والخشوع، الاستكانة والخنوع، بإذراء سحائب الدموع، وإخلاص التوبة عن محتقب الآثام ومخترع الأوزار، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإنابة بقلوب نقية، وطويات على الطهارة مطوية، وسرائر صريحة، ونيات صحيحة، يصدقها الندم على الماضي، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي، والرغبة إليه في رفع سخطه وإنزال رحمته، وما يجاري هذا. قلت: وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا، فلا عناية لأحد به أصلاً، وإن كان مما يجب الاهتمام به وتقديمه.

؟الصنف الرابع عشر: المكاتبات في التنبيه على شرف مواسم العبادة وشريف الأزمنة.

قال في مواد البيان: إن الله وقت لعباده أوقاتاً عظم شانها، ورفع مكانها، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لطفاً بهم ورأفة، وحناناً ورحمة. قال: ولم يزل السلطان يكتب إلى عماله بتنبيه الرعايا عليها، وتعريفهم فضل العبادة

فيها، ليستقبلوا بالإخبات والخشوع، ويتلقوها بالتضرع والخضوع، ويتوسلوا في قبول التوبات، وغفران الخطيات، حفظاً للنظام الدين، وتفقداً لمصالح المسلمين.

قال: وينبغي للكاتب أن يحسن في هذا الكتب ويذكر الناسي وينبه الغافل اللاهي، والمهمل الساهي، ويحرك النفوس نحو مصالحها، ويبعثها على الأخذ بفاضل الأعمال وصالحها.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يقبل فيها قربهم وأعمالهم،ويخفف بالإنابة إليه عند حلولها أوزارهم وأثقالهم، فيغفر لمستغفرهم، ويعفو عن مسيئهم، ويقبل التوبة من تلئبهم، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله. ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات، والإنابة عما قصرها على العبادات، والمسابقة إلى لخيرات، من عظيم الثواب. ويشفع ببعث الولاة على أخذ الرعايا بالمحافظة على السنن، وتعهد حق الله تعالى فيها، والتوسع في توكيد الحجة، ونفي الشبهة، وإيراد المواعظ الرادعة، والزواجر الوازعة، التي تعود بشحذ البصائر، وصفاء الضمائر، والإتيان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها، والفوز بما يوفره من جزيل بركاتها، والتوفر على حسن مجاورتها، والتقرب إلى الله تعالى ببذل الصدقات، والإقبال على الصلوات وزيادة بيوت العبادات، ومذاكرة أهل الدين، والسعي في مصالح المسلمين، ونحو ذلك مما يناسبه.

ثم قال: فإن كان الكتاب مقصوراً على الدعاء افتتح بالحمد على أن جعل لعباده حرماً آمناً يمحص ذنوبهم بزيادته، ويمحو آثامهم بحجه ووفادته، ويلي ذلك ما يليق به من الحث على تأدية المناسك، وتكميل الفرائض والسنن، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدينية.

الصنف الخامس عشر: المكاتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد

وما ينخرط في سلكها من المواكب الجامعة.

قال في مواد البيان: جرت العادة أن يكاتب السلطان عماله وولاته بسلامة المواسم الإسلامية كلها، لأنها تشاهد لجميع أصناف الرعايا وذوي الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة، والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا، وكل متربص لفتنة ينتهز فرصتها. فلا تكاد هذه المشاهد تخلو من ثورة وحدوث أحداث منكرة تقضي إلى الفتن التي لا ترفع. فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها، وجب التحدث بنعمته، والشكر لمشيئته، وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قبله إلى عماله، لتسكن الكافة إلى ذلك، ويشتركوا في حمد الله تعالى عنه.

واعلم أن المراسم التي تكاد يعتاد الخلفاء الركوب فيها والكتابة بالسلامة منها هي: عيد الفطر، وعيد النحر. وكان الخلفاء الفاطميون بالديار المصرية يعتادون مع ذلك الركوب في غوة السنة، وفي أول رمضان، وفي الجمعة الأولى، والجمعة الثانية، والجمعة الثالثة منه، على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية. وكذلك عيد الغدير: وهو عيد من أعياد الشيعة كما سيأتي ذكره.

ونحن نشير إلى ذكر مواكبها موكباً موكباً، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في الركوب كل مركوب منها.

الأول: البشارة بالسلامة في الركوب في غرة السنة. وقد تقدم الكلام على صورة الموكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته وهي:

الحمد لله الذي لم يزل يولي إحساناً وإنعاماً، وإذا أبلى عبيده عاماً أجد لهم بفضله عاماً، فقد أمدكم معاشر الخلفاء كرماً ومناً، وآتاكم من جوده أكثر مما يتمنى ومنحكم من عطائه ما يوفي على ما أردتموه، " سخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه " وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه، ومهيأة لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه، وبين بإرشاده ما تجري

أمور السنين عليه في العدد والحساب، ونسخ ما كانت الجاهلية تفعله فيه زيادة في الكفر وضلالاً عن الصواب، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته، وضاعف الأجر لأهل ولايته، ومنح شيعته مقبول شفاعته، وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه، والقائمين بواجب حقه، والعاملين في سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه، ويضمن غفرانه ورضوانه، وسلم عليهم أجمعين، سلاماً باقياً على يوم الدين.

وإن الحق بنشر الذكر وأوجبها للوصف وإعمال الفكر، نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس، ووضح ضياؤها لأولي الألباب وضوح الشمس، واشترك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم، وانتفعوا بذلك في تواريخهم ومعاملاتهم وما لهم وعليهم، وتلك هي المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها، ومبدؤها ومستقبلها، وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان. وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام فلان ليتساوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة، فيكون استقلال ركابه إشعاراً بأن اليوم الذي تجلى فيه لأوليائه، ولرعاياه المتفيئين ظل لوائه، هو افتتاح السنة وأول محرمها، وعليه المعتمد في عدد تام الشهور وناقصها من مفتتحها إلى مختتمها، يوم كذا غرة المحرم في سنة كذا، في عساكر لا يحصر عددها، وقبائل لا ينقطع مددها، وإذا اضطرمت نار الكفر والتهبت، طفئت بأنوارهم وخبت، وقد تقلدت هندية تروع إذا أشرقت وسكنت، فما أظن إذا اصطحبت، والأرض بمرورها عليها مبهجة مونقة، وملائكة الله عز وجل حافة به محدقة، فآذن بأن اليوم المذكور هو غرة السنة المعينة، وأن اليوم الفلاني أمسه انسلاخ كذا سنة كذا المتقدمة، لتسقيهم أمورهم على أعدل نهوجهم، وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطرهم وحجهم، وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوه الأمير على من يسكن عمله، وجميع من قبله، ويتماثلوا في معرفته، ويحمل كل منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته، ويشكروا الله على النعمة عليهم بهدايته.

الثاني: البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان، وهو أعلى نحو تقدم في الركوب في غرة السنة.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو: الحمد لله كالئ خلقه في اليقظة والمنام، والكفل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة الأنام، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب أخلص ولي، وأشرف وصي، وأفضل إمام، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام، صلاة دائمة الاتصال، مستمرة في الغدو والآصال.

وإن من المسرة التي تتهادى، والنعمة الشاملة للخلق جميعاً وفرادى، ما من الله به ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا، إعلاماً بأول الشهر وافتتاحه، وأن الصيام المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده، وأوليائه وأنصاره وعبيده، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة، وملائكة الله مطيفة حافة، وعوده إلى قصوره الزاهرة، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة. أصدر إليك هذا المر على الجملة، وتشكر النعمة السابغة على أهل الملة، وتتلوها على أهل عملك، وتطالع بكائنك في ذلك، فاعلم هذا واعمل له، إن شاء الله تعالى.

الثالث: الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان.

وهذه نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً، وهي: أفضل ما سير ذكره، ووجب حمد الله تعالى عليه وشكره، ما عاد على الشريعة بالجمال والبهجة، وأضحى واصفه صحيح المقال صادق اللهجة، فضاعف حسنه ومحص سيئه، وجعل أسباب السعادة متسهلة متهيئة، وذلك ما يسره الله تعالى من استقلال ركاب سيدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة كذا، مؤدياً خطبتها وصلاتها، وضامناً لأمة ائتمت به خلاصها يوم الفزع الأكبر ونجاتها، في وقار النبوة وسكينة الرسالة، والهيبة المستولية على العظمة والجلالة، والعساكر الجمة التي تقلق بمهابتها وتزعج، وتظن لكثرتها واقفة والركاب يهملج، ولما انتهى إليه، خطب ووعظ ففتح أبواب التوبة، وآب إلى الطاعات من لم يطمع منه بالأوبة، وصلى صلاة تقبلها جل معز بقبول حسن، وقصر في وصفها ذوو الفصاحة واللسن، وعاد إلى مستقر

الخلافة، ومثوى الرحمة والرأفة، وعين الله له ملاحظة، وملائكته له حافظة.
أعلمت ذلك لتذيعه في أهل عملك، وتطالع بكائنك.
الرابع: المكاتبة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رمضان.

قد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة بالديار المصرية في الدولة الفاطمية، في المقالة الثانية، أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رمضان على الجامع الأنوار، وهو جامع باب البحر، الذي عمره الحاكم بأمر الله، وجدده الصاحب شمس الدين المقسي.
وهذه نسخة كتاب في المعنى، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً، وهي: لم يزل غامر كرم فضل وفضله، يفوق حاضره ما كان من قبله، فنعمة الله تعالى سابغة ومننه متتابعة، وملابسها ضافية، ومغاربها نامية، وسحائبها هامية، وهو جل وعز يضاعفها على من صلى وصام، ويواليها عند تمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصال لها ولا انفصام، وتجدد من ذلك ما كان من بروز مولانا وسيدنا الإمام فلان، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة كذا، في مشايخ عزه، وباذخ مجده، وتوجهه إلى الجامع الأنوار المنسوب إلى مولانا الإمام الحاكم بأمر الله جده، سلام الله عليه وصلواته، وبركاته وتحياته، وعساكره قد تجاوزت الحد، وكثرت عن الإحصاء والعد، فإذا تأملها الطرف انقلب عنها خاسئاً وارتد.
ولما وصل إلى الجامع المذكور خطب فأورد من القول أحسنه، ووعظ فأسمع من الوعظ أوضحه وأبينه، وصلى صلاة جهر بالقراءة فيها ورتلها، وعاد إلى قصوره الشريفة وقد شملت البركات برؤيته، ووفق من عمل بموعظته، ونجا من اقتدى به في صلاته، واستولى على السعد من جميع أرجائه وجهاته. أعلمناك ذلك لتعرف قدر النعمة به، فاشكر الله سبحانه بمقتضاه، واعتمد تلاوة هذا الأمر على رؤوس الأشهاد، فاعلم ذلك.
الخامس: المكاتبة السلامة في الركوب في الجمعة الثالثة من شهر رمضان.
قد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب في

الجمعة الثالثة منه إلى الجامع العتيق بمصر، فيخطب فيه ويعود إلى قصره.
وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي: من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبيده، وتعويضهم للشكر عليه بنموه ومزيده، والامتنان بتيسير عصيه، وتعجيل بعيده، فهو لا يخلبهم من نواجمه، ولا يعفيهم من هواجمه. ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته، وشمول خيراته، أن مولانا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، والى فيه بركته، وزكى أعمال المؤمنين في استماع اختطابه والائتمام بصلاته، وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان، اعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر ليسهم لهذه المدينة من حظي والدنيا والآخرة، مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعزية القاهرة. فكانت هيبته يعجز وصفها كل لسان، وظهر - عليه السلام - في الردائين: السيف والطيلسان، والجيوش قد انبسطت وانتشرت، والنفوس قد ابتهجت واستبشرت، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوفرت. وعند وصوله خطب فأحسن في الألفاظ والمعاني، وحذر من تأخير التوبة والتضجيع فيها والتواني، وصلى صلاة شرفها الله وفضلها، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها، وانكفأ عائداً إلى قصوره ومنازله المعظمة، ضاعف الله له ثوابه وأجره، وأوجب شكره ورفع ذكره، ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك ليبالغ الكافة في الاعتراف بالنعمة فيه، ويواصلوا شكر الله تعالى عليه، والمطالعة بما اعتمد فيه.
السادس: ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد الفطر.
وقد تقدم الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية، أن الخليفة كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد، ويخرج من باب العيد من أبواب القصر، ويتوجه إلى المصلى فيصلي ويخطب، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارة مع خلو الدولة عن وزير، وتارة مع اشتمالها على وزير.
وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خلو الدولة عن وزير، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو:

الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار، ومعوض المطيعين من جزائه ببلوغ الأوطار، الذي نسخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار، وكلف عباده ما يطيقونه ووعد عليه جزيل أجره، وأسبغ من نعمته ما لا يطمع في القيام بواجب حمده عليه وشكره، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أعلن بالإيمان وباح، وبين المحظور في الشريعة والمباح، وأرشد إلى ما حرمه الإسلام وحلله، ومهد سبل الهدى لمن استغواه الشيطان وضلله، وأوضح مراتب الأوقات ومنازلها، وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي مضت في الله عزماته، وبيضت وجه الدين الحنيف مواقفه ومقاماته، وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفلوا أمر الأمة نصاً، وامتطوا على منارها فلم يألوا جهداً ولم يتركوا حرصاً، فالحاضر منهم يوفي على من كان من قبله، وأحزاب الحق فرحون بما آتاهم الله من فضله، وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه، وشرفهم تشريفاً لا انفصال لإبرامه، وأسنى ومجد، وتابع وجدد. وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا: بعد أن وفى الصيام حقه، وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه، وبعد أن أفطر بحضرته الأولياء من آله وأسرته، والمقدمون من رؤساء دولته، والمتميزون من أوليائه وشيعته. وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ارتقب بروزه من قصوره، وتجلى فأشرقت الأرض بنوره، توجه إلى المصلى قاضياً لسنة العيد، فكانت نعمة ظهوره بالنظر للحاضر وبالخبر للبعيد، واستقل ركابه بالعساكر المنصورة التي أبدت منظراً مفتناً معجباً، وجعلت أديم الأرض بالخيل والرجال محتجباً، وذخرت الانتقام ممن شق العصا وتجاوزت في الكثرة عدد الرمل والحصا، وزينت الفضاء بهيئتها وروعت الأعداء بهيبتها، وجمعت بين الطاعة وشدة الباس وادرعت من التقوى أمنع جنة و أحصن لباس ولم يزل سائراً في السكينة والوقار، ناظراً للدنيا بعين الاحتقار، والثرى بالجباه والشفاه مصافح ملثوم فهما موسومتان به وهو بهما موسوم إلى أن وصل إلى مقر الصلاة، ومحل المناجاة فصلى أتم صلاة وأكملها وأدها أحس تأدية وأفضلها وأخلص في التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت أمراً ويخشى الله ويتقيه ونصح في إرشاده ووعظه، وأعرب ببديع معناه وفصيح لفظه،

وعاد إلى مثوى كرامته، وفلك إمامته، محمود المقام، مشمولاً بالتوفيق في النقض والإبرام. أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك، وتشكروا الله على النعمة الشاملة لهم ولك، فاعلم هذا واعمل به، إن شاء الله تعالى. وكتب في اليوم المذكور
.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، والدولة مشتملة على وزير، عن الحافظ لدين الله الذي العلوي خليفة الديار المصرية، في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وهي:
الحمد لله الذي أعز الإسلام وشيد مناره، وأيد أولياءه ونصر أنصاره، وأظهر في مواسمه قوته واستظهاره، وختم الشرائع بشرف أبدي فكان حظها منه إيثاره، وخط الإسلام استبداده به واستئثاره، وصلى الله على جدنا محمد الذي كرمه باصطفائه، وأسعد من حافظ على اتباع نهجه واقتفائه، وبين بشرعه ما حلله وحرمه، ودعا الأمة بإرساله إلى دين قيم أعلى بناءه وأحكمه، ووعدهم على مفروضة ومسنونه جزيل الأجر، وأمر في اعتقاد خلافه بالدفع والمنع والزجر، وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أول الأئمة الخلفاء، والمشتهرة فضاءله اشتهاراً ليس به من خفاء، ومن حباه الله المحل الرفيع والمن الجزيل، وخصه من الشرف بما جاء فيه من محكم التنزيل، وعلى الأئمة من ذريتهما القائمين بفرض الله والمؤدين لحقوقه، والذين كفلت أمانتهم بانبساط نور الحق وانتشار لوائه وخفوقه، وسلم وكرم، ومجد وعظم.

وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، الذي أمر الله فيه بما نهى عنه من قبله، وضاعف الأجر بكرمه وفضله، فرفع تكاليف الصوم، وأوجب الإفطار في هذا اليوم وساوى في ذلك بين كل متهم ومنجد وأمر بني آدم فيه بأخذ الزينة عند كل مسجد، وكان من خبره أن الفجر لما طلع مبشراً بالشمس، ومؤذناً ببعثها من الرمس، تتابعت الجيوش الموفورة، والعساكر المنصورة إلى أبواب القصور الزاهرة توكفاً لأنوار أمير المؤمنين، وترقباً لظهوره قاضياً حق الدين، فلما أسفر الصبح وأضاء، وملأت الخلائق الفضاء تجلى من أفلاك إمامته، وبرز فأغبط كل مؤمن بثباته على

المشايعة وإقامته وكان ظاهراً وهو محتجب بالأنوار، وممتنعاً وهو منتهب بالأبصار ، والكافة يصافحون الأرض ويجتهدون في الدعاء بإخلاص نياتهم، والعساكر المؤيدة لو أنها عمت الأرض بتطبيقها ، وساوت بين قريبها وسحيقها ، وصارت كالجبال الرواسي فيها، لكانت قد تزلزلت ومادت بأهليها، وهي مع تباين أجناسها وطوائفها متظافرة على معاندي الدولة ومخالفيها، متلائمة على الولاء، متمالئة على الأعداء، تتلفت إلى المجاهدة كأنها الأسود إقداماً وباساً، وكأنها فصلت جوامد الغدران سلاحاً لها ولباساً، والسيد الأجل الأفضل التي عظمت به المواهب وجلت، وذهبت بوزارته الغياهب وتجلت، وتهلل بنظره وجه الملة وكان عابساً، وأعاد الدولة معصراً وقد كانت قبله عانساً، وحسنت الدنيا بأيامه إذ ليس فيها من يضارهيه، وانتظمت أمورها على الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه، ترتب المواكب بمهابته، ويستغنى بتوغلها في القلوب عن إيمائه وإشارته، وكل طائفة مقبلة على شانها، لازمة لمكانها، متصرفة على تهذيبه وتقريره، عاملة بآدابه ، فوقوفها بوقوفه ومسيرها بمسيره.

وتوجه أمير المؤمنين إلى المصلى محفوفاً بأنوار تجلى ما أنشأته سنابك الخيل، وتمحو آية نقع قام مثارها مقام ظلال الليل، وعليه من وقار الإمامة، وسكينة الخلافة، ما خصه الله تعالى دون البرية وحده، لأنه مما ورث أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وجده، ولما انتهى إليه قصد المحراب وأمه، وأدى الصلاة أكمل أداء وأتمه، ثم انتهى إلى المنبر فعلاه، ومجد الله تعالى وحمده على ما أولاه، ووعظ وعظاً خوف عاقبة المعاصي والذنوب وحل وكاء العيون وداوى مرض القلوب، وأمر بسلوك سبيل الطاعات وأفعال البر، وحث على التوفر عليها في الجهر والسر، وعاد إلى قصوره المكرمة، ومواطنه المقدسة، وقد بذل في نصحه لله وللمؤمنين جهده، وفعل في الإرشاد والهداية ما لا غاية بعده. أنابك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه، وتذيعه قبلك على الرسم فيما يجاريه، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

السابع: ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر.

قد تقدم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان

يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر، تارة مع اشتمال الدولة على وزير، وتارة مع عدم اشتمالها على وزير.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي: أما بعد، فالحمد لله الذي أعلى منار الملة، وشرف مواسم أهل القبلة، وكفل أمير المؤمنين أمر الأيام، كما كلفه أمر الأنام، فرأى الناس من حسن سيرته أيقاظاً ما لا يرونه مجازاً في المنام، وصلى الله على جدنا محمد ونيه الذي أرسله إلى الناس كافة، وجعل العصمة محيطة به حافة، فأطلع في ظلام الشرك شمس التوحيد ببدره، وآمن به من شرح الله للإسلام صدره، وعصاه من تمرد فأثقل الوزر ظهره، وبين عبادات كرم أجرها وعظم ثوابها، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحة أبوابها، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مظافره ومظاهره، والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره، ولم يزل حاملاً على المحجة البيضاء جاعلاً ذلك من قربه وذخائره، قائماً بحقوق الله جاهداً في تعظيم حرماته وشعائره، وعلى الأئمة من ذريتهما نجوم الأرض وهداة أهلها، والواجبة طاعتهم على م في وعرها وسهلها، والذابين بالمشرفية عن حمى الشريعة، والذين متابعتهم من أوجه ذريعة.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا، وهو يوم أظهر الله قوة الدولة واقتدارها، وأوجب فيه - رغبة ورهبة - مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر، وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمة، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه، وقصد المصلى في كتائب لجبة، ومواكب للتعظيم مستوجبة، وعزة تتبين في الشمائل والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات، قد غدت عددها محكمة، وخيولها مطهمة، وذوابها إذا ظمئت كانت مقومة، وإذا رويت عادت محطمة، تتقلد

صفائح متى انتضيت أنصفت من الجائر الحائف، ومتى اقتضبت عملاً كان اقتضابها مبيضاً للصحائف، وفي ظلها معاقل للائذين، وبحدها مصارع للمنابذين، وهي للدماء هوارق، وللهامات فوالق، ولمستغلق البلاد مفاتيح ولمستفتحها مغالق.
ولما انتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاءه وأداها أفضل تأدية، واستنزل رحمة لم تزل بصلاته متمادية، وانتهى إلى المنبر فرقبه، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه، ووعظ أبلغ وعظ، وأبان عما للعامل بنصحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ، وعطف على الأضاحي المعدة له فنحرها جرياً في الطاعات على فعلها المتهادي، وأضحت تتوقع التكميل بإنجازه وعيده في الأعادي، فالله يقضي بتصديقه، ويمن بتخيله وتحقيقه، وعاد إلى قصوره المكرمة مشكوراً سعيه، مضموناً نفعه، مرضياً فعله، مشمولاً عبيده منه هو وأهله، وأعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا واعمل به. وكتب في اليوم المذكور.
وهذه نسخة كتاب في هذا المعنى، والدولة مشتملة على وزير، من إنشاء ابن قادوس، وهي: أما بعد فالحمد لله ماحي دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمراشده أئمة الهدى الكرام، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام، ومخول الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد الولوع والغرام، وصلى الله على جدنا محمد الذي لبى وأحرم، وبين ما أحل الله وحرم، وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ضرب وكبر، وحقر من طغى وتجبر، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين، وحتوف المعتدين، وسلم وكرم، وشرف وعظم.
وإن من الأيام كملت محاسنها وتمت، وكثرت فضائلها وجمت، ووجب تخليد عز صفاتها، وتعيين تسطير تأثيراتها، يوم عيد النحر من سنة كذا، وكان من قصصه أن الفجر لما سل حسامه، وأبدى الصباح ابتسامه، ونهض عبيد الدولة في جموع الأولياء والأنصار، وأولي العزيمة والاستبصار، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفنيتها، ومستلمين بسعادتها، وتألفوا صفوفاً نبهر النواظر، ويخجل تأليفها تألف زهر الروض الناضر، مستصحين فنوناً من الأزياء تروق، ومستتبعين أصنافاً من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق، والعلام خافقة، والرايات بألسنة

النصر، على الإخلاص لإمام العصر، متوافقة، فأقاموا على التشوف لظهوره، وتطلع للتبرك بلامع نوره.

ولما بزغت شمس سعادته، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته، وبدت أنوار الإمامة الجلية، وظهرت طلعتها المعظمة البهية، خر الأنام سجوداً بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد، واستقل ركاب أمير المؤمنين ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه، وناضل عن حوزة الدين وجاهد، وناضل أحزاب الكفار وناهد، يقوم بأحكام الوزارة، وتدبير الدولة أولي الإخلاص والطهارة، ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ من أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره، ويحسن السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير، ويخلص لله جل وعز ولإمامه، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في إعمال لهذمه وحسامه، وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره، متوافقة على امتثال أمره، قد رفعت السنابك من العجاج سحاباً، وخيلت جنن الجند للناظرين في البر عباباً. والجياد المسومة تموج في أعنتها، وتختال في مراكبها وأجلتها، وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً، وتفيد المعترض لوصفها إفراطاً، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً واشتطاطاً، وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل، ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكثيب المهيل.
أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً، لتذيع نبأه في عمل ولايتك، وتشيع خبره في الرعايا على جاري عادتك، فاعلم هذا واعمل به، وطالع مجلس النظر السيدي الأجلي بما اعتمدته في ذلك، إن شاء الله تعالى. وكتب في اليوم المذكور.
قلت: وهذا الصنف من المكاتبات قد فرض وترك استعماله بديوان الإنشاء في زماننا.

الصنف السادس عشر المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة في الركوب لفتح الخليج

وهذه لمكاتبة من خصائص الديار المصرية، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك.
ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جراً يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل، وإظهاراً للسرور بوفائه، الذي يترتب عليه الخصب المؤدي إلى العمارة وقوام المملكة، وانتظام أمر الرعية. وقد كان الخلفاء الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام، وكانت عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتباً مفردة، وبفتح الخليج وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة، ولعل فتح الخليج كان يتراخى في زمنهم عن يوم الوفاء، فيفردون كل واحد منهما بكتب.
فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبشارة به في الأيام الفاطمية، من إنشاء ابن قادوس، وهي: النعم إن كانت شاملة للأمم، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم، فأولاها بشكر تنشر في الآفاق أعلامه، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه، نعمة يشترك في النفع بها العباد، وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجماد، وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس، وترى الكنوز ظاهرة للعيان، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان، فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات، وهذا الأمر صادر على الأمير، وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك، وخلع على القاضي فلان بن أبي الرداد في يوم كذا وكذا، وطاف بالخلع والتشريفات، والمواهب المضاعفات، بالقاهرة المحروسة ومصر على جاري عادته، وقدم سيرته، ونودي على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً، واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق، وواصلوا بالشكر مواصلة لا تستوقفهم عنها العوائق، وبدا

من مسرات الأمم وابتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد، وينيلهم المنال السعيد، ويقضي لهم بالمآل الحميد. وموصل هذا الأمر إليك فلان، فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازه، وإجمال تلقيه وإفضاله، إلى ما جرت به عادة مثله من رجاء، وتنويه واحتفاء، وإكرام واعتناء، ليعود شاكراً. فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي:

أولى ما تحدث به ناقله وراويه،وتعجل المسرة حاضره ورائيه، ما كانت الفائدة به شائعة لا تتحيز، والنعمة به ذائعة لا يتخصص أحد بشمولها ولا يتميز، إذ كان علة لتكاثر الأقوات وبها يكون التماثل في الباء والتساوي في الحيات، وذلك ما من الله تعالى به بعد وفاء النيل المبارك، فإنه انتهى في يوم كذا من سنة كذا، إلى ستة عشر ذراعاً وزاد إصبعاً من سبعة عشر ذراعاً، وقد سيرنا، أيها الأمير، فلاناً بهذه البشرى إليك، وخصصناه بالورود بها عليك، فتلقها من الشكر بمستوجبها، واستقبلها من الابتهاج و الاغتباط بما يليق بها، واجعل الرسوم التي جرت العادة بتوظيفها لفلان بن أبي الرداد محمولة من جهتك إلى حضرتنا، لتولى إليه من جهتنا، فاعلم به إن شاء الله تعالى، وكتب في اليوم المذكور.

وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت، يكتب به في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل، وتسير به البريدية، وربما جبي للبريدي من الممالك شيء بسبب ذلك. وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يجبى للبريدي شيء بسبب ذلك.

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك: ولا زال عنه وإليه حديث الوفاء والندا، ويورد على سمعه الكريم نبأ الخصب الذي صفا موارده، ويهنئ بكل نعمة تكلفت للرعايا بمضاعفة الجود ومرادفة الجدا، ويخص بكل منة عمت مواهبها الأنام فلن تنسى أحداً.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي، وبحر كرمها لا ينتهي إلى مدى، وبشر بشراها دائم أبداً، تهدي إليه سلاماً مؤكداً، وثناء أضحى به الشكر مردداً، وتوضح

لعلمه الكريم أن الله تعالى قد جرى على جميل عادته، وأراد بالأمة من الخير ما هو مألوف من إرادته، ومنح مزيد النعم التي لم تزل تعهد من زياداته، فأسدى معروفه المعروف إلى خلقه، وأيدهم بما يكون سبباً لمادة عطائه ورزقه، فبلغهم تأملهم، وأجرى نيلهم، وزادهم بسطة في الأرض، وملأ به الملا وكبق به البلاد طولها والعرض، ونشر من الخافقين لواء خصبه، وأتى بعسكر ريه لقتل المحل وجديه، وبينما هو في القاع إذ بلغ بإذن ربه، فجعل من الذهب لباسه، وعطر بالشذا أنفاسه، ولم يترك خلال قطر إلا جاءه فجاسه، ونص السير فسير نص مجيئه في الأرض لما صحح بالوفاء قياسه، وغازلته الشمس فكسته حمره أصيلها لما غدت له بمشاهدة ماسه، ولم يكن في هذا العم إلا بمقدار ما قيل: أقبل إذ قيل: وفى، ومد في الزيادة باعاً وبسط ذراعاً، وأطلق بمواهب أصابعه كفاً، وعاجل إدراك الهرم في ابتداء أمره مطال شبابه، ومر على الأرض فحلا في الأفواه لما ساغ شكر سائغ شرابه، واعتمد على نص الكتاب العزيز فكاد أن يدخل كل بيت من بابه.

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء شيمه، وأغنت أمواجه عن منة السحب فذمت عندها ديمه، وزار البلاد منه أجل ضيف فرشت له صفحة خدها للقرى فعمها كرمه، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعاً ورفع لواءه بالمزيد ونشر، وجاء للبشر بأنواع البشر، فرسمنا بتعليق ستر مقاسه، وتخليقه وتضويع أنفاسه، وفي صبيحة اليوم المذكور كسر سد خليجه على العادة، وبلغ الأنام أقصى الإرادة، وتباشر بذلك العام والخاص، وأعلنت الألسنة بحمد ربها بالإخلاص، وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد، بسيط بحره المديد، متجدد النمو في كل يوم من أيام الزيادة جديد. فالجناب العالي يأخذ م هذه البشرى بأوفر نصيب، ويشكر الله على ما منح – إن شاء الله – هذا العام الخصيب، ويذيع لها خبراً وذكراً، ويضوع بطي هنائها نشراً، ويتقدم بأن لا يجبى عن ذلك بشارة بالجملة الكافية، لتغدو المنة تامة والمسرة وافية، وقد جهزنا بهذه المكاتبة فلاناً، وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نواب القلاع الفلانية جرياً على العادة، فيتقدم بتجهيزه بذلك على عادة همته، فيحيط علمه بذلك.

وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك، كتب بها في سابع عشر ذي القعدة سنة ست وستين وسبعمائة، وصورتها بعد الصدر: وبشره بأخصب عام، أخص مسرة هناؤها للوجود عام، وأكمل نعمة تقابل العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه أتم سلام، وأعم ثناء تام، وتوضح لعلمه الكريم، أن الله تعالى – وله الحمد – قد جرى في أمر النيل المبارك على عوائد ألطافه، ومنح عباده وبلاده من مديد نعمه مزيد إسعافه، وأورد الآمال من جنوده منهلاً عذباً، وملأها به إقبالاً وخصباً، وأحيا به من موات الأرض فاهتزت وربت، وأنبتت كل بهيج وأنجبت، وأينعت الرياض فجرت فيها الروح ودبت، وامتلأت الحياض ففاضت بالمياه وانصبت، وطله كالبدر في ازدياده، وتوالى على مديد الأرض بامتداده، إلى أن بلغ حده ووصل الفرج ومنع الشدة وفي يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط، وفاه الله ستة عشر ذراعاً فاه فيها بالنجح، وعم ثراه الأرض فأشرق بعد ليل الجدب بالرخاء أضوأ صبح، وفي ذلك اليوم علق ستره، وخلق مقياسه فاشتهر ذكره، وكسر سده، وتوالى مده، ونجز من الخصب وعده، وعلا الترع والجروف، وقطع الطريق فأمن م الجدب المخوف، وأقبل بوجهه على الأرض لباس النفع فبدلها بعد الظمأ رياً، فحمدنا الله تعالى على هذه النعم، ورأينا أن يكون للجناب العالي أوفر نصيب من هذا الهناء الأعم، وآثرنا إعلامه بذلك، ليكون في شكره هذه النعمة أكبر مشارك، فالجناب العالي يأخذ حظه من هذه البشرى، ويتحقق ما له عندنا من المكانة التي خصته في كل مبهجة بالذكرى، ويتقدم أمره الكريم بأن لا يجبى عن ذلك حق البشارة، ولا يتعرض إلى أحد بخسارة، وقد جهزنا بذلك فلاناً.

الصنف السابع عشر فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق عند وفاء النيل في كل سنة

وهو مما يتكرر في كل سنة عند ركوب الميدان، ويكتب به إلى جميع النواب الأكابر والأصاغر، وتجهز إلى أكابر النواب خيول صحبة المثال الشريف، ويرسم لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب الكرة، وتأسياً بالسلطان، فيركبون ويلعبون الكرة. والعادة في مثل ذلك أن تنشأ نسخة كتاب من ديوان الإنشاء الشريف، ويكتب بها إلى جميع النيابات، ولا يختلف فيها سوى صدرها، بحسب ما تقتضيه حال ذلك النائب.

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك، كتب في ذي القعدة سنة ستين وسبعمائة لنائب طرابلس، وصورته بعد الصدر: ولا زال تحمل إيه أنباء ما يبرد غلته من مضاعفة السرور، وتبث له أقوال الهناء بما يجب علته من النصر الموفور، ونخصه من إقبالنا الشريف بأكمل تكريم وأنم حبور.

صدرت هذه المكاتبة تهدي إليه من السلام والثناء كذا وكذا، وتوضح لعلمه الكريم أننا نتحقق مضاء عزائمه حرباً وسلماً، واعتلاء هممه التي تحرس بها الممالك وتحمى، وأن صوافنه ترتبط لتركض، وتحبس لتنهض، فلذلك نعلمه من أنباء استظهارنا ما يبهج خاطره، ويقر ناظره، وهو أننا لما كان يوم السبت المبارك خامس شوال، توجه ركابنا الشريف إلى الميدان السعيد وفاض به جنودنا فاخضرت مروجه، وظهر به نيرنا الأعظم فأشرقت آفاقه وتشرفت بروجه، وأقر العيون منير وجهنا المبارك وبهيجه، وغدا كل ولي بموالاة إنعامنا مشمولاً، وبمنالات إكرامنا موصولاً، وركض الأولياء بين أيدينا جياداً ألفت نزالاً وعرفت طراداً، وانعطفت ليناً وانفياداً، وعدنا إلى مستقر ملكنا الشريف وقد جدد الله تعالى لنا إسعاداً، وأيد لعزمنا المعان مبدأ ومعاداً، وآثرنا إعلام الجناب العالي بهذه الوجهة الميمونة، والحركة التي هي بالبركة مقرونة، ليأخذ حظه من السرور بذلك والهنا، ويتحقق من إقبالنا الشريف عليه ما يبلغ به المنى.

وهذه نسخة مثال شريف في المعنى، كتب به في العشرين من شعبان، سنة أربع وخمسين وسبعمائة. وصورته على الصدر: ولا زالت الميادين سعده لا تتناهى إلى

مدى، وكرات كراته في رحاب النصر تلمع كنجم الهدى، ومدور صوالجه كشواجر المران تحلو بتأييدها للأولياء وتغدو مريرة للعدا.

صدرت هذه المكاتبة وظفرها لا يزال مؤيداً، ونصرها لا برح مؤبداً، تهدي إليه سلاماً مؤكداً، وثناء كنشر الأرض بالندى، وتوضح لعلمه أننا لم نزل بحمد الله نتبع سنن سلفنا الشريف، ونجري الأمور على عوائد جميلهم المنيف، ونرى تمرين الأولياء على ممارسة الحروب، ونؤثر إبقاء آثار الجهاد فيهم على أحسن أسلوب، فلذلك لا نخل في كل عام بالتعاهد إلى الميدان السعيد، والركوب إليه في أسعد طالع يبديء النصر ويعيده، لما في ذلك من ابتهاج يتجدد، وأسباب مسرة لكافة الأنام تتأكد، ودعوات ألسنتها تتضاعف من الرعية وتتردد.

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رجب الفرد، ركبنا إلى الميدان السعيد في أتم وقت أخذ من السعد بمجموعه، وأظهر في أفق العساكر من وجهنا الشريف البدر عند طلوعه، ولم نبرح يومنا المذكور في عطاء نجيده، وإنعام نفيده، وإطلاق نبدئه ونعيده، والأولياء من أيدينا الشريفة يمرحون، وفي بحار كرمنا المنيف يسبحون، وفي ميدان تأييدنا المطيف يسيحون، والكرات كالشمس تجنح تارة وتغيب، وتخشى من وقع الصوالجة فتقابلها بوجه مصفر مريب. ثم عدنا إلى القلعة المنصورة على أتم حال، وأسعد طالع بلغ الأنام الأمان والآمال، والعساكر بخدمتنا الشريفة محدقون، ومماليكنا بعقود ولائنا مطوقون، والرعايا قد ألبسها السرور أثواباً، وفتح لها من الابتهاج أبواباً، وقد آثرنا إعلام الجناب بذلك ليأخذ حظه من هذه المسرة والبشرى، ويشترك هو والأنام في هذه النعمة الكبرى، ومرسومنا للجناب أن يتقدم بالركوب بمن عنده من الأمراء في ميدان طرابلس المحروسة، ويلعب بالكرة على جاري العادة في ذلك، ليساهم أولياء دولتنا القاهرة في ذلك، ويسلك طرقهم الجميلة أجمل المسالك. قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لم يزل مستعملاً بديوان الإنشاء، يكتب كلما ركب السلطان إلى الميدان الصالحي بخط اللوق، إلى أن عطل جيده من الركوب في أواخر الدولة الظاهرية

برقوق واقتصر على لعب الكرة في الميدان الذي جرت به العادة، فتركت المكاتبة بذلك من ديوان الإنشاء ورفض استعمالها.

الصنف الثامن عشر المكاتبة بالبشارة بحج الخليفة

لما كانت الأسفار، محل الأخطار، وموقع الاختلاف وحدوث الفتن، كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمالهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره. والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات، وأن النعمة أن يمن الله تعالى بقضاء المناسك، والوقوف المشعر الحرام، والطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج، ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، واتفاق الكلمة في جميع هذه الأحوال، على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر.

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج، وهي: الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناً، وحرماً من دخله كان آمناً، الذي اختار دين الإسلام على الأديان، وابتعث به صفوته من الإنس والجان، محمداً أكرم بني معد بن عدنان.

يحمده امير المؤمنين أن أعانه على تأدية حقه، ونصبه لكفالة خلقه، ووفقه للعمل بما يرضيه ويدني إليه، ويسأله أن يصلي على خير من غار وأنجد، وصدر وورد، وركع وسجد، ووحد ومجد، وصلى وعبد، وحل وأحرم، وحج الحرم، وأتى المستجار والملتزم، والحطيم وزمزم، محمد سيد ولد آدم، وعلى أخيه وابن عمه مصباح الدلالة، وحجاب الرسالة، وإمام الأمة، وباب الحكمة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ممزق الكتائب، ومفرق المواكب، ومحطم القواضب، في القلل والمناكب، وعلى الأئمة من ذريتهما الهادين، صلاة باقية في العالمين.

وإن أولى النعم بأن يستعذب ذكرها، ويستعطر نشرها، وتتحدث بها الألسنة، وتعد في مواهب الله الحسنة، نعم الله تعالى في التوفيق لحج بيته الذي

جعله مثابة لزائريه، والإطافة بحرمه الذي يوجب المغفرة لقاصديه، والنزول بأفنيته التي من يخدم بها فقد انسلخ من السيئات، وتلبس بالحسنات، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم النفر الأول، وقد قضى بحمد الله تفثه، ووفى نذره، وتمم حجته، وكمل طوافه، وشهد منافعه، وأدى مناسكه، ووقف الموقف بين يدي ربه قانتاً داعياً، وراغباً راجياً، وعرفه بعرفات إعلامه قبل سعيه، وإجابة تلبيته، وبلغه في منى أمانيه من رأفته، وأراه من مخايل الرحمة، ودلائل المغفرة، ما تلألأت أنواره، وتوضحت آثاره وأجراه على تفصيل العبارة في شمول السلامة لكل من حج بحجه، ووقف موقفه من أوليائه وخاصته، وعامته ورعيته، وأنعم باتفاق كلمتهم، واجتماع أهويتهم، واكتناف الدعة والسكون لهم، وزوال الاختلاف والمباينة بينهم.

فإن أراد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال: وهو يصدر بإذن الله تعالى عن موقفه هذا من البيت الحرام، إلى زيارة قبر النبي عليه السلام. فإن أزمع الانكفاء إلى مقره، قال: وأشعرك أمير المؤمنين ذلك وهو عائد بمشيئة الله تعالى إلى مقر خلافته، في عز من قدرته، وعلو من كلمته، وامتداد من سلطانه، وتضاعف من جنده وأعوانه، لتأخذ بحظك من الابتهاج والجذل، وتذيعه بين أهل العمل، ليشاركك العامة في العلم بهذه النعمة فيخلصوا لله الشكر عليها، ويرغبوا إليه في الزيادة منها، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفر في الجملة. والرسم فيه أن يذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك، من بلوغ المآرب، وتسهيل المقاصد، وإدراك الأوطار، وشمول النعمة في الذهاب والإياب، وما يجري مجرى ذلك مما ينخرط في هذا السلك، وهذه نسخته: الحمد لله ذي الطول والإنعام، والفضل والإكرام، والمنن العظام، والأيادي الجسام، الذي أرعى أمير المؤمنين من حياطته عيناً لا تنام، واستخدم لحراسته والمراماة دونه الليالي والأيام، وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظعن والمقام. يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأنام، وعدق به أساليب النقض والإبرام، ويسأله الصلاة على من اختصه بشرف المقام، وابتعثه بدين الإسلام، وجلا به حنادس الظلام، محمد خاتم الأنبياء الكرام

وعلى أخيه وابن عمه الهمام الضرغام، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مكسر الأصنام، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام، وأدلة الحلال والحرام.

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مستدراً لأخلافها، منتصباً لقطافها، ويفيض في ذكرها، مستدعياً للزيادة بشكرها، ويطلع خلصاءه على حسن آثارها لديه، وسبوغ ملابسها عليه، ليأخذوا بحظ من الغبطة والاستبشار، ويسرحوا في مسارح المباهج والمسار، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين استقر ركابه بناحية كذا، مبشراً لك نعمة الله في حياطته، وموهبته في سلامته، وما أولاه من إنارة الدليل، وتسهيل السبيل، وطي المجاهل، وتقريب المنازل، وإعذاب المناهل، وإنالة الأوطار، وتدميث الأوعار، وبركة المتصرف، وسعادة المنصرف، ووصوله إلى مقصده قرير العين، قليل الأين، محفوظاً سارياً وآئباً، مكلوءاً عائداً وذاهباً، مشرد النصب مسروراً، موفوراً النصيب محبوراً، في اجتماع من كلمة أوليائه على طاعته، ونفوذ بصائرهم في نصر رايته، وإعانته على ما استحفظه من عباده، واسترعاه من بلاده: ليأخذ بالحظ الأجزل، من الابتهاج والجذل، ويشكر الله تعالى على هذه النعمة المتجددة، ويضيفها إلى سوالف نعمه التالده، ويذيعها بين رعيته، وأنصار دعوته، ليشتركوا في ارتشاف لعابها، والتحاف أثوابها، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى. قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قليل الوقوع، فإن وقع مثله للكاتب في زماننا، خرجه على نسبة الأسلوب المتقدم.

الصنف التاسع عشر الكتابة بالإنعام بالتشاريف والخلع

وهذا الصنف مما أغفله صاحب مواد البيان ولا بد منه. والرسم فيه أن يكتب عن الخليفة أو السلطان إلى من أخلص في الطاعة، أو ظهرت له آثار كفاية، كفتح أو كسر عدو، وما يجري مجرى ذلك.

وهذه نسخة كتاب كتب به أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله، إلى صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه، قرين خلعة وفرسين بمركبين من ذهب وسيف وطوق، وهي: من عبد الله الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين، إلى صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين.
سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.
أما بعد – أطال الله بقاءك – فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بوأك المنزلة العليا، وأنالك من أثرته الغاية القصوى، وجعل لك ما كان لأبيك عضد الدولة وتاج الملة – رحمة الله عليه – من القدر المحل، والموضع الأرفع الأجل، فإنه يوجب لك عند كل أثر يكون منك في الخدمة، ومقام حمد تقومه في حماية البيضة، وإنعام يظاهره، وإكراماً يتابعه ويواتره. والله يزيدك من توفيقه وتسديده، ويمدك بمعونته وتأييده، ويخير لأمير المؤمنين فيما رأيه مستمر عليه من مزيدك وتمكينك، والإبقاء بك وتعظيمك، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.
وقد عرفت – أدام الله عزك – ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك، وجاحد صنيعته وصنيعتك، في الوثبة التي وثبها، والكبيرة التي ارتكبها، وتقديره أن ينتهز الفرصة التي لم يمكنه الله منها، بل كان من وراء ذلك دفعه ورده عنها، ومعالجتك إياه الحرب التي أصلاه الله نارها، وقنعه عارها وشنارها، حتى انهزم والأوغاد الذين شركوه في إثارة الفتنة، على أقبح أحوال الذلة والقلة، بعد القتل الذريع، والإثخان الوجيع. فالحمد لله على هذه النعمة التي جل موقعها، وبان على الخاصة والعامة أثرها، ولزم أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نشرها والحديث بها، وهو المسؤول إقامتها وإدامتها برحمته.
وقد رأى أمير المؤمنين أن يجازيك عن هذا الفتح العظيم، والمقام المجيد الكريم، بخلع تامة، ودابتين بمركبين، من ذهب مراكبه، وسيف وطوق وسوار مرصع، فتلق ذلك بشكر الله تعالى عليه، والاعتداد بنعمته فيه، وألبس خلع أمير المؤمنين وتكرمته، وسر من بابه على حملاته، وأظهر ما حباك به أهل حضرته، ليعز الله بذلك وليه ووليك، ويذل عدوه وعدوك، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمته

وبركاته. وكتب فلان لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة، أطال الله بقاءك وأدام عزك، وأجزل حفظك وحياطتك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باق على الاستعمال، متى أنعم السلطان على نائب سلطنةٍ أو أميرٍ أو وزيرٍ أو غيره بخلعة بعث بها إليه وكتب قرينها مثال شريف بذكر ذلك، إلا أنه أهمل في ذلك السجع والازدواج، واقتصر فيه على الكلام المحلول كما في غيره من المكاتبات، إلا في النادر المعتنى بشأنه.

الصنف العشرون المكاتبة بالتنويه والتلقيب

قال في مواد البيان: جرت عادة الخلفاء بالكتابة بالتلقيب، لأن اللقب موهبة من مواهب الإمام، أمضاها وأجازها، فإذا جرت عليه كانت كغيره من نعمة التي يمنحها على عبيده، والكنية تكرمة يستعملها الناس فيما بينهم، فليس حكمها كحكم اللقب. قال: والرسم في هذه الكتب أن تفتتح بحمد الله على نعمه السابغة الضافية، ومواهبه الزاهية النامية، وعوارفه التي جعلها جزاء للمحسنين، وزيادة للشاكرين، ونحو هذا مما يليق أن يفتتح به هذا الغرض، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم يقال:

وإن أمير المؤمنين بما خوله الله تعالى من نعمه، وبوأه من قسمه، وخصه به من التمكين في أرضه، والمعونة على القيام بفرضه، يرى المن على خلصائه، وإسباغ النعم على أوليائه، واختصاصهم بالنصيب الأوفر من حبائه، والإمالة بهم إلى المنازل الباذخة، والرتب الشامخة، وإن أحق من وفر قسمه من مواهبه، وغزر سهمه من عطاياه ورغائبه، من تميز بما تميزت به من إخلاص ومطاوعة، وولاءٍ ومشايعةٍ، وانقيادٍ ومتابعةٍ، وصفاء عقيدة وسريرة، وحسن مذهبٍ وسيرة، ولذلك رأى أمير المؤمنين أن ينعتك بكذا لاشتياقه هذا النعت من سماتك،

واستنباطه إياه من صفاتك، وشرفك من ملابسه بكذا، وطوقك بطوق أو بعقد وقلدك بسيف من سيوفه، وعقد لك لواء من ألويته، وحملك على كذا من خيله وكذا من مراكبه. ويحسن الوصف في كل نوع من هذه الأنواع واشتقاق الألفاظ من معانيه، يعرب عن قدر الموهبة فيه. ثم يقال: إبانةً لك عن مكانك من حضرته، وإثابةً على تشميرك في خدمته، فالبس تشريفه وتطوق، وتقلد ما قلدك به، واركب حمولاته، وابرز للخاصة والعامة في ملابس نعمائه، وارفل في حلل آلائه، وزين موكبك بلوائه، قل: " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ " وأعني على ما يسترهنها لدي، وخاطب أمير المؤمنين متلقباً بسمتك متنعتاً بنعتك.

وهذه نسخة مكاتبة إلى الأفضل بن ولخشي، وزير الحافظ لدين الله الفاطمي، أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية، حين قرر الحافظ نعوته: السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، وهي: أما بعد فالحمد لله الذي تفرد بالإلهية، وتوحد بالقدم والأزلية، وأبدع من برأ وخلق، وأنشأهم من غير مثال مسبق، واصطفى لتدابيرهم في أرضه من بعثه برسالته، وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارة لطفه بهم ودلالته، وصلى الله على جدنا محمد رسوله الذي جعل رتبته أخيراً ونبوته أولى فكان أفضل من تقدمه نبياً وسبقه رسولاً، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ذخره لخلافته، وأيده بوزارته، مع كونه منزلة الاصطفاء، وتأييد الوحي الظاهر من غير خفاء، بحيث لا يفتقر إلى وزير، ولا يحتاج إلى ظهير، وإنما جعل ذلك تعليماً لمن يستخلفه في الأرض من عباده، وتمثيلاً نص - جل وعز - إلى قصده واعتماده، لما فيه من ضم النشر، وصلاح البشر، وشمول المنافع، وعموم الخيرات التي أمن فيها مدافع، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضاته، والمتقين له حق تقاته، والكافلين له مؤمن بأمانه يوم الفزع الأكبر ونجاته، وسلم عليهم أجمعين، سلاماً متصلاً إلى يوم الدين.

والحمد لله الذي جعل النعم التي أسبغها على أمير المؤمنين، بحسب ما اختصه به من منزلته التي فضله بها على جميع العالمين، فجعله خليفةً في

الأرض، والشفيع لمن شايعه يوم الحساب والعرض، وأجزل له من مننه ما لا يناهضه شكرٌ إلا كان طالعاً، ولا يقابله اعتدادٌ إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعاً، وإن من أرفعها مكاناً، وأعظمها شاناً، وأفخمها قدراً، وأنبهها ذكراً، وأعمها نفعاً، وأحسنها صنعاً، وأغزرها مادة، وأثبتها قاعدة إذا غدت النعم شاردةً نادة، وأعودها فائدةص على الخاص والعام، وأضمنها للسعد المساعد والحظ الوافر التام – ما كان من المنة الشامخة الذرى، والمنحة الشاملة لجميع الورى، والعارفة التي اعترف بها التوحيد والإسلام، والموهبة التي إذا أنفق كل أحدٍ عمره في وصفها وشكرها فما يعذل ولا يلام، والآية التي أظهرها الله للملة الحنيفية على فترة من الرسل، والمعجزة التي هدى أهله لها دون كافة الأمة إلى أعدل السبل، والبرهان الذي خص به أمير المؤمنين وأظهره في دولته، والفضيلة التي أبانت مكانة من الله وكريم منزلته، وذلك ما من الله به على الشريعة الهادية، والكلمة الباقية، والخلافة النبوية، والإمامة الحافظية، منك أيها السيد الأجل الأفضل، ولقد طال قدرك في حلل الثناء، وجل استحقاقك عن كل عوض وجزاء، وغدت أوصافك مسألة اجتماع وائتلاف، فلو كانت مقالة لم يقع بين أرباب الملل شيء من التناقض فيها والاختلاف، وأين يبلغ أمد استجابك من منتحيه، أو يتسهل إدراك شأوه على مطالبه ومبتغيه؟ والإيمان لو تجسم لكان على السعي على شكرك أعظم مثابر، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيباً على المنابر، فأما الشرك فلو أبقيته حياً لتصدى وتعرض، لكنك أنحيت عليه وأدلت التوحيد منه فانهد بناؤه بحمد الله وتقوض، فكان لك في حق الله العضب الذي تقربت به إليه فأرضيته، والعزم الذي صممت عليه في نصرة الحق فأمضيته، والباطن الذي اطلع عليه منك فنصرك ولم ترق دماً، ولا ورعت مسلماً، ولا أقلقت أحداً ولا أزعجته، ولا عدلت عن منهج صواب لما انتهجته، وذلك مما اشترك الكافة في معرفته، وتساووا في علم حقيقته، مع من كان من تسييرك العساكر المظفرة صحبة أخيك الأجل الأوحد، أدام الله به الإمتاع وعضده، وأحسن عنه الدفاع وأيده مما جرت الحال فيه بحسن سياستك، وفضل سيادتك، على أفضل ما عودك الله من بلوغ آمالك، من غير أذى لحق أحداً من رجالك، والأمر في ذلك أشهر من

الإيضاح، وأبين من ضياء فلق الصباح، وهذا إذا تأمله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يقابلك من إحسانه، بغاية ما في إمكانه، وأن يوليك من منته، أقصى ما في استطاعته وقدرته، ولم ير أحضر من أن قرر نعوتك السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كاف قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبو الفتح رضوان الحافظي، إذ لا أولى منك بكفالة قضاة دولته وإرشادهم، وهداية دعاتها إلى ما فيه نجاة المستجيبين في معادهم، وجدد لك ما كان قدمه من تكفيلك أمر مملكته، وإعادة القول فيما أسلفه من رده إليك تدبير ما وراء سرير خلافته التذاذاً بتكرار ذلك وترديده، وابتهاجاً بيطرية ذكره وتجديده، فأمور الملة والدولة معدوقة بتدبيرك، وأحوال الأداني والأقاصي موكولة إلى تقريرك، وقد جمع لك أمير المؤمنين من استخدام الأقلام، وجعل السيادة لك على سائر القضاة والدعاة والحكام، وأسجل لك بالاختصاص بالمعالي والانفراد، والتوحد بأنواع الرياسات والاستبداد، ولك الإبرام والنقض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والتقديم والتأخير، والتنويه والتأمير، فالمقدم من قدمته والمحمود من حمدته، والمؤخر من أخرته، والمذموم من ذممته، فلا مخالفة لما أحببته، ولا معدلة عما أردته، ولا تجاوز لما حددته، ولا خروج عما دبرته، وأين ذلك مما يضمره لك أمير المؤمنين وينوه، ويعتقده فيك فلا يزال مدى الدهر يعيده ويبديه؟ ولو لم يكن من بركاتك على دولة أمير المؤمنين، ويمن تدبيرك العائد على الإسلام والمسلمين، إلا أن أول عسكر جهزته إلى جهاد الكفرة الملاعين، وكان له النصر العزيز الذي تبلج فجره، والفتح المبين الذي جل قدره وانتشر ذكره، والظفر المبهج للدين العسكر المنصور على الطائفة الكافرة، قتلاً لأبطالها وأسراً لأعناق رجالها، وأخذاً لقلاع الملسرة

منها، وأنه لم يفلت من جماعتها إلا من يخبر عنها، ولو علم أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تضمنه هذا السجل لما اقتصر عليه، إلا أنه عاجله ما يسره فجاهر لك بما هو مستقر لديه، والله عز وجل يخدمك السعود، ويخصك من مواهبه بما يتجاوز المعهود، ويمدك بمواد التوفيق والتأييد، ويقضي لك في كل

الأمور بما لا موضع فيه للمزيد، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.ها، وأنه لم يفلت من جماعتها إلا من يخبر عنها، ولو علم أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تضمنه هذا السجل لما اقتصر عليه، إلا أنه عاجله ما يسره فجاهر لك بما هو مستقر لديه، والله عز وجل يخدمك السعود، ويخصك من مواهبه بما يتجاوز المعهود، ويمدك بمواد التوفيق والتأييد، ويقضي لك في كل الأمور بما لا موضع فيه للمزيد، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قلت: وهذا الصنف من الكتب السلطانية قد رفض وترك استعماله في زماننا فلا معول عليه أصلاً.

الصنف الحادي والعشرون المكاتبة بالإحماد والإذمام

قال في مواد البيان: السلطان محتاج إلى مكاتبة من يقف منه على طاعة واجتهاد، ومناصحةٍ وإخلاص، بالشكر والإحماد، والبعث على الازدياد من المخالصة وحسن السعي في الخدمة وغيرها، مما يرتبط به النعمة، ويستوجب معه حفظ الرتبة، ومكاتبة من يعثر منه على تقصير وتضجيع، وتفريط وتضييع بالذم والتقريع والتأنيب، لأنه لا يخلو أعوان السلطان من كفاة يستديم كفايتهم بتصويب مراميهم، واستحسان مساعيهم، وإحمادهم على تشميرهم، وشرح صدورهم ببسط آمالهم، والعدة برفع منازلهم ومحالهم، وتمييزهم على نظرائهم وأشكالهم، وتحذيرهم من التوبيخ وتقديم الأعذار، والتخويف من سقوط المراتب،وقبح المصاير والعواقب.

قال: وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما، إلى المعاني الناجمة في الغرضين، ويتوسط فيهما سيما التوسط الذي يقتضيه الحال المفاض فيها، لأن في ذلك تقديراً للمحسن على إحسانه، ونقلاً للمسيء عن إساءته، لأنه إذا علم الناهض أنه مثاب على نهضته، والواني أنه معاقب على ونيته اجتهد

هذا في الاستظهار بخدمته بما يزيد في رتبته، وخاف هذا من حط منزلته وتغير حالته، ثم قال: والرسوم في هذه المكاتبات تختلف بحسب اختلاف أغراضها، وتتشعب بتشعب معانيها، والأمير في ذلك موكول إلى نظر الكاتب العارف الكامل، ووضعه كل شيء في موضعه، وترتيبه إياه في مرتبته.

فأما المكاتبة بالإحماد، فكما كتب عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه، إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على محاربة باد الكردي: كتابنا، ووصل كتابك مؤرخاً بيوم كذا تذكر فيه ما جرى عليه أمرك في الخدمة التي نيطت بكفايتك وغنائك، ووكلت إلى تدبيرك ووفائك، من رد باد الكردي عن الأعمال التي تطرقها، وحدث نفسه بالتغلب عليها، وتصرفك في ذلك على موجبات الأوقات، والتردد بين أخينا وعدتنا أبي حرب، زياد بن شهراكويه وبينك من المكاتبات، وحسن بلائك في تحيفه، ومقاماتك في حص جناحه، وآثارك في الانقضاض على فريقٍ بعد فريق من أصحابه، واضطرارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي استعملتها، والسياسات التي سست أمره بها، إلى أن نزل عن وعورة المعصية إلى سهولة الطاعة، وانصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية، وتراجع عن السوم إلى الاقتصار، وعن السرف إلى الاقتصاد، وعن الإباء إلى الانقياد، وعن الاعتياص إلى الإذعان، وأن الأمر استقر على أن قبلت منه الإنابة، وبذلت له فيما طلب الاستجابة، واستعيد إلى الطاعة، واستضيف إلى الجماعة، وتصرف على أحكام الخدمة وجرى مجرى من تضمه الجملة، وأخذت عليه بذلك العهود المستحكمة، والأيمان المغلظة، وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده وضربت عليها حدوده، وفهمناه.

وقد كانت كتب أخينا وعدتنا أبي حربٍ زياد بن شهراكويه مولى أمير المؤمنين ترد علينا، وتصل إلينا، مشتملة على كتبك إليه، ومطالعاتك إياه، فنعرف من ذلك حسن أثرك وحزم رأيك، وسداد قولك، وصواب اعتمادك، ووقوع مضاربك في مفاصلها، وإصابة مراميك أغراضها، وما عدوت من مذاهبك كلها، ومتقلباتك بأسرها، المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عنا، ولا خلت كتب

أخينا وعدتنا أبي حرب من شكرٍ لسعيك، وإحماد لأثرك، وثناء جميل عليك، وتلويح وإفصاح بالمناصحة الحقيقية بك، والموالاة اللازمة لك، والوفاء الذي لا يستغرب منه مثلك، ولا يستكثر ممن حل في المعرفة محلك، ولئن كنت قصدت في كل نهج استمررت عليه، ومعدلٍ عدلت إليه، مكافحة هذا الرجل ومراغمته، ومصابرته ومنازلته، والتماس الظهور عليه في جميع ما تراجعتماه من قول، وتنازعتماه من حد، فقد اجتمع لك إلى إحمادنا إياك، وارتضائنا ما كان منك، المنة عليه إذ سكنت جأشه، وأزلت استيحاشه، واستللته من دنس لباس المخالفة، وكسوته حسن شعار الطاعة، وأطلت يده بالولاية، وبسطت لسانه بالحجة، وأوفيت به على مراتب نظرائه، ومنازل قرنائه، حتى هابوه هيبة الولاة، وارتفع بينهم عن مطارح العصاة.

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محموداً، وعند أخينا وعدتنا أبي حرب مشكوراً، وعلى هذا الرجل ماناً، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثاباً مأجوراً، وإياه نسأل أن يجري علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا، ونصرة أوليائنا، والحكم لنا على أعدائنا، وإنزالهم على إرادتنا، طوعاً أو كرهاً، وسلماً أو حرباً، فلا يخلو أحد منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربقة أسر، أو منة عفو، إنه جل ثناؤه بذلك جدير، وعليه قدير.

ويجب أن تنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردي إن كنت لم تنفذها إلى أوان وصول هذا الكتاب، لتكون في خزائننا محفوظة، وفي دواويننا منسوخة، وأن تتصرف في أمر رسله وفي بقية – إن كانت بقيت من أمره – على ما يرسمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حرب، فرأيك في العمل على ذلك، وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك، وما يحتاج إلى علمه من جهتك، موفقاً إن شاء الله تعالى.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف الملوم فيه والمذموم بسببه. فمن ذلك الذم على ترك الطاعة وشق العصا.

كما كتب عمارة يصف شخصاً بأنه لما ارتفع مكانه، وعلا قدره، بطر معيشته، وخرج عن طاعة الخليفة، وأن فلاناً كان ممن عرفت حاله، في غموض أمره، وخمول ذكره، وضيق معيشته، وقلة عدده وناهضيه، ولا يتجاوز حياته ما يقوله،

ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه، ولا يمنيه نفسه، ولا يدفع يد لامس عنه بقوة تنوء بملأ، ولا عز يلجأ إليه، فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه، وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا ترجى له، وبسط له من الدنيا، وآتاه من غضارتها ونعيمها، وعزها وسلطانها، ما لم يؤت أحداً من أهل زمانه، فلما مكن الله له في الدنيا طغى وتجبر، وعلا وتكبر، وظن أن الذي كان فيه شيء قاده إلى نفسه بحوله وقوته، وتهويلاً من الشيطان واستدراجاً منه له. وكما كتب عبد الحميد في مثله: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك، إلا ما أحب من رب صنيعته قبلك، واستتمام معرفته إليك، وكان أمير المؤمنين أحق من أصلح ما فسد منك، وإنك إن عدت لمثل مقالتك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معالجتك رأيه، فإن النعمة إذا طالت بالبعد ممتدة أبطرته، فأساء حمل الكرامة، واستثقل العافية، ونسب ما هو فيه إلى حيلته، وحسن نبته ورهطه وعشيرته، وإذا نزلت به الغير، وانكشفت عماية العشي عنه، ذل منقاداً، وندم حسيراً، وتمكن منه عدوه، قادراً عليه، وقاهراً له، ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك، ومعاجلة إفسادك، جمع بينه وبين من شهد فلتات خطئك وعظيم زلتك، ولعمري لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك، وجحودك فضله عليك، لردك إلى ما كنت عليه، ولكنت مستحقاً.

وفي مثله: فإن صاحب البريد كتب إلي عن أصحابك بكذا، فقلت: إنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه حتى عجموك، فعرفوا خور عودك، وضعف مكسرك ومهانة نفسك، وأنه لا غير عندك ولا نكير.

ومن ذلك الذم على الخطأ، كما كتب أحمد بن يوسف:

كأن البخل والشؤم صارا معاً في سهمه، وكانا قبل ذلك في قسمه، فحازهما لوارثه، واستحق ما أستملك منهما بالشفعة، وأشهد على حيازتهما أهل الدين والأمانة حتى خلصا له من كل ممانع، وسلما له من تبعة كل منازع، فهو لا يصيب إلا مخطئاً، ولا يحسن إلا ناسياً، ولا ينفق إلا كارهاً، ولا ينصف إلا صاغراً.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا يمنع وقوعه في وقت من الأوقات، فإن عرض له موجب، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وكتب على ما يوجبه المقام، وتقتضيه الوقعة.

الصنف الثاني والعشرون ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخيل والجوارح

وغيرها من أنواع الإنعامات وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت فأما ما يكتب مع الإنعام بالخيل، فقد جرت العادة أن السلطان ينعم بالخيل على نواب السلطنة بالشام، ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم، وربما أنعم بالخيل وكتب بها في غير ذلك. وهذه نسخة مثال شريف من ذلك: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب وخصه من النعم بما لا تحصى له آثار، ولا يتعلق له بغبار، ولا يوصف بحال واحدة، لأنه إن جرى فبحر، وإن وقف فنار.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بكل سلام لا تدرك لسوابقه غاية، ولا تحصى له نهاية، ولا يرد منه كل ما جاء وله في وجهه كفلق الصبح آية، ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان راية. وتوضح لعلمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ما جرت به عادته من الحصن التي لا يدعي البرق أن لها نظير، ولا تجاري الرياح من سوابقها ما يطير، كم لها في ميدان مجال، وكم لها في رؤية دوية ارتجال، وكم دعي الوغى بها على كل ضامرٍ فأتت رجالاً تقدح سنابكها ناراً، وتفيض جوانبها من الركض عقاراً، ويتكفل بديعها بكل مرام، ويعطي ما في يديها لأنها من الكرام، وقد تشرفت من نعمنا الشريفة بالسروج واللجم والعدة المكملة، وتحلت من الذهب والفضة ما يغني بجملته المفضلة، وأرسلناها إليه ترقص في أعنتها زهواً، وتترك بطيب صهيلها كل بحر تخوضه إلى المنايا رهواً، وتوجه بها فلان كالعرائس المجلوة في حللها، والنجوم لولا ما تميزت به من حلي عطلها، والسحاب إلا أنها لا تحتاج منة الرياح في تنقلها.

فليقابل هذه النعمة الشريفة بشكرها، وليتسلم هذه الصدقات العميمة التي تعترف كل نعمة بقدرها، وليحمد الله من تفقداتنا الشريفة على كرم فرس جاء وهو سابق، وجود لا يدور معه السحاب في طابق، ويعتمدها لارتقاء كل صهوة منيفة، وجهاد أعداء الله عليها بين أيدينا الشريفة، ويعيد الواصل بها إلى خدمة أبوابنا العالية، والله تعالى يديم عليه بنا النعم المتوالية، إن شاء الله تعالى.

آخر: ولا زال إقبالنا يمده من الصافنات الجياد بما يباري الرياح، ويتيمن بغررها الصباح، ويطلق أعنتها في حلبة السباق فتسبق بركضها ذوات الجناح، ولا برح إنعامنا يتحفه بكل طرف يبهج الطرف، ويثلج الصدر بما استمد عليه من الملاحة التي تروق العين وتفوق الوصف، ويفرده بما اجتمع فيه من الحسن واليمن، إذ هو واحد كالألف، تهدي إليه سلاماً تعبق بطيب نشره أرجاءه، وثناء يعرب عما في ضميره من علو قدره وسمو ذكره فيشرق سناؤه ويضاعف ثناؤه، وتوضح لعلمه الكريم أنه غير خاف عنه ما يصل إلى أبوابنا الشريفة من الخيول البرقية في كل عام، وما نخصه منها لكل ميمون الغرة مبارك الطلعة هنيء السير على الإنعام، وقد أرسلناه إلى جنابه الكريم من ذلك سهمه، وأضفنا إلى ذلك ما استصلحناه من الخيل العربية الغربية والعتاق العجمية العربية، مما الخير معقود بنواصيها، فتزهق على صهواتها نفوس الأعداء وتستنزلها من صياصيها، فيأخذ الجناب العالي ما يخصه من ذلك، ويفرق الباقي على من رسمنا له من بيمن رأيه المبارك الذي لا يساهمه فيه أحد ولا يشارك، ويجهز الخيل المخصوصة بفلان إليه، والله تعالى يضاعف عز ظهورها عند امتطائها لديه.

وأما ما يكتب مع الإنعام بالجوارح فمما يكتب مع إرسال سنقر: وقد بعثنا بسنقر كأنه ملك متوج، ورزق مروج، تجرأ على سفك الدماء، وأبى أن يطلب رزقه إلا من السماء، يود الكركي لو خلص من مخالبيه، ويخاف أن يسلم من خرط الشبكة ويقع في كلاليبه، ويدرك الصيد ولا يؤجله، ويرفع صدره ثم يومي إليه برأسه كأنه يستعجله، قد جمع من المحاسن كل الصنوف، وكتبت عليه أسطر تقرأ بما تقرى به الضيوف.

ومما يكتب مع إرسال صقر: وقد وجهنا إليه بصقر لا تؤسى له من الصيد جراح، ولا يدع من وحش يسرح ولا طائر يطير بجناح، أينما توجه لا يأت إلا بخير، وحيثما أطلق كان حتف الوحش والطير، يدع أقطار الفلاة مجزرة، أو روضة بالدماء مزهرة، يجد إلى الطير في عنقه، ويحلق إلى السماء فيرجع طائره في عنقه، تخافه العفر على نفوسها، وتخضع له ولأمثاله فما يخرج إلا والطير على رؤوسها، يزيد خبره في مظان الصيد على الخبر، وتخرج الظباء وقد تسجت خوفاً منه في ملاءة من العجاج مخيطة من قرونها بالإبر، شديد الأيد، قد بنى على الكسر حروف الصيد، يحمد مقتنيه أيامه الغر، ويقول له إذا تلفت إلى الصيد: إن جلبت ضبعاً فأنت حر، لا يصحب مستصحبه معه إلا مزاده، وأينما سار حامله – وهو معه – كان معه زاده.

ومما يكتب مع إرسال شاهين: وقد وجه إليه حلق وراء الطير شاهت به الوجوه، وشاهدت الآمال به ما ترجوه، قد أصبح كل محلق الجناح رهين يده، وكل سارب من الوحش طعام يومه أو غده، لا يتعبه خلف الطريدة بعد المدى، ولا يرده خوف مسافة ولا يقحم ردى، ربية عام لم يمتع بطول ما دهر، وممتدة منه في الطلق مثل ريح سليمان غدوها شهر ورواحها شهر.

ومما يكتب مع إرسال كوهية: وقد جهزنا إليه كوهية، هي بالمحاسن حرية، ولكثرة الإقدام جرية، يكل بها صاحبها أمر مطبخه، ويمدها من الطير من ليس بمصرخه، لا نعف عن دم، ولا ترى أطرافها إلا مثمرة بعناب أو مخضبة بعندم، قد أخلت من كل سانح، ولبست زي الراهب المتعبد وفتكت بكل سائح.

ومما يكتب مع سقاوة: وقد جهزنا إليه بقساوة، مخاليبها على الطير كالحديد أو أشد قساوة، تسيل دماء الصيد كالمذانب وتكسو الأرض حبراً من رياش الحبارى وفراء من جلود الأرانب، وجعلت في قبضة الكف ما كانت العين عليه تدور، وتكفلت بكفاية المطبخ وملأت القدور.

ومما يكتب مع إرسال باز: وقد بعثنا بباز مهما لقي لقف، ومهما خطا لديه خطف، كأنما خط جوهره بقلم، أو ريش عليه من الصباح والظلم، قد أعد للطوارق، وادرأ بمثل الطوارق، قد دحض حجج الحجل، وكسرها حتى أبان عليها حمرة الخجل، لا

يسأل في الصيد عما نهب، ولا تعرف قيمة إلا أن له عيناً من الذهب.

ومما يكتب مع الفهد: وقد أنعمنا عليه بفهد أهرت الشدق، ظاهر الحذق، بادي العبوس، مدنر الملبوس، شثن البراثن، ذي أنياب كالمدى ومخالبه كالمحاجن، قد أخذ من الفلق والغسق إرهاباً، وتقمص من نجل الحدق جلباباً، يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به وبشبهه، وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزالة لا تطلع من الوجل على وجهه، يسبق إلى الصيد مرامي طرفه، ويفوت لحظ مرسله إليه فلا يستكمل النظر إلا وهو في كفه، وتتقدمه الضواري إلى الوحش فإذا وثب له تعثرت من خلفه.

وأما ما يكتب مع الإنعام بالسلاح: فمن ذلك: وقد جهزنا إليه سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى قبض النفوس، عرف الأجل قدره فوقف عند حده، ومتى جرد على ملك من ملوك العدا وهت عزائمه، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه، وعلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد حبار السموات قائمه.

الصنف الثالث والعشرون المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبتها، ويشير إلى تخصيص الخلافة بمصيرها إليه دون سائر البرية، وانتقالها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كابراً عن كابر، وبقائها في عقبه إلى الأبد. ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين التي أنعمها الله تعالى عليه، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولداً، ويذكر اسمه وكنيته، ويصفه بما يناسبه. وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، هي: الحمد لله مؤيد الإسلام بخلفائه الراشدين، ومظهر الإيمان بأوليائه الهادين، الذي جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين، وأقام منهم الحاضر المتبع، والمرجو المتوقع، وأطلع منهم في سماء الهداية شهباً لا يخبو منها شهاب حتى يتوقد شهاب، وفتح بهم للإرشاد أبواباً، لا يرتح منها باب حتى يفتح باب.

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آبائه، ووفقه بانتقال ما ورثه من آبائه إلى أبنائه، ويسأله أن يصلي على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة سيدنا محمد خاتم رسله، المترجم عن توحيده وعدله، وعلى أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب قسيمه في فضله، ووصيه على أمته وأهله.

وإن أولى النعم بأن يفاض في شكرها، وتعطر المحافل بنشرها، نعمة حاطت دعائم الدين، وأمرت حبل المسلمين، وتساوى في تناول قطافها الكافة، وآذنت بشيوع الرحمة والرأفة، وأضحت النبوة مشرقة الأنوار، والإمامة علية المنار، والخلافة مختالة المنبر والسرير، رافلة في حلل الابتهاج والسرور.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالى ولداً ذكراً مباركاً رضياً، سماه فلاناً، وكناه أبا فلان، فجعلا بنهار عرته الدامس، وافتر بمقدمه العابس، واخضر بيمن نقيبته اليابس، ووثقت الآمال بسعادة مقدمه، وتطلعت الأعناق إلى جوده وكرمه، مبشراً لك بهذه النعمى الحسنة الأثر، القليلة الخطر، علماً بمكانك من ولائه ومخالصته، وسرورك بما يفيضه الله عليه من شآبيب نعمته، لتأخذ من المسرة والجذل بحظ المولى المخلص، والعبد المتخصص، ولتشيع مضمون كتابه فيمن قبلك من الأولياء، ليشاركونا في الشكر والثناء، فاعلم هذا واعمل به، إن شاء الله تعالى. قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في البشارة عن السلطان إذا حدث له ولد، فيكتب بالبشارة به إلى نواب السلطنة وأهل المملكة.

الصنف الرابع والعشرون ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر محمد بن قلاوون من مرض إلى صاحب ماردين، وهو: ولا زالت البشائر على سمعه الكريم متواترة، والمسار إلى مقام ملكه سائرة، والتهاني، ببلوغ الأماني، من كمال شفائنا تجعل ثغور الثغور باسمة

ووجوه الدهور ناضرة، ونعم الله تعالى مقابلة بالشكر الجزيل على أن أجد ملك الإسلام بافتقاده، وأبقي للدين المحمدي ناصره. وأصدرناها إلى المقام العالي ومواردنا من الصحة حلوة في الأفواه، وألسنتنا شاكرة لنعم الله، وعافيتنا تجدد في كل جديد، وصحتنا قد بلغت من المزيد ما نريد، وقد ألبسنا الله تعالى من الشفاء ثوباً قشيباً، ونصرنا نصراً عزيزاً وفتح لنا فتحاً مبيناً، تهدي إليه سلاماً تتأرج به أرجاء ملكه، وثناء تنظيم الأثنية في سلكه، وتوضح لعلمه الكريم ما حصل من عافيتنا التي تضاعف بها فرح الإسلام والمسلمين، ووجب الشكر عليهم والحمد لله رب العالمين.

الضرب الثاني من مقاصد المكاتبات ما يكتب عن السلطان في الجواب

وكل معنى من المعاني الواردة بها الكتاب إليه يستق جوابه منها، وغالب ما يعتنى به من ذلك جواب ما يرد من المكاتبات بالتقادم والهدايا، وما في معنى ذلك. وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها. جواب سلطاني عن وصول خيل: ولا زال يتحف بكل صاهل في الجحفل، جمال في المحفل، وأجرد إذا أم غاية لمعت في أثره البروق تتطفل، ومسوم يلتزم جلاله بمزيد جلاله، وكيف لا وهي إذ أسدلت عليه يتكفل؟ أصدرناها والعطر يضوع من سلامها، والمسك يفوح من ختامها، وآثار الندى تحكي آثار أقلامها.
آخر في المعنى: ولا زال محتفلاً بالجياد وإرسالها، ومهدياً لركابنا الشريف السوابق التي إذا لم يسابقها شيء من الحيوان تجلت في مسابقة ظلالها، وينتقي لمواكبنا الخيول التي إذا أصبحت في مدى أصبحت الرياح تتعلق بأذيالها. أصدرناها.
آخر في مثله: ولا زال يُهدي إلينا من الجياد بحراً، ويقود من العراب ما تملأ غرته المواكب بشراً، وإذا طلع يزيدها عزاً ونصراً، من كل طرف تأصل حسناً وحسن إهاباً وجل قدراً.

آخر في مثله: وأعلى له صهوات العتاق مرتقى، وخصه بكل جواد وهو منتقل إليه منتقى، وأطلع عليه نواصي الصوافن التي عقد الخير بها عقداً موثقاً. أصدرناها ونور التحايا من أرجائها ينير، ومفاخرها تشرف بها كل منبر وسرير، وركائب أثنيتها تسير إلى مقامه فتطيب راحلة في ذلك المسير.
آخر في مثله: ولا زال يهدي من الجياد المسومة أصائلها، ويتحف مما يحييه عند الوفادة عليه صاهلها، ويقابل أكرم غرة، الخير معقود بناصيتها واليمن يقابلها، ويمتع بأعز جواد حلية الشفق دون إهابه إذ يماثلها، وسرعة البرق خفته إذ يساجلها.

الضرب الثالث من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية

اعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من الأبواب السلطانية، يأمرهم كتب نائب الشام إلى نواب السلطنة بورود المثال الشريف مبشراً بذلك، ويجهز إلى كل منهم مع المثال الوارد إلى كل نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد بذلك، لا أنه مبتدئه، ويشتمل ذلك على عدة أمور: فمن ذلك جلوس السلطان على تخت الملك، فيخبر نائب الشام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بأن المثال الشريف ورد عليه بذلك، وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه فجهزه إليه.
وهذه نسخة كتاب من ذلك، كتب به عن نائب الشام إلى بعض نواب السلطنة، بالبشارة بسلطنة السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون، وقد ورد على يد بعض الحجاب، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباته، في سنة ثلاث وأربعون وسبعمائة، وهي بعد الصدر: أمتعه الله من البشائر بما يتوضح على جبين الصباح بشره، وبما يترجح على ميزان الكواكب قدره، وبما ينفسح من أوقات أمن لا يختصم في ظلها زيد وعمرو حتى يقال: ولا زيد النحو وعمره. وينهي بعد الدعاء يتبلج في الليل فجره، وثناء يتأرج في طي النسيم نشره، وولاء

يتساوى في درجات الصفاء سره وجهره، أن خير البشائر ما خص أولياء الدولة الشريفة وعم الرعايا، وسما إلى ثغور الإسلام خبره الجلي فقال: - وافر - أنا ابن جلا وطلاع الثنايا. وقسمت مسرته على كافلي الممالك فقالت مملكة مولانا - وافر - لنا المرباع منها والصفايا. وسلك المملوك من الإسراع بإشاعته الحق الواجب وجهز خدمته بين يدي المثال الشريف الذي سبق طائر يمنه ولكنه جاء في خدمته حاجب، وهي البشرى الواردة في الأمثلة الشريفة السلطانية، المالكة الملكية، الصالحية العمادية، العريقة في نسب النصر بالأنساب الناصرية المنصورة، أعلى الله تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها، وصرف بها الأعنة لما سر وصرفها عما دهي، بجلوسه على كرسي المملكة الذي هو آية سعده الكبرى، وتخت السلطنة الذي عاينه ملك الجود والعلم، فقال: السلام عليك بحراً، وإجماع الأمة على أنه صالح المؤمنين، وكفاة الحل والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين، وأركان البيت الناصري على أنه عماده، وعلى أنه سنده المكمل وإذا انقض بيت سناده، فيا له جلوساً قامت فيه كواكب السعد مشدودة المناطق، ويا له إجماعاً اتفق فيه - حتى من تصميم السيوف وتعبير الأقلام - كل صامت وناطق، ويا له بيت ملك أبى الله إلا أن يقيم وزنه أفضل الأفاعيل، ويا له ملكاً قال الدهر الطويل انتظاره: " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل " . ويا له أمراً بلغ خبره وخبره الأوطار والأوطان، ونفذت برده المصرية على حين فترة تالية له السعود: " فأنفذوا لا تنفذون إلا بسلطان " . وحشير الناس ضحى ليوم الزينة، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كل من في المدينة، وضربت البشائر ويا عجباً! إنها تضرب ومكانتها من القلوب مكينة. حتى إذا أخذت مصر حظها من الهناء قسمت على الأمصار، وأضاء بارق نشرها من كل وجه فسمت بالشامات غرة الأبصار، وركض بريد الخير بمبارك باب البريد ووصل نيل النيل إلى أنهار دمشق فبردى على الشكر ثابت ويزيد، وبشر الإسلام من وجه الخلف الصالح بأكرم من بر، واستفاض الاسم الشريف، فلو كلف مشتاق فوق وسعه لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سر البيت الشريف الناصري بجمع شمله، وعلى أن أتى الملك العقيم الصالح من أهله، وقد جهز المملوك المثال الشريف المختص بمولانا،

ومولانا أولى من انتظمت لديه درر هذه الأخبار الثمينة، وعظمت بناحيته شعائر هذه الدولة المكينة، وكمل لخير حماه خير قرينة، والله تعالى يعز الإسلام بعزمه، ويمضي الآجال والأرزاق على يدي حربه وسلمه، وينجز لرأيه ورايته النصر قبل أن يطوف الأولياء بعلمه، وقبل أن يحيط الأذكياء بعلمه. ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون، في خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهي بعد الألقاب:

أورد الله عليه من الهناء كل سري يسره، وكل سني يقر أمام ناظره الكريم ويقره، وكل وفي إذا طلع في آفاق حلب قيل: لله دره، ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه جميل، وبكل جلي جليل، وبكل خبرٍ تصح الدنيا بصحته فليس بها عنبر النسيم عليل، تقبيلاً يزاحم عقود الثغور، ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الابتسام والسرور، وينهي بعد رفع اليد بدعائه، وضم الجوانح على ولائه، وجزم الهناء المشترك بمسرة مولانا وهنائه، أن المثال الشريف زاده الله شرفاً، وزاد فضل سلطانه على العباد سرفاً ورد بالبشارة العظمى، والنعماء التي ماضاهتها الأيام قبل بنعمى، والمسرة التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاً لماً، ويحبها الإسلام والمسلمون حباً جماً، بسلامة جواهر الجسد الشريف من ذلك العرض، وشفائه الذي في عيون الأعداء منه شفار تطعن وفي قلوبهم مرض، وأن مادة الأدواء بحمد الله قد انحسمت، والواردة من الافتقاد بالأجر والعافية قد ابتسمت، وأن ظنون الإشفاق قد اضمحلت، ونسمات الروض قد فدت الجسم الشريف فاعتلت، وأخبار الهناء يعينها بريد نشوان من الفرح ينشد أسائلها أي المواطن حلت، فيا لها بشارة خصت الإسلام وعمت بنيه، وسارت فوق الأرض وسرت تحتها أسلاف الملك ومبتنيه، وشملت البلاد وعبادها، والسلطنة وقد حجب الله عمادها عما دهى، والملك السليماني وقد ثبت الله به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها، والطير وقد حملت ورقه أوراق السرور، والوحش وقد قالت مهاه: على عيني أتحمل ذلك السقام أو ذلك الفتور، " ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً "

والألطاف الراحم بها المؤمنين من خلقه " وكان بالمؤمنين رحيماً " .
وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان، فيا له من وارد لمشارع الأمن أورده، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد، وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوغة في كل ضرب من التهاني، وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدي الغواني، فيأخذ حظه من هذه البشرى، ونصيبه من هذا الوجه الذي ملأ الوجود بشراً، وشطره من الهناء المخصوص الذي تعجل منه المملوك شطراً، والله تعالى يسره بكل خير تشرق زواهره، وتعبق في كمائم الدروج أزاهره، ويتألق على يد بريده من المخلفات كل كوكب صبح تملأ الدنيا بشائره. ومن ذلك المكاتبة بورود المثال الشريف بوفاء النيل: إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك، كتب نائب الشام نفسه إلى نائب حلب وغيره، من نواب السلطنة بالممالك الشامية، بورود المثال الشريف عليه بذلك، ويكتب عنه، كما يكتب عن السلطان، من السجع، وإيراده مورد البشارة، وإظهار الفرح والسرور بذلك، لا يكاد يخالفه إلا في كونه وارداً مورد الحكاية لمثال السلطان، ومثال السلطان مخبر بذلك ابتداء.
وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهي بعد الصدر:

لا زالت مبشرة بكل مبهجة، معطرة الأرجاء بكل سائرة أرجة، ميسرة الأوقات بمقدمتي سماع وعيان، كلاهما للمسار منتجة، مستحضرة في معالي الكرم كل دقيقة تشهد بسطة النيل أنها أرفع منه درجة، وينهي بعد الدعاء ما الروض أعطر من شذاه، ولا ماء النيل وإن كرم وفاء بأوفى من جداه، أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً، ورد بوفاء النيل المبارك وحبذا هم من وفي موافي، ومتغير المجرى وعيش البلاد به العيش الصافي، وحسن الزيارة والرحيل ما ضاهته الغيوث في ولافي، ووارد من معبد بعيد، وحميل لا جرم أن مده ثابت ويزيد، وجائد إذا تتابع حيث تياره يقلد بره ودره من الأرض وساكنها كل جيد، وإذا ذكر الخصب لمكان عيده المشهود ألقى السمع وهو شهيد، وذلك في يوم كذا،

وأن البلاد جبرت بكسر خليجه، واستقامت أحوالها بتفريجه، وأثنت عليه بآلائه، ووسمت لونه الأصهب على رغم الصهباء بأحسن أسمائه، وخلق فملأت الدنيا بشائر مخلقه، وعلق ستره المصري التبري فزكا على معلقه، وحلق مسير تراعه على القرى فبات على الندا ضيف نحلقه، وحدث عن البحر ولا حرج، وانعرج على البقاع يلوي معصمه فلله أوقات ذلك اللوى والمنعرج، واستقرت الرعايا آمنين آملين، وقطع دابر الجدب بسعود هذه الدولة القاهرة، " وقيل الحمد لله رب العالمين " ورسم أن لا يجبى حق بشارة، ولا تعبث يد التنقيص منها ليزداد الخبر نوراً على نور، ويكون في إيثاره وحسنه الخبر الحسن المأثور، ووصل بهذا الخبر فلان وعلى يده مثال شريف يختص بمولانا وقد جهز به، فيأخذ مولانا حظه من هذه البشرى، ويوضح بها على كل الوجوه بشراً، والله تعالى يملأ له بالمسرات صدراً، ويضع بعدله عن الرعية إصراً، ويسرهم في أيامه بكل وارد يقول الإحسان لمحتمله: " لو شئت لاتخذت عليه أجراً " إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض النواب من إنشاء جمال الدين بن نباتة أيضاً، وهي بعد الصدر: وضاعف مواد نعمته ونعمائه، ومسرته وهنائه، وحفظ عليه ما وهبه من المناقب التي يروي النيل عن كرمه ووفائه، وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيول لكونها من سمائه.

المملوك يجدد الخدمة بنفحات سلامه وثنائه، ويصف ولاءً لو تجسم لاستمدت عين الشمس من سنائه، وينهي أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً، ورد مبشراً بوفاء النيل المبارك في يوم كذا، فيا له ربيعاً جاء في ربيع، وحاملاً في مفرده الفضل للجميع، وداعياً بالخصب ينشد كل ثانية اثنين ريحانة للداعي السميع، ومتغنياً على منصة المقياس عرسه يجلى عليه من شباكها الستر الرفيع، وأنه أقبل والبلاد أشهى ما تكون للقياه، وأشوق ما ترى لمباشرة ريه ورياه، وقد امتدت أيدي الجسور لفمه، واستعدت شفاه الحروف اللعس للثمه، فكرم عليها زائره، وصحبها بالنجح ساريه وسائره، ودارت على الجدب من خطوط الأمواج دوائره، وعمت المنافع، وتلقت عيون الفلا ناهلة بالأصابع، وفاض البحر ببره، ونشر رداء على الأرض وسيضوع روضها بنشره، وخلق المقياس فيا لك من قياس بشرى غير

ممنوع، وكسر الخليج فيا له غصن قلم على النيل وطائر سجعه على الفرات مسموع، ورسم أن لا يجبى حق بشارة، ولا يدخل فيها النقيص لدار ولا التنغيص لدارة، ووصل بهذا الأمر فلان وقد جهز بما على يده، والله تعالى يمتع مولانا من أقسام المسار بصنوف، ويدفع عن حصون الإسلام بيمنه أيدي الصروف، وينفعها بظلاله التي آواها الكريم إلى جنة، وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف.

الضرب الرابع من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن النواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان وفيها مهيعان

المهيع الأول في الأجوبة عن الكتب السلطانية

السابقة في الضرب الأول

قد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات في أول هذه المقالة ذكر الخلاف: عليه السلام هل الكتب الابتدائية أعلى رتبة في الإتيان بها أم الجوابية؟ وذكر الاحتجاج لكل من المذهبين، وذكر التحقيق في ذلك، فليراجع من موضعه هناك. ونحن نذكر الكلام على أجوبة الكتب السابقة على الترتيب المتقدم، جارين في ذلك على ما قرره في مواد البيان.

فأما الجواب عن الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إلى الخليفة، فإن الكتاب إن كان متضمناً التعزية في سلفه، والهناء بمتجدد النعمة عنده في انتقال الخلافة إليه فالرسم فيما يكاتب به عن الحليفة أن يبنى على الاستبشار بالنعمة في خلافته، والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيعه، وانفساح الآمال في دولته، والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته، وتعزية عن أبيه، بما يوجبه محل المحنة ويقتضيه، يعني إن كان الخليفة الميت أباه، فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمله، ويهينه على ما كفله، ويقرن ملكه

بالجد السعيد، والخلود والتأييد، وإدالة الأولياء، وإذالة الأعداء، ونحو هذا مما يجاريه.

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه، ومن في معناه ممن يواليه في المحبة، فإن الكاتب يحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة، واستقامة أمر الرعية بانتقال الخلافة إليه من غير أن يصرح بذم الذاهب قبله. ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجلوسه على تخت الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة، لا يكاد يفرق بينهما، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين، فإنما يتكلفها كتاب مخالفي الملة، لأنها إنما تصدر إليهم. قال في مواد البيان: إلا أنه لا غنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها، لتتقدم عندهم المعرفة بما يجيب به المخالفون، فيأخذوا عليهم بأطراف الحجة إذا كاتبوهم ابتداء أو جواباً. قال: ولا تخلو أجوبة هذه الكتب من أربعة معان: أحدها: إجابة الدعاء إلى الدين، وقبول الإرشاد والهدى، والنزوع عن الغي، والإقبال على التبصرة والتذكرة، بعقائد خالصة، ونيات صريحة.

والثاني: الإصرار على ما هم متمسكون به، وتمحل الشبهة في نصرته، وادعاء الحق فيما يعتقدونه، والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دعوا إليه.

والثالث: بذل الجزية والمصالحة، والجنوح إلى السلم والموادعة.

والرابع: إظهار الحميمة، والقيام في دفاع من يروم اقتسارهم على مفارقة شرائعهم وأديانهم، وبذل الأنفس في مقارعته.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالحث على الجهاد، فقد ذكر في مواد البيان أنها لا تخرج عن معنيين: أحدهما: إجابة الصريخ، والمبادرة إلى التشمير في الجهاد، والقيام في معونة الأولياء، على كفاح الأعداء.

والثاني: الاعتذار والتعلل والتثاقل.

هذا إن كانت الكتب الصادرة إلى القواد والمتقدمين، أما إذا كانت مقصورة على الاستنفار، فلا جواب لها إلا النفور أو الإمساك. قال في مواد البيان: والطريق إلى إقامة العذر للمستصرخ في التأخر عن مستصرخه، متى أراد الاعتذار عنه صعب

على الكاتب، ولا سيما إذا كانت الأعذار متكلفة غير صحيحة.
قال: وينبغي أن يتأتى لذلك ويحسن التلطف فيه، ولا يعتل بكذب صراح ينكشف للمعتذر إليه.
وأما الجواب عن الكتب الواردة بالحث على لزوم الطاعة، إذا وردت على النواب والولاة وأمروا بقراءتها في أعمالهم على الرعايا، فإنه يكون: إما بانقياد الرعايا إلى ما دعوا إليه، أو استدامتهم لمركب النفاق، واستدعاء مادة لتقويمهم. وأما الجواب عن الكتب إلى من نكث عهده من المتعاهدين، فقد ذكر في مواد البيان أنها لا تخلو من أحد أربعة معان: أولها: الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصفح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة.
والثاني: المغالطة والمراوغة، واستعمال المداهنة والمخادعة.
والثالث: التجليح والمكاشفة.
والرابع: إيجاب الحجة على المجوب عنه في أنه المبتدئ بفسخ ما عاقد عليه. قال: والكاتب إذا كان ماهراً كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصناعة.

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلع الطاعة، فقد قال في مواد البيان: إنها تحتمل معنيين: أحدهما الاعتذار، والآخر الإصرار، وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به، ثم قال: والكاتب إذا كان حاذقاً، عرف سبيل التخلص فيها بمشيئة الله تعالى. وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح، فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولاته، فينبغي أن يبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدو، والجذل بمتجدد الفتح، وأن ذلك إنما تهيأ بسعادته، وعلو رأيه وانبساط هيبته، وما عوده من إظهار أوليائه، وخذلان أعدائه، وأنهم قد أشاعوا هذا النبأ في الخاصة والعامة من رعاياه فابتهجوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء. وإن صدرت من ولاة الحرب إلى السلطان، فينبغي أن يكون ما يجيبهم به مبنياً على حمد الله تعالى على عوارفه، والرغبة في مضاعفة لطائفه، وشكره على إنجاز وعده في الإظفار بأعداء الملة والدولة ونحو هذا. ومخاطبة أهل الطاعة بما

يرهف عزائمهم، ويقوي شوكتهم، وتقريظ والي الحرب ووصفه بما يشحذ بصيرته في الخدمة، والثناء على الأجناد، ووعدهم بجزيل الجزاء على الجهاد والإبلاء، إلى غير هذا مما يقتضيه الحال، ويوجبه تدبير الأمر الحاضر.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالاعتذار عن السلطان عندما يحصل له زلل في التدبير أو في الظفر بقبض الأعداء على جيش من جيوشه، فإنما تقع الإجابة عنها إذا نفذت إلى أحد العمال خصوصاً. قال في مواد البيان: وحينئذ فينبغي أن يكون الجواب عنها مبنياً على تقوية نفس السلطان وتوثيقه بالأدلة، وأن ما ناله لا يتوجه كثيراً على ذوي الحرام، إلا أن عواقب الفلج والظفر والإصابة في الرأي والتدبير تكون لهم، ونحو هذا مما يجاريه ويليق به. قال: أما إذا كانت المكاتبة في ذلك إلى الكافة، ممهدة لعذر السلطان، قاطعة قالة الرعية عنه، فإنه لا جواب عنها، لأنها إذا لم توجه إلى واحد بعينه لا يستدعي خطاباً.

وأما الجواب في الكتب الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين، إذا صدرت إلى العمال، وأمروا بقراءتها على الرعايا على منابر أعمالهم، فإنه يبنى الأمر فيها على امتثال الأمر، والمطالعة بارتسام القوم ما رسم لهم فيها. أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليبصروا ما فيها ويعملوا عليه، فإنه لا جواب عنها، لأنها إنما تشتمل على مواعظ ومراشد تتخول بها الأئمة رعاياهم.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالأوامر والنواهي، فقد ذكر في مواد البيان أن الكتب الواردة في ذلك، إن كان شيئاً قد جزم المتبوع فيه الأمر، وضيق على التابع في إيثاره سبيل المراجعة فيه، فإن الجواب عنه سهل، لأنه إنما يجب بجواب جامع، وهو وقوفه على ما أمر به وإنفاذه له. وإن كان الوارد أمراً محتملاً للمراجعة، من حيث أن إمضائه إذا أمضي إفساداً للعمل، وإخلالاً بأسباب الملك والسلطان، فالجواب عنه شاق صعب، لأنه ينبغي أن يبنى على تلطف شديد في الإبانة عما ينتجه ذلك المأمور به إذا أنفذ على الوجه من فتق وخلل، ومورد المراجعة في ألفاظه لا يتبين فيه إزراء على رأي الرئيس ولا طعن في تدبيره، بأن يكون ناطقة بأن رأيه الأعلى، وتدبيره الأصوب، فيكون باطن الكلام توقيفاً على الصواب، وظاهره تصويباً وتقريظاً، لأن كثيراً من الرؤساء والملوك يعجبون

بآرائهم، وينزلون بحكم الرياسة في منزلة من لا يراجع ولا يعارض فيما يأمر به. قال: وقد تأتي من كتب الأوامر كتب يأمر الرئيس فيها المرؤوس بشرح حال واقتصاص أمور. ثم قال: وأجوبة هذه الكتب يجب أن تكون مستقصية للمعنى المنشرح، مستولية على حواشيه، غير مخلة بشيء مما يحتاج إلى تعرفه منه. وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية، وهي مشتملة على مواعظ ومراشد يتخول بها الأئمة رعاياهم، فإذا صدرت إلى العمال وأمروا بقراءتها على الرعايا، فأجوبتها إنما تبنى على امتثال الأمر والمطالعة بارتسام القوم ما رسم لهم فيها. أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليتبصروا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لا جواب عنها.

وأما الجواب عنه بالتنبيه على مواسم العبادة، فإنه يصدر عمن ورد عنه إلى الإمام بعد شهور ذلك الموسم، والانفصال عنه على حال السلامة، كما في صلاة العيد ونحوها، قال في مواد البيان: وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورة على ذكر ما من الله تعالى به من قضاء الفريضة على حال الائتلاف والاتفاق، وشمول الأمن والهدي والسكون، وسبوغ النعمة على الكافة، وأن ذلك بسعادة وعناية الله تعالى بدولته وبرعيته، ونحوها مما يقتضيه المعنى.
وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الإمام إلى ولاة أمره بالسلامة في ركوب أول العام وغرة رمضان، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه، وعيدي الفطر والأضحى، وفتح الخليج بعد وفاء النيل، فقد قال في مواد البيان: إنه إن كان الكتاب عن السلامة في صلاة العيدين أو جمع رمضان، فينبغي أن يكون مبنياً على ورود كتبه متضمنة ما أعان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تأدية فريضته، والجمع في صلاة عيد كذا برعيته، وما ألبسه الله تعالى من الهدي والوقار، وأفاضه عليه من البهاء والأنوار، وبروزه في خاصته وعامته إلى مصلاه، وسماع خطبته وعوده إلى قصره الزاهر، وعليه تلألأ القبول لصلاته ودعائه، مما أجراه الله تعالى فيه على عادة آلائه، ووقف عليه وقابله بالشكر والإحماد، والاعتراف والاعتداد، وافتضه على رؤوس الأشهاد، فأغرقوا في شكر

الله تعالى على الموهبة في أمير المؤمنين، ورغبوا إليه إطالة بقائه مرامياً عن الإسلام والمسلمين، ونحو هذا مما يجاريه.

ثم قال: فإذا نفذت هذه الكتب من العمال إلى أمير المؤمنين مبشرة باجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم، وعودهم إلى منازلهم سالمين، فينبغي أن يكون الجواب عنها: وصل كتابك متضمناً ما لا يزال الله تعالى يوليه لأمير المؤمنين في رعيته، وخاصته وعامته، من اتفاق كلمتهم، وائتلاف أفئدتهم وسلامة كافتهم، وما من الله به عليه وعليهم من اجتماعهم لتأدية فريضتهم، وعودهم إلى منازلهم، على السلامة من ضمائرهم، والطهارة من سرائرهم، فحمد أمير المؤمنين الله تعالى على ذلك وسأله مزيدهم منه، وتوفيقهم لما يرضيه عنهم، وشكر مسعاك في سياستهم، وامتداد يدك في إيالتهم، وهو يأمرك أن تجري على عادتك، وتسير فيهم بجميل سيريك، وما يليق بهذا.

ثم بنى على ذلك سائر كتب السلامة، وقال: ينبغي أن يستنبط من النفس كل كتاب منها المعنى الذي يجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مبشراً بسلامته من سفره، فينبغي أن يبنى جوابه على ما صورته: ورد كتاب أمير المؤمنين مبشراً عبده بما هيأه الله تعالى له من السلامة ويمن الوجهة، مع تقريب الشقة، وإنالة المسار، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار، فوقف العبد عليه، وامتثل المرسوم في إطلاع الأولياء على ما نص فيه من هذه البشرى، فعظمت المنحة لديهم، وجلت النعمة عندهم، وانشرحت صدورهم، وانفسحت آمالهم، ووقفوا بصنع الله تعالى لهم، وارتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة في حياطة أمير المؤمنين قاطناً وظاعناً، وحسن صحابته حالاً وراحلاً، وجميل الخلافة على من خلفه من حامته وعامته، وأهل دعوته وخاصة دولته، والله تعالى يجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، ويمده بطول البقاء. وما ينتظم في سلك هذا الكلام ويضاهيه.

قلت: وقد تقدم في الكلام على المكاتبة السلطانية الابتدائية، أن المكاتبة بالبشارة بالسلامة في ركوب العيدين وما في معناهما من قدوم السفر وغيره، قد ترك استعماله بديوان الإنشاء في زماننا. فإن قدر مثله في هذه الأيام أجراه الكاتب على

نحو ما تقدم، على ما تقتضيه مصطلح الزمان في المكاتبات السلطانية.
وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلع وما في معنى ذلك، فينبغي أن يكون مبنياً على تعظيم المنة، والاعتراف بجزالة المنحة، وجميل العطية، وزائد الفضل، وأن ما أسدي إليه من ذلك تفضل عليه، وتطول من غير استحقاق لذلك، بل فائض فضل، وجزيل امتنان، وأنه عاجز عن شكر هذه النعمة والقيام بواجبها، لا يستطيع لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذه الدولة، وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه.

وأما الجواب عن الكتب بالتنويه والتقليب إذا صدرت إلى نواب المملكة، فالذي ذكره في مواد البيان أن المنوه به يجيب عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه، ووقوفه عليه، ومعرفته بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إيزاعه الشكر، ومعونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة. أما إذا كتبت بالتنويه والتقليب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة، فإنه لا جواب لها.
وأما الجواب عن الكتب الواردة بالإحماد والإذمام، فيختلف الحال فيه، فإن كان الكتاب الوارد بالإحماد والتقريظ، فجوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحماد موقعه من المحمود، ومطالبته لنفسه بالخروج من حقه باستفزاع الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه. وإذا كان الكتاب بالإذمام، فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه، كان الجواب بالتنصل والمقابلة بما يبرئ ساحته، وأن يورد ذلك بصيغة تزيل عن النفس ما سبق إليها، وتبعث على الرضا. وكذلك في كل واقعة بحسبها، مما يحصل به التنصل والاسترضاء ونحو ذلك.
وأما الجواب عن الكتب الواردة مع الإنعام السلطاني، فعلى نحو ما سبق في الخلع، من تعظيم المنة، والاعتراف بجزالة المنحة، وجميل العطية، وزيادة الفضل، وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره.
وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد ولد، فإنه يكون بإظهار السرور والاغتباط، وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير

العدد، وزيادة المدد، والرغبة إلى الله تعالى أن يوالي هذا المزيد ويضاعفه. ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مرض كان قد عرض له، فطريقه حمد الله تعالى وشكره على ما من الله تعالى به من العافية، وتفضل به من إزاحة المرض، ووقاية المكروه، وإظهار الفرح والسرور بذلك. وما ينخرط في هذا السلك.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بولد أو قريب، فإنه يظهر فيه الغم والحزن والكآبة، وحمد الله تعالى على سلامة نفسه، والرغبة إلى الله تعالى في الخلف عليه، إن كان الميت ولداً، مع الدعاء بطول البقاء وخلود الدولة، وما يجري هذا المجرى. وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية، مما يكثر وقوعه، ويتعدد تكراره، يستضيء بها الكاتب في كتاب الأجوبة، ونسخ على منوالها.

نسخة جواب عن كتاب وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه، كتب به إلى أمير الأمراء، قرين خلعة وسيف وتاج وسوارين، من إنشاء أبي الحسين بن سعد، وهو:

فإن كان سيدنا أمير المؤمنين، بما أعلم من فضل مراعاته لأمور الدين، وصدق عنايته بمصالح المسلمين، وأفيض له من مواهب الله عندهم، وصنوف نعنه عليهم، فيما هداه من طرق الرشاد، وبصره إياه من مناهج الصواب، وقرنه به من التوفيق في عزائمه، والجد في مراسمه، وتوعده فيه بالخيرات التامة، والكفاية العامة، في كل أمر يمضيه، ورأى يرتئيه، اعتماداً له بحسن المعونة على ما استرعاه، ووصله بالمزيد فيما خوله وأعطاه، وحراسة ما ساقه إليه من إرث النبوة، وحمل إياه من ثقل الإمامة، لما عرفه من نهوضه بالعبء، وقيامه بالحق فيما ناطه وأسنده إليه، وتأمله ما تأمله من حال عبده الذي لم يزل لطاعته معتقداً، وبعصمة ولايته معتضداً، ولوقت يبلغه منزلة الإحماد، ويحوز له عائدة الاجتهاد، فيما أرضاه مرتصداً، ولسعيه ونيته، وظاهره وطويته، معتمداً، ووجوده أيده الله في يسير ما امتحن به بلاءه، وعرف فيه غناءه، موضعاً للصنيعة، محتملاً للعارفة، مقراً بحق النعمة، عارفاً بقدر الموهبة، وترقبه فرصة ينتهزها في إبداء

عزمه، وإمضاء رأيه، وأنه واثق بالاستظهار بمكانه، والإسهام له في عز سلطانه، حتى أسفرت رويته، واستقرت عزيمته، فاختص عبده بجميل الأثر، واصطفاه بلطيف الحظوة، واعتمد عليه في إمارة الأمراء، موفياً به على رتبة النظراء، وكاسياً له حلة المجد والسناء، ورد إليه تدبير الرجال، وتقدير أمور العمال، وشفع ذلك بالتكنية والتلقيب في مشاهد حفلته، ومجالس خطوته، وأكمل الصنع عنده بإلحاق عبده فيما قسم لكل واحد منهما من شريف حبائه، وسني عطائه، وتجاوز في التكرمة له إلى أعلى الأحوال، وأرفع الرتب والمحال، فيما أمر – أعلى الله أمره – بحمله إليه من الخلعة التي يبقى شرف لباسها على الأيام، ويخلد ذكرها على الدهور والأعوام، والسيف الذي تفاءل لعبده فيه بما يرجو يمن مولاه وسعادة جده، أن يحققه الله في الاعتماد به على أعدائه، وغمده في نحور مشاقيه وغامصي نعمائه، والتاج المرصع الذي نظم له جوامع الفخر، والوشاح الموشى الذي وشحه حلية الجمال مدى الدهر، والطوق الذي طوقه قلائد المجد، والسوارين اللذين آذناه بقوة العضد وبسطة اليد، واللواء المعقود به مفاتح العز في طاعته، المرفوع به معالم النصر على شانئ دولته، ووصل إلي وفهمته.

وسيدنا أمير المؤمنين فيما أكرمه الله به من خلافته، وأتمنه من الحكم على بريته، ووكله إليه من حقوق الدين، وحياطته كرم المسلمين، وإحياء السير الرضية، والسنن الحميدة، وإماطة الأحكام الجائرة، والمظالم الظاهرة، وتقويم أود المملكة بعد تزعزع أركانها، وتصدع بنيانها، وإعزاز الأمة وإيناسها، بعد أن اشتملت الذلة عليها وتمكنت الوحشة فيها، وحكم اليأس في آمالها، وغلب القنوط على أطماعها، وتفاءل بما اعتمده له، وفوضه إلى نظره، من الحلية بحقائقه، والتوكيد بما لم تزل المخايل فيه لائحة، والأمارات منه واضحة، والشواهد به صادقة، والدلائل عليه ناطقة، حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره، وتعفت آثاره، ودرست رسومه، وغارت نجومه، وأنحى الشيطان بجرانه، واشرأب لتبديله بعدوانه، وانتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال، وحلم يستخف رواسي الجبال، وروية تستخرج كوامن الغيوب، وتكشف عنها حنادس الشكوك،

وباع لما يمتد إليه بسيط وذراع لما ينتظم عليه رحيب، وصدر يتسع لمعضلات الأمور، ويشرق في مدلهمات الحوادث، فشرد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة الاغترار، وتطاولت بهم مدة الإصرار، ومد رواق الملك وضرب قبابه، وثبت أواخيه وأحصد أسبابه، وقطع أطماع الملحدين، وأبطل كيد الكافرين، وفت في أعضاد المنابذين، فتحصنت البيضة، واجتمعت الكلمة، واتفقت الأهواء المتفرقة، وانتظمت الآراء المتشعبة، وسكنت الدهماء المضطربة، وقرت القلوب المنزعجة، وصدقت خواطر الصدور المثلجة، وظهر الحق ورسخ عموده، وبهر جماله ونضر عوده، ونشرت أعلامه وطلعت سعوده، وعز أولياؤه ونصرت جنوده، وساخ بالباطل قدمه، وانقطعت وصائله وعصمه، وانبتت حباله ورممه، وانحلت أسبابه وذممه، حقيق بما بان من فضله، واستفاض من الأمة من عدله، وعم كافة الرعية من طوله، ووصلت إلى الملي والذمي والداني والقاصي عائدة الخير في أيامه، وفائدة الأمن بمملكته وسلطانه، ومأمول لأفضل ما بدا لعبده من ثمرة اجتبائه واصطفائه، وما تغمده به من النعم العظيمة، والمواهب الجسيمة، وأسبغه عليه من العوارف السنية، ورفعه إليه من المنازل العلية، التي تقصر عنها همم ذوي الأقدار، وتقف دونها آمال أولي الأخطار، مقدماً له على أهل السوابق من أنصار دولته، وأشياع دعوته.

فلو ترافدت ألسن العباد – أيد الله أمير المؤمنين – على اختلاف لغاتهم، وتباين طبقاتهم، وتفاوت حالاتهم، في مقابلة نعمة سيدنا التي أعشى العيون بهاؤها، وتأدية حقوقه التي أعيا المجتهدين قضاؤها، لكانت حيث انتهت، وأنى تصرفت، على استفراغ القدرة واستنفاذ الطاعة، غير متقاربة حداً من حدودها، ولا مؤدية فرضاً من فروضها، وإذا كان الأمر على ذلك – أيد الله أمير المؤمنين – في فوت الإحسان مقادير الشكر، وإيفائه على مبالغ الوسع، فقصد عبده في جبر النقيصة، وسد الخلة، والازدياد في الطاعة، والإخلاص في المولاة والمشايعة، وإدامة الابتهال إلى الله تعالى، ورفع في المعونة عبد أمير المؤمنين على مجافاة بلائه، والتفرد بجزائه، وتجديد المسألة في إطالة بقائه، في عز لا تبلى جدته، وسلطان لا تنتهي مدته، ومواد من مناسجه وموائده، وروادف من عوائده، متظاهرة لا ينقطع

منها أول حتى يلحق تاليه، ولا ينصرم سالفه حتى ينصرف آتيه، ويكون المآل بعد استيفاء شروط الأمل، وتقضي حدود المهل، إلى النعيم المقيم، في جوار العزيز الكريم.

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده، ونظام معروفه عنده، بدؤه إياه بما يمتحن به خفة نهضته، وسرعة حركته، وقعوده لأمره بحد حديد، وبعيش عتيد، وصمده لما يحظيه لذلك مولاه، ويجوز له حمده ورضاه، بصدق بصيرة، وخلوص سريرة، واستسهال لكل خطة، وتجشم لكل مشقة، دنت المسافة أم شسعت، قربت الطية أم نزحت، وسيدنا أهل لاستتمام يد ابتداها، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة ابتناها، باستعمال عبده بأمره ونهيه، واعتماد لمهماته بحضرته وفي أطراف مملكته، إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذه نسخة كتاب أنشأته ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله، أبي الفضل العباس خليفة العصر، عن نائب الغيبة بالديار المصرية، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام، واستبداده بالأمر دون السلطان معه، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة، مفتتحاً له بيقبل الأرض التي يكاتب بها الملوك. وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكاتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان، لا يختلف فيه ملك ولا سوقة، وهو: يقبل الأرض وينهي ورود المثال الأشرف الميمون طائره، المرقوم على صفحات الأفلاك تهانيه المحمول على متن الحساب بشائره، الشاهد بالفتح المبين أوائله وبالنصر العزيز أواخره، متضمناً ما من الله تعالى به من جميل الصنع الذي وكفت بالخير سحائبه، وخفي اللطف الذي بهرت العقول عجائبه، بما منح الله تعالى به مولانا أمير المؤمنين مد الله تعالى الإسلام وارف ظله، وأنام الأنام بمد رواق الإمامة المعظمة في مهاد عدله، ومكن له في الأرض كما مكن لآبائه الخلفاء الراشدين من قبله، من جلوسه على سدة الخلافة المقدسة التي وصل منقطع حديثها بإسناده، حاز منها بأشرف مقعد تراث آبائه الكرام وأجداده، وابتسم ثغر الخلافة بعباسه، وتآنس منها جانب الدين بعد

الاستيحاش بإيناسه، فقبل المملوك له الأرض خاضعاً، ولبى أوامره الشريفة ضارعاً، وأجاب داعيه بالامتثال سامعاً طائعاً، وسجد سجود الشكر لذلك فعرف بسيماه، وانتسب إلى الولاة الشريف الإمامي انتساباً شاملاً لاسمه ومعناه، وأعلم من قبله من الأمراء والأجناد بذلك فقابلوه بالاستبشار طراً، وتلقوها تلقياً يليق بمثلها وإن كان لا مثل لهذه البشرى، وقرئت المطلقات الشريفة على المنابر فسكنت الدهماء وقرت، وسرت ألفاظها إلى الأسماع الشيقة فسرت، وكررت ألفاظها العذبة مراراً فحلت لدى النفوس إذ مرت، وارتفعت الأصوات بالدعاء بدوام هذه الدولة النبوية دواماً لا يستشعر مستشعر خلافته، فحقيق ظهور معجزة أكرم مرسل بعد الثمانمائة بقوله لعمه العباس: " ألا أبشرك يا عم، بي ختمت النبوة وبولدك تختم الخلافة " .

وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن مثال شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون واستقرار ولده السلطان الملك الناصر أبي بكر مكانه في الملك بعهد من أبيه، من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارنباري، بعد التعزية بأبيه السلطان الملك الناصر، وهي: وينهي ورود المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه، يتضمن أمر المصاب الذي كادت لوقوعه الأرض تتزلزل بأهلها، والعقول تتزيل عن محلها، وبلغت القلوب الحناجر، واستوحشت القصور واستأنست المقابر، وتصدعت له صدور السيوف رؤوس المنابر، وقصم الظهور، وشيب السود من الشعور، وجرع كؤوسه، وصدع الحوزة المحروسة، وذلك بما قدر الله تعالى من انتقال مولانا السلطان السعيد، الشهيد، والد مولانا السلطان - خلد الله ملكه - إلى رحمته ورضوانه، فأجرى المملوك عوض الدموع دماً، وأقام الإسلام والمسلمون عليه مأتماً، وتغير البدر المنير لفقده فأمسى مظلماً، وندبه الإسلام في سائر محاريبه ومصلاه، وأسف عليه البيت الحرام وركناه، " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " .

لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، أشرق منها ذلك اليوم كل شيء، ويوم قبض أظلم منها كل شيء، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أثبت الناس يوم وفاته صلى الله عليه وسلم، وهو الخليفة من بعده، ومولانا السلطان الشهيد - قدس

الله روحه – كان متشرفاً باسم نبيه، ومتبركاً في ذريته الشريفة بذكر سميه، ولو ذابت المهج أسفاً عليه لما أنصفت، وقد أسفت عليه الأمم بأسرها وحق لها أن أسفت، نبتت لحومنا من صدقاته، وغمرت المملوك مجزلات هباته، وما نقل من قصره إلا إلى جنات النعيم، وما فارق ملكه إلا وبات في جوار الله الكريم، وكان سلطاننا وهو اليوم عند الله سلطان، فسقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان.

وبحمد الله قد جبرت القلوب المنصدعة بجلوس مولانا السلطان – خلد الله ملكه – على تخت السلطنة المعظمة والله معه، وما جلس على كرسي الملك إلا أهله، ولا قام بأمر المسلمين إلا من علم فضله، ومولانا السلطان وارث الملك الناصري المنصور حقاً، والقائم بشأن السلطنة غرباً وشرقاً، وخلاصة هذا البيت الشريف زاده الله نصراً، وأدام ملكه دواماً مستمراً، والعيون الباكية قد قرت الآن بهذه البشرى، والقلوب الثاكلة قد ملئت بهجة: " إن مع العسر يسرا " ، واستقر الإسلام بعد قلقه، ونام على جفنه بعد أرقه، واستقبلت الأمة عاماً جديداً وسلطاناً منصوراً سعيداً، واستبشرت القبلتان، وتناجى بالمسرة الثقلان، والذين كفروا أمسوا خائبين، والذين آمنوا أضحوا فرحين، " هو الذي أيدكم بنصره وبالمؤمنين " ومولانا السلطان هو العريق في سلطنة الإسلام، والإمام الأعظم بن الإمام، فخلد الله ملكه ما دامت الأيام، وأحسن عزاءه في خير سلطان الأنام، وابتهلت الألسنة بالتراحم على مولانا السلطان الشهيد – قدس الله روحه – بدموع سائلة، وقلوب موجوعة بجراحات النياحات ثم عوضوا بالمسرات الكاملة، والدعاء مرفوع لمولانا السلطان – خلد الله ملكه – براً وبحراً، والبلاد مطمئنة والعساكر على ما يجب من التمسك بالطاعة الشريفة، والتشريف بإقبال دولة سلطانهم، ووارث سلطانهم، وكان المملوك يود لو شاهد مولانا السلطان – خلد الله ملكه – على ذلك السرير والمنبر، وقبل الأرض بين يدي المواقف المعظمة والمقام الأكبر، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة جواب عن ورود المثال الشريف بركوب السلطان بالميدان والإذن للنواب في لعب الكرة، وهي: ينهي ورود المثال الشريف شرفه الله تعالى وعظمه،

يتضمن الصدقة التي أجرت أولياءها على أجمل عادة من الاحتفال، والمراحم الشاملة التي وسعت لهم كرمها سافرة عن أوجه الإقبال، والبشرى التي جمعت من أنواع المسرات ما بلغته الآمال، وهو أن الركاب الشريف استقل إلى الميدان السعيد نهار السبت في كذا من شهر كذا، في أسعد طالع وأيمن وقت مطاوع، وفي الخدمة الشريفة من الأمراء - كثرهم الله تعالى - من جرت العادة بهم من كل كمي مقنع، قد لبس من الطاعة برداً وبالإخلاص تدرع، وامتطى من فائض الصدفات الشريفة صهوة سابق قد شمر للسباق ذيلاً، وفر كبرق لمع ليلاً.
وأن مولانا السلطان - خلد الله ملكه - طلع عليهم طلوع البدر عند الكمال، وحوله الممالك الشريفة كالأنجم الزاهرة التي لا تعد ولا تشبه بمثال، والجياد لا يرى لها أثر من الركض، والكرة تتشرف بالصولجان كما تتشرف بالتقبيل الأرض، وعاد الركاب الشريف - زاده الله شرفاً وعظمه - إلى القلعة المنصورة، إلى محل المملكة الشريفة، وقد دست السلطنة المعظمة محفوفاً من الله تعالى بلطفه " له معقبات من بين يديه ومن خلفه " .
وما اقتضته الآراء الشريفة، والمراحم المطيفة، وآثرت به إعلام المملوك بذلك، والمرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - أن يتقدم المملوك بالنزول إلى ميدان فلانة المحروسة، ومعه مماليك مولانا السلطان - خله الله تعالى ملكه - والأمراء، فقابل المملوك هذه الصدقات، بتقبيل الأرض ورفع الدعوات، وجمعوا بين الكرة والصولجان، وحصل لهم من المسرات ما لا يحصره بيان، وانبسطت نفوسهم إذ أصبحوا في أمن وأمان، وابتهلوا إلى الله تعالى بدوام هذه الأيام التي نوعتهم بأنواع الإحسان، وضجوا بالأدعية لمولانا السلطان - خلد الله ملكه - التي عمت مواهبه وفاق بمكارمه الماضين، وأربى على سلفه الشريف بالعطاء والتمكن، جعل الله أعداءه تحت قهره إلى يوم الدين، إن شاء الله تعالى.
وهذه نسخة جواب بوفاء النيل المبارك كتب به عن نائب طرابلس، وهي:

وينهي ورود المثال الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - الذي أشرقت أنوار تهانيه، وتألقت بروق ألفاظه ومعانيه، فبشرت بفيض فضل الرحمة، وعموم

الرعايا بتواتر عميم النعمة، ووفاء النيل المبارك الذي ما برح في هذه الأيام الزاهرة يفي بعهده، ويسل سيف الخصب من غمده، ويقتل المحل بحمرة متنه وجوهر حده، مهنئاً للأولياء بهذه الدولة التي أصبحت قلوبهم مطمئنة بالأمن والرخاء، مسرورة بما من الله به من ترادف الآلاء وعموم النعماء، وحال ما ورد المرسوم الشريف – شرفه الله تعالى وعظمه – بادر المملوك إلى امتثال المرسوم الشريف بتقبيل الأرض والسمع والطاعة، وأخذ كل حظه من هذه البشرى، التي عمت تهانيها براً وبحراً، وجعلت أمور هذه الأمة بيمن بركة هذه الأيام الشريفة بعد عسر يسراً، وقد عاد فلان البريدي ومن معه إلى الأبواب الشريفة بالجواب الشريف، طالع بذلك إن شاء الله تعالى.

آخر في المعنى: وينهي ورود المثال الشريف زاده الله علواً وشرفاً، وبيض له في القيامة صحفاً، يتضمن أنواع الإنعام الجزيل. وإبداء آثار السرور بما يسر الله من وفاء النيل، فأشرقت أنوار تهانيه، وتألقت بروق ألفاظه ومعانيه، فبشر بفيض فصل الرحمة، وعموم الرعايا بتواتر عموم النعمة، إذ جاء محياه في هذا العام طلقاً وسلك في عوائد البر والإحسان طرقاً، وأذن ببلوغ المرام والمراد، وكسر سد خليجه جبراً للعباد والبلاد، حيث ملأ الأرض رياً، وأهدى من نفحات الأمن والمن رياً، والمرسوم الشريف – شرفه الله وعظمه – بأن لا يجبى على ذلك حق بشارة، ولا يتعرض إلى أحد بخسارة، فقابل المملوك المثال الشريف والمرسوم الشريف بتقبيل الأرض والسمع والطاعة، وبادر المملوك إلى إذاعة هذا البشرى، التي عمت تهانيها براً وبحراً، وجعلت أمور هذه الأمة بيمن بركة هذه الأيام الشريفة بعد عسر يسراً، واستنطق الألسنة بالدعاء لهذه الدولة القاهرة، وجلا وتلا صور الهناء وسور الآلاء بهذه النعمة الوافية والمنة الوافرة، وسأل الله تعالى أن يخلد ملك مولانا السلطان، ويوالي أنباء البشائر في أيامه الشريفة مروية بالأسانيد الحسان، وقد عاد فلان البريدي بالأبواب الشريفة – شرفها الله تعالى وعظمها – بهذا الجواب الشريف، وقد عاين ابتهال أهل هذه المملكة الفلانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزاهرة السارة بهذه البشائر بخلوها من الكلف والخسارة وطالع بذلك. إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة جواب عن مثال شريف بوصول فرس إنعام، كتب به عن نائب طرابلس، وهي: يقبل الأرض وينهي ورود المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرفه، ويتضمن ما اقتضته الآراء الشريفة من الخير التام، والإنعام العام، والصدقة الوافية الوافرة الأقسام، التي ما برحت مماليك هذه الدولة الشريفة في إنعامها العميم تتقلب، والخيل السوابق بسعادتها الأبدية تجلب وتجنب وتركب، من تجهيز الحصان البرقي بسرجه ولجامه وعدته الكاملة، وشمول المملوك بالصدقات التي ما برحت مترادفة متواصلة، ولعبد هذا البيت الشريف شاملة، وقبل المملوك الأرض وقبل حوافره، واعتد بهذه النعمة الباطنة والظاهرة، وأعده ليومي تجمل وجهاد، ولقاء عدو وطراد، والله تعالى يخلد هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد، والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والعبيد، طالع بذلك إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة عن وصول خيل من الإنعام السلطاني، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: وينهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وتتخذ صهواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها. فمن أشهب غطاه النهار بحلته، وأوطأه الليل على أهلته، يتموج أديمه رياً، ويتأرج رياً، ويقول من استقبله في حلي لجامه: هذا الفجر قد طلع بالثريا، إن انفلت في المضايق انساب انسياب الأيم، وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم، كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته، وكم عاين طرف السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته، لا يستن داحس في مضماره، ولا تطمع الغبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يداه مرمي طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه.

ومن أدهم حلك الأديم، حال الشكيم، له مقلة غانية وسالفة ريم، قد ألبسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده، يظن من نظر إلى سواد طرته، وبياض حجوله وغرته، أنه توهم النهار نهراً فخاضه، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة، لين الأعطاف، سريع الانعطاف، يقبل كالليل، ويمر كجلمود صخر حطه سيل، يكاد يسبق ظله، ومتى جرى السهم إلى غرض بلغه قبله.

ومن أشقر وشاه البرق بلهبه، وغشاه الأصيل بذهبه، يتوجس ما لديه بدقيقتين، وينفض وفرتيه عن عقيقتين، وينزل عذار لجامه من سالفتيه على شقيقتين، له من الراح لونها، ومن الرياح لينها، إن جرى فبرق خفق، وإن أسرع فهلال على شفق، لو أدرك أوائل حرب بني وائل لم يكن للوجيه وجاهة، ولا للنعامة نباهة، ولكان ترك إغارة سكاب لؤماً وتحريم بيعها سفاهة، يركض ما وجد أرضاً، وإذا اعترض به راكبه بحراً وثب عرضاً.

ومن كميت نهد، كأن راكبه في مهد، وعندمي الإرهاب، شمالي الذهاب، يزل الغلام الخف عن صهواته، وكأن نغم الغريض ومعبد في لهواته، قصير المطا، فسيح الخطا، إن ركب لصيد قيد الأوابد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد، وإن جنب إلى حرب لم يزور من وقع القنا بلبانه، ولم يشك لو علم الكلام بلسانه، ولم ير دون بلوغ الغاية – وهي ظفر راكبه – ثانياً عن عنانه، وإن سار في سهل اختال بصاحبه كالثمل، وإن أصعد في جبل طار في عقابه كالعقاب وانحط في مجاريه كالوعل، متى ما ترق العين فيه تسهل، ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف عند قدره: ما أنت هنا فتمهل.

ومن حبشي أصفر يروق العين، ويشوق القلب بمشابهة العين، كأن الشمس ألقت عليه من أشعتها جلالاً، وكأنه نفر من الدجى فاعتنق منه عرفاً واعتلق احجالاً، ذي الكفل يزين سرجه، وذيل يسد إذا استدبرته منه فرجه، قد أطلعته الرياضة على مراد فارسه، وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملابسه، له من البرق خفة وطئه وخطفه، ومن النسيم لين مروره ولطفه، ومن الريح هزيزها إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه، يطير بالغمز، ويدرك بالرياضة مواقع الرمز، ويعدو كألف الوصل في استغناء مثلها عن الهمز.

ومن أخضر حكاه من الروض تفويفه، ومن الوشي تقسيمه وتأليفه، قد كساه النهار والليل حلتي وقار وسنا، واجتمع فيه من السواد والبياض ضدان لما استجمعا حسنا، ومنحه البازي حلة وشيه، ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه، يعطيك أفانين الجري قبل سؤاله، ولما لم يسابقه شيء من الخيل أغراه حب الظفر بمسابقة خياله، كأنه تفاريق شيب في سواد عذار، أو طلائع فجر خالط بياضه

الدجى، فما سجى، ومازج ظلامه النهار، فما أنار، يختال لمشاركة اسم الجري بينه وبين الماء في السير كالسيل، ويدل بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللوامع وبين البرقية من الخيل، ويكذب المانوية لتولد اليمن فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل.

ومن أبلق ظهره حرم، وجريه ضرم، إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم، وإن صرف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكف والقدم، قد طابق الحسن البديع بين ضدي لونه، ودلت على اجتماع النقضين علة كونه، وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار، وأخذ وصف حلتي الدجى في حالتي الإبدار والسرار، لا تكل مناكبه، ولا يضل في حجرات الجيوش راكبه، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترسل فيه كواكبه، ولا يجاريه الخيال فضلاً عن الخيل، ولا يمل السرى إلا إذا مله مشبهاه: النهار والليل، ولا تتمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل، فهو الأبلق الفرد، والجواد الذي لمحاربه العكس وله الطرد، قد أغنته شهرة نوعه في جنسه عن الأوصاف، وعدل بالرياح عن مباراته لسلوكها له في الاعتراف جادة الإنصاف. فترقى المملوك إلى رتب العز من ظهورها، وأعدها لخطبة الجنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها، وكلف بركوبها فكلما أكمله عاد، وكلما أمله شره إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد، ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل، وعلم أنها ليومي سلمه وحربه جنة الصائد وجنة الصائل، وقابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه، وأعدها في الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه، والله تعالى يشكر بره الذي أفرده في الندى بمذاهبه، وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه.

المهيع الثاني من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نواب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يستضيء به الكاتب في مثله.

فمن ذلك ما يكتب عن نائب كل مملكة إذا وصل إلى مملكته إذا وصل إلى محل

ولايته. قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته، كتب إلى السلطان يخبره بذلك وبما المملكة عليه.
وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كتب بها عن نائب حلب في معنى ذلك، وهي: يقبل الأرض وينهي أن المملوك وصل إلى المملكة الفلانية المحروسة، وحل محالها المأنوسة، التي شملته الصدقات الشريفة بكفالتها، وأهلته المراحم المنيفة لإيالتها، رافلاً في حلل الإنعام الشريف، متفيئاً ظل العز الوريف، صحبة فلان مسفره، ودخلها يوم كذا من شهر كذا لابساً تشريفه لشريف المنعم به عليه، ماشياً لمحمل الكرامة الذي سار إليه، بحضور من جرت العادة بحضوره، من قضاة القضاة والأمراء والحجاب، والعساكر المنصورة والأصحاب، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، وقبل الأرض بباب القلعة المنصورة، ودخل دار العدل الشريف وقطوف الأماني له مهصورة، وقريء بها بحضرة أولياء الدولة تقليده، وعظم المراسيم الشريفة تأييده، وتصدى لما نصبه له المراسم الشريفة من إنصاف المظلوم، وتنفيذ كل مهم شريف ومرسوم، وتصفح أحوال المملكة، وسلك كل أحد مسلكه، واستجلبت لمولانا السلطان، واجتهد في حياطة البلاد ممن يمد إليه الشيطان المفسدين بأشطان، وانتظم له أمر المملكة بالمهابة الشريفة أحسن انتظام، وبلغ به كل ولي من قهر العدو غاية المرام، وقد أعاد المملوك فلاناً مسفره إلى خدمة الأبواب الشريفة مزاح الأعذار، مبلغ الأوطار، على العادة طالع بذلك ولا زال منه مزيد الشرف والعلو إن شاء الله تعالى.
وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي: يقبل الأرض وينهي أنه وصل إلى طرابلس المحروسة مغموراً بالصدقات الشريفة، والإنعامات المطيفة، صحبة مملوك مولانا السلطان فلان خلد الله تعالى ملكه، وألبس تشريفه الشريف، وقريء تقليده الشريف بدار العدل، وقبل الأرض مراراً على العادة، وتقدم المملوك بالحلف الشريف على النسخة المجهزة صحبة المشار إليه من الأبواب الشريفة عظمها الله تعالى، بحضور من جرت العادة بحضوره، من قضاة القضاة والأمراء، وكتب خطه عليها، وانتصب المملوك لخلاص الحقوق، وإزالة المظالم، ونشر لواء العدل الشريف، لينتصف المشروف

من الشريف، وينزجر القوي عن الضعيف، واتباع الحق في القضايا واستجلاب الأدعية بدوام هذه الدولة العادلة من الرعايا، ورتب أمورك الآزاك المنصورة على أكمل عادة وأجمل قاعدة، وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظمها، لينهي بين يدي الأيادي المعظمة، ما عاينه من المملوك من إخلاصه في الطاعة الشريفة ومغالاته، طالع بذلك، إن شاء اله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة: أما التهنئة الخلافة، فقد قال في مواد البيان: من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء، إكباراً لهم وتعظيماً، إلا أننا رأينا ذوي الأخطار من القدماء قد شافهوه بالعزاء مسلين، وبالهناء داعين، وربما دفع الكاتب إلى صحبة رئيس يقتضي محله أن يهنئ الخليفة بمتجدد النعم لديه، ويعزيه لمتطرق النوائب إليه، فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء وعزائهم، ما يحتذى عليه عند الحاجة إلى استعمال مثله.

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة، أوردها في مواد البيان، وهي:

أولى النعم – خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين – بأن ينطق بها ألسن الذاكرين يضوع عطرها، وتتناقلها أفواه الشاكرين يفوح نشرها نعمة إيلائه في خلافته التي جعلها ذخراً للأنام، وعصمة للإسلام، وحاجزاً بين الحلال والحرام، وقواماً للائتلاف والاتفاق وزماماً عن الاختلاف والافتراق، ونظاماً لصالح الخاصة والعامة، وسبيلاً في اجتماع الكلمة وسكون الأمة، وسبباً لحقن الدماء، ودعة الدهماء، ومجاهدة الأعداء، وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكوات، والعمل بالفرائض والسنن، وحسم البدع والفتن، وعدقها بالأخبار ورثة نبيه وعترته، والأبرار والطهرة من أرومة رسوله وشجرته، الذين نصبهم دعاة إلى طاعته، وهداة لبريته، وأعلاماً لشريعته، يأمرون بالمعروف ويأتمرون، وينهون عن المنكر وينتهون، ويقضون بالحق وبه يعدلون، وكلما لحق منهم سلف بمقر أوليته أقام خلفاً يختصه بانتخابه وتكرمته.

والحمد لله الذي جعل قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه، وجعل منهم الماضي الذي كانت مفوضة إليه، والآتي الذي أقرت عليه، وأنجز لهم ما وعدهم

من إبقاء الإمامة، في عقبهم إلى يوم القيامة، واستخلص لها من عصرنا هذا وليها الحامي لحقيقتها، والمرامي عن حوزتها، المعز لكلمتها، الرافع لرايتها، المحدد لحدودها، الحافظ لعقودها، وسلم قوساً منه إلى باريها، وناطقها بكفئها وكافيها، وأفضى إليه بشرف الولادة الأبوة، وميراث الإمامة والنبوة، وألف به بين القلوب الآبية، وجمع عليه النفوس النائية، واتفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديها، واستدت ثلمة الدين بعد انثغارها، واطمأنت الدهماء بعد نفارها، حمداً يكون لنعمته كفاء، ولموهبته جزاء.

وخلافة الله وإن كانت الغاية التي لا تنزع الهمم إليها،ولا تتطلع الأماني عليها، لاختصاص الله بها صفوته من بريته، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته، فإن أمير المؤمنين يتعاظم عن تهنئته بوصولها إليه، وسبوغ ملابسها عليه، إذ لا يسوغ أن يهنأ بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار على صفحات الليل والنهار، والعبد يسأل الله تعالى في إنهاض أمير المؤمنين بما حمله وكلفه، وتوفيقه فيما كلفه واستخلفه، وأن يمكن له في الأرض، ويعلي يده بالبسط والقبض، ويده بعز السلطان، وعلو الشان، وظهور الأولياء، وثبور الأعداء وإعزاز الدين، وابتزاز الملحدين، وتقوية يده في نصرة الإسلام، وسياسة الأنام، ويعرف رعيته من يمن دولته، وسعادة ولايته، ما يجمعهم على الطاعة والموافقة، ويعصمهم من المعصية والمفارقة، ويوفقهم من الإخلاص في موالاته، لما يوفر حظهم من مرضاته، ويجعل ولايته هذه مقرونة بانفساح المدة والأجل، وبلوغ المنى والأمل، وصالح القول والعمل، ويبلغه في مملكته ودولته أفضل ما بلغه خليفة من خلفائه، ووليًّا من أوليائه.

ومن ذلك يكتب في البشارة بالفتوح: قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعة أو قطر من الأقطار وحصل الفتح على يديه أن يكتب السلطان مبشراً بذلك الفتح، منوهاً بقدره، معظماً لأمره، وما كان فيه من عزيز النصر وقوة الظفر.

فمن مكاتبة في البشارة بفتح حصن المرقب، وهي:

قد أسفر عن الفتح المبين صباحه، والتأييد وقد طار به محلق التباشير فخفق في الخافقين جناحه، والإسلام وقد وطيء هامة الكفر بمقدمه، والدين وقد عز بفتكات سيفه المنصور فأنف أن يكون الشرك من خدمه، والأفلاك وقد علمت أنه لهذا الفتح القريب كان اجتماع كواكبها، والأملاك وقد نزلت لتشهد أحمد النصرة البدرية في صفوفهما ومواكبهما، وحصن المرقب وقد ألقت عليه الملة الإسلامية أشعة سعدها، وأنجزت له الأيام من الشرف بها آماله بعد ما طال انتظاره لوعدها، وأمنته الأقدار الني ذللته للإسلام أن تطاول إليه الحوادث من بعدها، وقد أحاطت العلوم بأن هذا الحصن طالما شحت الأحلام، أو تخيل فتحه لمن سلف من الأنام، فما حدثت الملوك أنفسها بقصده إلا وثناها الخجل، ولا خطبته ببذل النفائس والنفوس إلا وكانت من الحرمان على ثقة ومن معاجلة الأجل وقته على وجل، وحوله من الجبال كل شامخ تتهيب عقاب الجو قطع عقابه، وتقف الرياح خدماً دون التواقل في هضابه، وحوله من الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأصنافها ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها، وهو مع ذلك تفرط بالنجوم، وتقرطق بالغيوم، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم، تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه، ويظن من سما إلى السها أنه ذبالة في سراجه، فكم من ذي جيوش قد مات بغصة، وذي سطوات أعمل الحيل فلم يفز من نظيره على البعد بفرصة، ولا يعلوه من مسمى الطير سوى نسر الفلك ومرزمه، ولا يرمق متبرجات أبراجه غير عين شمسية والمقل التي تطرف من أنجمه، وقد كان نصب عليه من المجانيق ما سهامه أنفذ من سهام الجفون، وخطراته أسرع من لحظات العيون، لا يخاطب إلا بوساطة رسله بضمير الطلاب، ولا يرى لسان سهمه إلا كما ترى خطفات البرق إذا تألق في علو السحاب، فنزلت عليه الجيوش نزول القضاء، وصدمته بهممها التي تستعر منها الصوارم سرعة المضاء وروعة الانتضاء، فنظرت منه حصناً قد زرر عليه الجوجيب غمامه، وافتر ثغره كلما جذب عنه البرق فأضل لثامه، فتذللت صعابه، وسهلت عقابه، وركزت للجنوبات في سفحه وطالما مخلفة تبكي عليها الغمائم، فضرب بينهما وبين الحصن بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونصبت فوقه من الأسنة ثغور براقة

الثنايا ولكنها غير عذاب، فعاد ذلك السفح مصحفاً بصفاحها، مشرقاً بأعلام أسنة رماحها، فأرسلت إلى أرجائها ما أربى على الغمائم، وزاد في نفحه على التمائم طويل.

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم.

ونصبت عليها المجانيق فلم ترع حق جنسها، وسطت عليها فأصبح غدها في التحامل أبعد من أمسها، واستنهضتها العدا فاعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها، وبسطت أنفها أمارة على الإذعان، ورفعت أصابعها، إما إجابة أن تذل للتشهد وإما إنابة إلى طلب الأمان، فخاف العدا من ظهور هذا الاستظهار، وعلموا أن المجانيق فحول لا تثيب لها الإناث التي عريت من النفع بأيديهم فاستعانوا عليهن مع العدا بطول الجدار، فعند ذلك غدت تكمن كمون الأوساد وتثب وثوب الأسود، وتباري بها الحصون السماء فكلما قذفت هذه بكواكبها النيرة قذف هذا بكوكبه السود، ولم يكسر لهم منجنيق إلا أن نصبوا آخر بمكانه، ولا قطعت لأحد إصبع إلا وصل الآخر ببنانه، فظلت تتحارب مثل الكماة، وتتحامل الرماة، حتى لقحت وفسحت للرضا مجالاً، ومالت وميل فيها وكذلك الحرب تكون سجالاً.

هذا والنقوب قد دبت في باطنه دبيب السقام، وتمشت في مفاصله كما تتمشى في مفاصل شاربها المدام، وحشت أضالعه ناراً تشبه نار الهوى، تحرق الأحشاء ولا يبدو لها ضرام، قد داخلت مرسلة الوجل، فتحققوا حلول الأجل، وعملوا أن هذا الفتح الذي تمادت عليه الأيام قد جاء يسعى إلى ما بين يديه على عجل، وأيقن الحصن بالانتظام في سلك الممالك الشريفة فكاد يرقصه بمن فيه فرط الجذل، وزاد شوقه إلى التشريف ويا صبابة لوسمها واسمها مشتاق لكنهم أظهروا الجلد، وأخفوا ضرام نار الجزع وكيف تخفي وقد وقد، وتدفقت إليهم الجيوش فملأت الأفق، وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق، ونهضت إليهم مستمدة من عزمات سلطانها، مستعدة لانتزاع أرواح العدا على يديها من أوطانها، فانقطعت بهم الظنون، ودارت عليهم رحى المنون، وأمطرت عليها المجانيق أحجارها "

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون " وحطت بساحتها عقبان تلك الأحجار، فهدمت العمائر والأعمار، وأجرت في أرجائها أنهار الدماء فهلكوا بالسيف والنبل والنار، وتحكمت هذه الثلاثة في أهل التثليث فبدوا بالخوف من أمنهم، وهربوا منها إلى مخايل حصنهم.

ولما ركب الأول للزحف في جيوشه التي كاثرت البحر بأمواجه، تزلزل الحصن لشدة ركضه، وتضعضع من خوف عصيانه فلحقت سماؤه بأرضه، وتحللت قواعد ما شيد من أركانه فانحلت، وألقت الأرض ما فيها وتخلت، ومشت النار من تحتهم وهم لا يشعرون، ونفخ في الصور بل في السور فإذا هم قيام ينظرون، وما كان إلا أن قابلت العساكر ذلك البرج حتى أهوى يلثم التراب، وتأدب بآداب الطاعة فخر راكعاً وأناب، فهاجمتهم الجيوش مهاجمة الحتوف، وأسرعت المضاء والانتضاء فلم تدر العدا، أهم أم الذين في أيمانهم السيوف التي تسبق العذل؟ وثبت منهم من لم يجد وراءه مجالاً فلجأوا إلى الأمان، وتمسك دنيء كفرهم بعزة الإيمان، وتشبثوا بساحل العفو حتى ظنوا أنهم أحيط بهم وجاءهم الموج من كل مكان، وسألونا أن يكونوا لما من جملة الصنائع، وتضرعوا في أن نجعل أرواحهم لسيوفنا من جملة الودائع فنصدق عليهم بأرواحهم كرماً، وطلوا على معنى الحديث النبوي: يرون الممات يقظة والحياة حلماً وأطلقتهم اليد التي لا يخيب لديها الأنامل، وأعتقتهم اليمنى التي فجاج الأرض في قبضتها، فمتى تشاء تجمع عليهم الأنامل، وخرجوا بنفوس قد تجردت حتى من الأجسام، ومقل طلقت الكرا خوفاً من الصوارم التي تسلها عليهم الأحلام، وسطرت والمدينة قد تسنم أعلاها، وشعار الإيمان قد جردها من لباس الكفر وأعراها، والأعلام قد سلكت إلى ذلك الحصن أعلى مرقى، والسعادة قد بدلت بيعه مساجد ومحاريبه قبلة وكانت شرقاً، فأصبح يرفل في حلل الإيمان، وأذعن بالطاعة فأخرس جرس الجرس به صوت الأذان، إن شاء الله تعالى. ومن ذلك ما يكتب به التعازي إلى الخلفاء: وقد تقدم في الكلام على التهنئة بولاية الخلافة، أنه كما ينبغي أن لا يهنأ الخليفة بالخلافة إعظاماً، فكذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه، إلا أنه ربما دعت ضرورة الكاتب إلى ذلك، لإكرام بعض أخصاء الخليفة بالكتابة بذلك إلى الخليفة. ولا يخفى أن الحال في

ذلك يختلف باختلاف المعزي، من والد أو ولد أو غيرهما.
وهذه نسخة مكاتبة في معنى ذلك ذكرها في مواد البيان، وهي: أما بعد فإن الله تعالى جعل خلافته لخلقه قواماً، ولبريته نظاماً، وجعل له خلفاء يدخرهم لميراثها، ويختصهم بتراثها، فإذا انقضت مدة ماضيهم، لما يريده الله من استدنائه إلى مقر خلصائه، نقلها إلى نوره باصطناعه واصطفائه. والحمد لله الذي قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه، وجعل منهم زعيمهم الماضي الذي كانت بيديه مواريثها، والآتي الذي صار إليه تراثها.
والحمد لله الذي ختم لأمير المؤمنين المنتقل إلى دار الكرامة بأفضل الخاتمة وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمة، وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليقته، وحياطة سريعته، وحماية بلاده، وسياسة عباده، ولوراثة تراث آبائه وأجداده، وجعل الماضي منهم مرضياً عنه، والآتي مرضياً به، وأعتدت الرعية من عدل أمير المؤمنين ما جبر كسرها في خليقته، وصبرها في رزيته، وهو المسؤول أن يلهمه على المصيبة في سلفه الطاهر صبراً، وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته التي لا كفاء لها شكراً، بمنه وفضله إن شاء الله تعالى.
وهذه نسخة كتاب في التعزية أيضاً، وهي:

إن الله خص أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافته، وعظم محله بما نصبه له من إمامة بريته، وجعله عماداً لأهل الإسلام تجتمع عليه أهواؤهم، وتسكن إليه أملاؤهم، ويصلح به دينهم ودنياهم، ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم، فإذا أسبغ نعمة من نعمه عليه، وظاهر موهبة من مواهبه لديه، شركوه فيها، ونهضوا معه على الشكر عليها، وإذا ابتلاه ببلية، وامتحن صبره برزية، أخذوا بالنصيب العظيم من الحادث، والحظ الجسيم من الكارث، وما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله جزاء من الأجر عليها.
وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من فلان – رضي الله عنه – عارية من عواريه، وبلغه من الاستماع بها ما احتسب من أمانيه، ثم استرجعها ليثقل بها ميزانه، ويضاعف إحسانه، ويجعلها له ذخراً، ونوراً يسعى بين يديه وأجراً، فعظم

بذلك المصاب على رعيته وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سكون القلوب، ونقع الخطوب، واستقرار قواعد الخلافة، وشمول الرحمة والرأفة، وقد حصل أمير المؤمنين على نعم كثيرة من موهبته وثوابه في استعادته، وحصل كافة خاصته على القلق لفقده، والأسى من بعده، وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد، وثقاف كل مياد، ومهبط كل رحمة، وطريق كل نعمة، وهو خليق بأن ينظر من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره، ما يبعث على التأسي به، والتأدب بأدبه، والله تعالى يحسن لأمير المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في المؤتنف، ويوفر حظه من الثواب، ويعظم له الأجر على المصاب، ويريه في أوليائه وأحبائه، أعظم محابه وغاية آرابه، وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والاحتفاء، بأفضل الأجداد والآباء، بفضله ورحمته، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب، كتب به إلى الأبواب السلطانية عند فتح آياس قاعدة بلاد الأرمن وانتزاعها من أيديهم، وهي: يقبل الأرض وينهي أن ليلة الانتظار أطلعت صباحها، ومواعيد الآمال بعثت على يد الإقبال نجاحها، والعساكر المنصورة جردت رابع ربيع الأول بمدينة آياس صفاحها، وأوردت إلى الصدور رماحها، فلم يكن إلا كلمح البصر، ولسان صدق القتال قائل بأن الجيش الناصري قد انتصر، وانقضى ذلك النهار، بإيقاد نار حرب الحصار، على أبراج وأسوار، أديرت على المينا كما أدير المعصم على السوار، فلما أشرق صباح الصفاح ولاح، إلا والأعلام الناصرية على قلة القلعة مائسة الأعطاف من الارتياح، معلنة ألسنتها بحي على الفلاح وحي على النجاح، وعز الإسلام يقابل ذل الكفر، بهذا النصر وهذا الافتتاح، وجمع الأرمن الملا تفرق ما بين قتل وأسر وانتزاح، ولعبت أيدي النيران في القلعة وجوانبها، وتفرقت من الأسوار أعضاء مناكبها، ونطق بالأقدار لسان النار: هذي منازل أهل النار في النار.

ثم انتقلت المحاصرة إلى قلعة البحر، وضم الأرمن الملا إليها سيف القدرة والقهر، وهذه القلعة عروس بكر في سماء العز شاهقة، لم يسبق لأحد من الملوك الأوائل إلى خطبتها سابقة، قد شمخت بأنفها، ونأت بعطفها، وتاهت على وامقها،

وغضت عين رامقها، فهي في عقاب لوح الجو كالطائر، وسورها البحر والحجر فلا يكاد يصل إلى وكرها الناظر، وقد أوثقت بحلقات الحديد، وقيدت كأنها عاصية تساق بالأصفاد إلى يوم الوعيد، فأرسل عليها المنجنيق عقابه، وأعلق بها ظفره ونابه، فكشف عن شرفاتها شنب ثغرها، وسقاها بأكف أسهمه كؤوس حجارة فتمايلت من شدة سكرها، وفض من أبراجها الصناديق، المقفلة، وفصل من أسوارها الأعضاء المتصلة، فتزلزل عمدها، وزيل من مكانه جلمدها، وعلت الأيدي المرامية بها، وغلت الأيدي المحامية عنها، واشتد مرضها من حرارة وهج الحصار، وضعفت قوتها عن مقاومة تلك الأحجار، ولم يبق على سورها من يفتح له جفناً، وشن المنجنيق عليها غارته إلى أن صارت شناً، فأرسل إليها من سماء غضبه رجوماً، ووالى ذلك عليها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، فبادرت إلى الطاعة واستسلمت، وكرر نحوها ركوعه فسجدت، وركبت الجيوش المنصورة عوض الصاقنات اللجج، وسمحت في سبيل الله عز وجل بالمهج، فعند ذلك سارع أهلها إلى التعلق بأسباب الهرب، وكان خراب قلعة المينا هذي لخراب قلعتهم من الجرب، وأحرقوا كبدها من أيديهم بنار الغضب، وانتزحوا منها ليلاً، وجروا من الهزيمة ذيلاً، وتسلمها المسلمون، وتحسر عليها الحسرة الكبرى الكافرون، وهدمت حجراً حجراً، وصافحت بجبهتها وجه الثرى، وأعدمت من الوجود عيناً وأثراً، فما أعجب هذا الفتح وأغرب! وما أحلى ذكره في الأفواه وما أعذب! وما ألذ حديثه في الأسماع وما أطرب! وما أسعد هذا الجيش الناصري وما أنجب!

بسيط.

بشراك بشراك هذا النصر والظفر ... هذا الفتوح الذي قد كان ينتظر

فتح مبين ونصر جل موقعه ... سارت به وله الأملاك والبشر

عجائب ظهرت في فتحه بهرت ... لم تأت أمثالها الأيام والبشر

لو كان في زمن ماض به نزلت ... في وصف وقعته الآيات والسور

هذي أياس التي قد عز جانبها ... وعز خاطبها حتى أتى القدر

جاءت إليها الجيوش كم بها أسد ... بيض الصفاح لها الأنياب والظفر

جيش لهام كبحر زاجر لجب ... إذا سرى لا يرى شمس ولا قمر

يسير بالنصر أنى سار متجهاً ... ما زال يقدمه التأييد والظفر

جيش له الله والأملاك ناصرة ... مليكه ناصر للدين منتصر

يوم الخميس رأيت الخيل حاملة ... على رؤوس عداة هامها أكر

وقلعة البحر كانت آية لهم ... فعن يسير فأضحت للورى عبر

كانت بأفق سماء العز شاهقة ... أبراجها باسقات خرتها خطر

فركب المسلمون البحر باذلة ... أرواحها في سبيل الله تدخر

لم يبق منهم أمير لا ولا ملك ... يأوي مقراً إلى أن مدت الجسر

وعجل الله بالفتح المبين لهم ... هذا الفتوح الذي توفى له النذر

يرضى به الله والإسلام قاطبة ... وشاهد القول فيه العين والأثر